مستوحاة من قصّة حقيقيّة

الأميرة وبنت الريح

مكتبة | ١٤٤

ستايسي غريغ

نوفل

الأميرة وبنت الريح

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2014 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2014
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/hachette-antoine

اقتباس تصميم الغلاف: **معجون**
اقتباس التصميم: **ماري تريز مرعب**
طباعة: **المجموعة الطباعيّة**

ر.د.م.ك.: **978-9953-26-961-0**

Original title:
The Princess and the Foal

First published in hardback in Great Britain by
HarperCollins *Children's Books* in 2013
HarperCollins *Children's Books* is a division of HarperCollins*Publishers* Ltd
77-85 Fulham Palace Road, Hammersmith, London, W6 8JB

Text copyright © Stacy Gregg 2013

Cover photographs © Alamy
Decorative illustration © Galia Bernstein
Cover layout design © HarperCollins*Publishers* Ltd 2013

tele @ktabpdf　مكتبة الرمحي أحمد

الأميرة وبنت الريح

ستايسي غريغ

للمزيد والجديد من الكتب والروايات
زوروا صفحتنا على فيسبوك

نقلته من الإنكليزيّة رنا حايك

مكتبة الرمحي أحمد

نوفل

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هل كلّ ذلك حقيقيّ؟ تسألين.
فأقول نعم، وتحديدًا أغرب ما فيه من تفاصيل. تلك التفاصيل هي الحقيقة بعينها.

إلى سموّ الأميرة هَيا بنت الحسين،
وإلى كلّ أميرة تجرؤ على أن تحلم.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هذا الكتاب هو عمل روائـيّ مستوحًى من طفولة سموّ الأميرة هَيا بنت الحسين. إنّ أيّة أحداث تاريخيّة، أو أسماء لأشخاص حقيقيّين أو لأماكن حقيقيّة وَرَدَ ذكرها في هذا الكتاب، قد تمّ تناولها كجزء من العمل الروائيّ. أمّا الأسماء والشخصيّات والأحداث الأخرى، فهي من نسج خيال الكاتبة، وأيّ تشابه بينها وبين أحداث أو أماكن حقيقيّة أو أشخاص أحياء أو أموات هو من باب المصادفة البحتة.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

23 أغسطس 1986، منتصف الليل

ماما،

أكتب إليكِ على ضوء المصباح، وأنا مختبئة تحت اللحاف. لا أجرؤ على إشعال الضوء حتّى لا تستيقظ فرانسيس وتكتشف أنّني لم أَنَمْ بعد، ففرانسيس هي آخر شخص أريد التعامل معه الآن.

أعرف أنّ عليَّ أن أكون نائمة في مثل هذا الوقت، لكنّني متوتّرة جدًّا بخصوص الغد. في مكتب سانتي في الإسطبلات روزنامة علَّمْتُ فيها مربّعات الأيام بالأحمر مربّعًا مربّعًا. كلّما اقترب الموعد، ازداد الوجع في بطني. رغم طول انتظاري له، باغتَني حين حلّ. ولكن لا انتظار بعد الآن. بعد ساعات قليلة، سيطلع الفجر، وسأنزل إلى الإسطبلات وأجهّز «بري». سوف أجدل ذيلها، وأعصب قوائمها، ثمّ سنحمّل الأحصنة في الشاحنة ونعبر الصحراء، في رحلة ستعود على الإسطبلات الملكيّة إمّا بالخسارة أو بالمجد والغار.

أتعرفين؟ أكتب إليكِ هذه الكلمات وأنا أرتجف. لكنّي أحاول أن أقنع نفسي بأنّ تلك الرجفة ليست بسبب الخوف، بل الحماسة.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ففي تاريخ بطولة الكأس الملكيّة كلّه، لم تشارك فتاة. ولا مرّة. لكنّي لست مجرّد فتاة عاديّة. أنا بدويّة من القبيلة الهاشميّة، وقد وُلِدْتُ لأكون فارسة. منذ آلاف السنين، امتطَت نساء قبيلتي خيولًا، وقاتلْنَ جنبًا إلى جنب مع الرجال. حسنًا، أنا لا أريد أن أقاتل، كلّ ما أريده هو أن أفوز.

غدًا، ستحدّق إليّ من المدرّجات آلاف الوجوه. بابا سيتفرّج عليّ من المقصورة الملكيّة وفي جانبه علي، وأكيد، فرانسيس، التي ستناطح لتجدَ لها مكانًا بينهما. ستكون بانتظار أن أفشل، أن أجعل من نفسي مهزلة أمام كلّ هؤلاء الناس. هي التي تنتقدني دائمًا أمام بابا. تقول له إنّه من غير اللائق أن تقضيَ ابنة ملك الأردن وقتها في الإسطبلات، تنظّف قذارة الأحصنة. فرانسيس تحاول دائمًا أن تجعل منّي شخصًا مختلفًا لا يشبهني في شيء. تريدني أن أكون كإحدى أميرات القصص الخياليّة – محبوسة في برجي العاجيّ، أتبَخْتَرُ بفستان سهرة طويل وتاجٍ ذهبيٍّ وخفّين من زجاج. فليدلّوني على فتاة واحدة في هذا العالم تتمشّى بخفّين من زجاج! لو كان الأمر بيدي، لكنت قضيت النهار كلّه ببنطال الفروسيّة.

«والدتكِ كانت دائمًا تتصرّف بمنتهى الأناقة.» هذه هي تمامًا كلمات فرانسيس. أحيانًا تتحدّث بنبرة متكبّرة وفخورة كما لو أنّها تتحدّر من أصولٍ ملكيّة وليست مجرّد مربّية واجبها أن ترعاني!

فرانسيس تريدني أن أكون نسخةً مصغّرة عنكِ. تردّدُ ذلك دومًا، وهذا يُغيظني. ففي الحقيقة، لو كنتِ هنا لَما اضطررتُ إلى الاستماع إليها، ولا إلى ارتداء تلك الفساتين السخيفة للعشاء، أو تحمّل أيٍّ من القواعد التي تضعها تلك المرأة. لو كنتِ هنا لَفعلتُ ما يحلو لي.

أقول لها إنّكِ كنتِ ملكة، ورغم ذلك كنتِ ترتدين التي-شيرت والجينز. ما زلت أذكر بنطلون الجينز المفضّل لديك. كان لونه أحمر. اشتريتِه من روما عندما كنتِ لا تزالين صبيّة، قبل أن تتزوّجي بابا.

كنتِ ترتَدين ذلك الجينز، ترفعين شعرك الطويل عن وجهك، وتُسدلينه على كتفيك. شعري أيضًا أصبح طويلًا، لكنّه بنّيّ سادة. بابا يصرّ على أنّني أبدو مثلك تمامًا، لكنّك كنتِ مميّزة. كنتِ نجمة سينمائيّة بالنسبة إليّ، بعينيك الخضراوين وشعرك الأشقر الغامق. أحيانًا، حين أغلق عينيّ، أستطيع أن أرى وجهك وأن أسمع ضحكتك وكأنّها موسيقى تملأ قصر الندوة.

أذكر أنّني كنت أسألك: «هل بإمكاني أن أصبح ملكة ذات يوم؟» وكانت إجابتك دومًا واحدة. كنت تقولين لي: «هَيا، أنت أميرة الأردن. ربّما يأتي يوم تصبحين فيه ملكة إن شاء الله. لكنْ، تذكّري دائمًا أنّ لقبك هو مجرّد حبر على ورق، كلمة على صفحة من كتاب التاريخ، ليس أكثر. ما تحملينه في داخلك هو الأهمّ، بل هو كلّ شيء. عليك أن تكوني دومًا على حقيقتك. لا تدّعي، لا تكوني متكلّفة. كوني أنتِ هيَا، هل تفهمينني؟»

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

عندها، كنت أتأمّل وجهك بتعابيره الجدّيّة، فتضمّينني وتُمطرينني بالقُبَل إلى أن أضحك... ونضحك معًا.

آخر مرّة طرحْتُ عليكِ ذلك السؤال كنّا في حدائق الندوة. كان يومًا من أيّام الصيف المشمسة وكنتِ قد فرشتِ بساطًا على العشب، في فَيءِ شجرة الرمّان الكبيرة. كان علي معنا أيضًا، يلهو بألعابه. على الأقلّ، أعتقد أنّه كان هناك. أحيانًا، أتساءل ما إذا كنت أختلق بعض التفاصيل في قصصنا. فأنا في الثانية عشرة الآن، وذلك النهار قد بَهُتَ في ذاكرتي مثل صورة فوتوغرافيّة قديمة.

لديّ ذكرى أخرى أيضًا، أشدّ وضوحًا هذه المرّة. أنا وأنتِ وعلي أمام مكتب بابا. أراكِ منْحِنية على الأرض الرخاميّة أمام علي، تُمسكين بيديه الصغيرتين وهو يترنّح على ساقيه المكتنزتين. وما إن يثبّت وقفته، حتى تتركي يديه برفق، وعلى مهل، ثمّ تحيطينه بذراعيك من دون أن تلامسيه فيما يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف، ولا يقع. عندها تبتسمين مبْتَهِجة، ثمّ تحملينه وتقولين: «يا حبيبيييي! الآن وقد صرتَ قادرًا على الوقوف وحدك، أصبح بإمكاني أن أتركك لبعض الوقت».

ماما، أنا أحاول بكل ما لديّ من قوّة أن أقف وحدي، من دون أن تكوني هنا لتُمسكي بيدي. في البدء، لم تكن ساقاي قويّتين بما فيه الكفاية، ثمّ جاءت بري، بقوائمها الأربع، لتحملنا معًا. شجاعتها منحتني القوة التي كنت أحتاج إليها.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لَيتَكِ هنا لِتريني أمتطيها غدًا. قال لي بابا إنّه إذا كان لديّ شيء مهمّ أقوله لك، عليّ أن أكتبه. لكنّني لم أستطع القيام بذلك. على الأقلّ، ليس حتّى هذه الليلة. لديّ الكثير لأخبرك به، عنّي وعن بري وعن كلّ ما حدث منذ رحلْتِ. لكنّ الوقت تأخّر جدًّا الآن ويدي بدأت تؤلمني. من الصعب جدًّا الكتابة على ورقة فوق الفراش، وأنت تحملين مصباحًا، وتحاولين أن تتنفّسي تحت اللحاف.

ماما، هل تذكرين حين قلتُ إنّني لست خائفة؟ حسنًا، ربّما أكون خائفة قليلًا. قليلًا فقط. إنّها البطولة الأهمّ في المملكة. ماذا لو اتّضح أنّنا، أنا وبري، لسنا على المستوى المطلوب؟ لا يهمّني أبدًا رأي فرانسيس وشلّتها أنّه من العيب على الأميرات أن يمتطيْن الأحصنة. ما يشغل بالي هو أمرٌ آخر. أنا أعرف أهمّية هذه المسابقة بالنسبة إلى شعبنا، وأشعر بثقل مسؤولية ما يتوقّعونه منّي. عندما سأنطلق في الحلبة غدًا، سأحمل معي آمالهم. لن أخذلهم. سأفعل ذلك ليفتخر بابا بي، ولكنْ أيضًا، لكي أثبت نفسي وأريَهم أنّني، على صهوة حصان، لا أقلُّ مهارةً عن أيّ رجل.

أنا أميرة، لكنّ قصّتي ليست قصّة خرافيّة. لو كانت كذلك، لَكنتُ عرفت كيف ستنتهي، ولَكنتُ تأكّدت أنّ السطر الأخير فيها سيكون «عاشا معًا بثبات ونبات...». لكنّني ما زلت لا أعرف كيف ستنتهي القصّة. قصّتنا أنا وبري. كلّ ما أعرفه، هو أنّها تبدأ كما تبدأ القصص الخرافيّة: «في غابر الزمان، في ذلك المكان، بين العربان...».

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الأوّل

العاصفة

أمام القصر الملكي، هناك أسدان يحرسان الباب. يقفان منتصبيْن على قوائمهما الأربع، متنبّهيْن ومستعدّيْن، يلمع جسداهما الأملسان الذهبيّان تحت شمس الظهيرة.

لو التَفَتَ هذان الأسدان خلفهما، لَكانا لمحا الفتاة المتربّصة بهما بصمت. لكنّهما لا يتحرّكان، وتظلّ عيناهما مصوّبتين نحو الدرج تحتهما.

واحد، اثنان، ثلاثة... تقترب الفتاة على رؤوس أصابعها بقفزات رشيقة. لقد اختارت أسدها. بقفزة جريئة، تعتلي مؤخّرته، ثمّ تصل إلى ظهره وتثبّت موقعها. على وقْع خفقات قلبها المتسارعة، تمدّ ذراعيها وتقبض على عُرف الأسد بإحكام، ثمّ تغرس كعبَيْ قدميْها الصغيرتين في بطنه، من الجنبيْن.

«إنطلقْ!» تأمره. «إنطلق الآن!»

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تنحني فوق غُرفه، وترفسه ليتحرّك، تمامًا كما يفعل عمّها حين يمتطي أحصنة البولو القزمة.

على بُعد عشرة أمتار فقط، يوجد سور حجريّ ضخم. إذا تمكّنت من سوْق الأسد بالسرعة اللازمة، سيثبُ عن السور ليعبرا المروج الخضراء التابعة للمُجَمَّع الملكيّ. ثمّ سيقفزان عن السور الثاني، ويستمرّان في العَدْو إلى أن تختفِيَ آخر بنايات عمّان الكلسيّة. بعدها، ستظهر الصحراء برمالها الحارقة فيعبرها الأسد كالبرق بفضل مخالبه المبطّنة. ولكن، عليهما اجتياز السور الحجريّ الضخم أوّلًا!

كانت هَيا تستحثّ الأسد، وهي مكوّمة على ظهره، ترفس برجليْها وتضغط بيديْها، عندما شعرت بظلّ قاتم، طويل، يلوح خلفها.

«سموّكِ؟» رفعت الفتاة الصغيرة عينيها وابتسمت للوجه اللطيف. إنّه وجه زهير، كبير الخدم.

«أميرة هَيا، الملكة عليا تبحث عنك»، قال لها.

زحْزَحَت ساقيْها، ثمّ انزلقت على مؤخّرة التمثال، فحطّت بمهارة على قدميها، وركضت أمام زهير. هَيا في الثالثة من عمرها، عيناها بنّيّتان مشرِقتان وشعرها غامق اللون يصل حتّى كتفيها. صحيح أنّها تُعتبَر نحيفة بالنسبة إلى سنّها، إلا أنّ ذراعيها الهزيلتين تتمتّعان بالقوّة اللازمة لدفع أبواب القصر الضخمة المصنوعة من خشب الساج والمرصّعة بكريات نحاسية تكاد تكون كلّ واحدة منها على مقاس رأسها.

في البهو، طالعت هَيا وجوه الملوك في اللوحات والصور المعلّقة، فشعرت بأنّ عيونهم تراقبها وهي تَنَطْنِط، وقدماها تطقْطِقان على الأرضيّة الرخاميّة الباردة. والدها ملك، لكنّه ليس معهم على الحائط. كلّما حاولوا أن يعلّقوا له صورة، قال لهم بابا لا، شكرًا، فهو لا يرغب في التحديق إلى نفسه طوال النهار. يفضّل صور الدبّابات والسفن، وطبعًا... الخيول. بابا يعشق الخيول، تمامًا مثل هَيا.

يقولون إنّ أباها هو أسد الأردن، لكنّ هَيا لم تسمعه مرّة يزأر. هو رجل لطيف معسول اللسان، وسيم، شعره قصير داكن، ولَدَيْه شاربان. عيناه تتّقدان ذكاءً، وابتسامته دافئة ووادعة. لكنّه اليوم لم يكن يبتسم. لاحظت ذلك وهي تسْتَرِق النظر من البهو إلى الداخل. كان جالسًا خلف مكتبه، وحاجباه معقودان بقلق. أمامه، تتوسّط الغرفة سجّادة من فرو الدبّ. كانت والدتها هناك أيضًا، واقفة على الدبّ، وهي تحمل أخاها الصغير علي حول خصرها.

«لقد تحدّثْتُ مع المسؤولين في طفيلة»، قالت الملكة. «الأمور تزداد سوءًا هناك، ساعة بعد ساعة. اللاجئون يتدفّقون بالأفواج ومعظمهم من النساء والأطفال يحتاجون إلى الغذاء والدواء. الفريق الطبّيّ في المستشفى مُنهَك والأسرّة لم تعد تكفي. الناس ينامون على الأرض ومن دون بطّانيّات. ليس بوسعهم الانتظار يومًا آخر. يجب أن أذهب اليوم بعد الظهر إلى هناك، بالهليكوبتر، وأحمل إليهم الأدوية والإمدادات، بينما تُقابل أنتَ الموفدين الأجانب في العقبة.»

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كانت الملكة تتحدّث والأمير علي يتلوّى ويتململ على خصرها. فاليوم فقط وَقَفَ للمرّة الأولى وحده. بعد الآن، لن يرضى أن تأسُره ذراعا والدته. كانت ساقاه الصغيرتان القويّتان ترفسانها وهو يصارع طلبًا للحرّيّة.

مع اقتراح زوجته هذا، تفاقَمَ القلق على وجه الملك. «عليا، اتّفقنا خلال الفطور أنّك ستستقلّين السيّارة. السفر جوًّا غير مُستَحبّ في ظلّ العاصفة التي نترقّبها.»

«إذا ذهبْتُ بالهليكوبتر سأتمكّن من العودة إلى المنزل بحلول الليل»، قالت الملكة. وقبل أن يتمكّن زوجها من الاعتراض، أضافت: «لقد عرَضَ بدر ظاظا أن يقود الهليكوبتر بنفسه.»

بدر ظاظا هو طيّار الملك الشخصيّ، وأكثر طيّاري الأردن مهارة. أومأ الملك برأسه موافِقًا على خطّة زوجته. «إذا كان بدر ظاظا هو مَن سيتولّى القيادة، فليكُن.»

«أنا أيضًا أريد أن أذهب!»

كان ذلك صوت هَيا، وقد وقفت عند المدخل، عيناها تلمعان من الإثارة.

«هَيا!»، زَجَرَتْها والدتها. «ماذا قلتُ لك البارحة عند العشاء؟ ألم نتّفق أنّك، إن أردتِ مرافقتي، عليكِ إكمال كلّ ما في صحنك من لحم وخضار؟»

«علي أيضًا لم يكمل صحنه!»، قالت هَيا دفاعًا عن نفسها.

«هو أيضًا باقٍ في المنزل»، قالت أمّها وهي تهدهد علي برفق. «غرايس ستهتمّ بكما حتّى عودتي، وفي المرّة المقبلة، إذا أكملْتِ صحنكِ، آخذكِ معي. اتفقنا؟»

رغم اقتراب العاصفة، كانت الشمس لا تزال ساطعة فوق القصر. على المرجة، بالقرب من شجرة الرمّان حيث لعبت هَيا في ذلك الصباح مع أمّها، كانت الهليكوبتر جاثمة كحمامة نائمة.

«هل ستذهبين بعيدًا؟» سألت هَيا أمّها.

«نعم»، أجابت الملكة، « لكنّ غرايس ستهتمّ بك خلال غيابي».

كانت غرايس، مربّيتهما، تقف في جانبهما على الشرفة المُفْضِية إلى المرجة، وهي تحمل علي بين ذراعيها. غرايس لطيفة، وتخبز البسكوت.

قالت هَيا لوالدتها وهي عابسة: «ألن تضعيني في السرير؟»

«لا. الليلة، بابا هو مَن سيضعكِ في السرير. وحين تستيقظين في الصباح، سأكون قد عُدْتُ.»

مدّت غرايس يدها وأمسكت بيد هَيا. إنّه وقت الوداع. «كوني عاقلة، هَيا»، همست والدتها في أذنها وهي تطبع قبلة على خدّها.

قبّلت الملكة علي أيضًا، وانطلقت تجتاز المرجة باتجاه الهليكوبتر.

«إنتظري! ماما!» صرخت هَيا، لكنّ محرّك الهليكوبتر كان قد دار، مبتلِعًا كلماتها. شعرت هَيا بقبضة غرايس تشتدّ على يدها

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لتمنعها من مغادرة الشرفة. لكن فجأة، أصبحت غرايس تقبض على الهواء. فقد أفلتَتْ هَيا وانطلقَتْ كالمجنونة نحو والدتها، عبر المرجة الخضراء المنبسطة. كانت الملكة قد وصلت تقريبًا إلى الهليكوبتر عندما أدركَتْها هَيا.

«ماما!» صرخَتْ هَيا وهي تتشبّث بساق الملكة التي انتفضت من الفزع. فوق رأسيْهما، بدأت مروحة الهليكوبتر تدور. لقد استفاقَت الحمامة.

أرادت هَيا أن تقول شيئًا لماما، لكنّ ضجيج الهليكوبتر الهادر طغى على صوتها. كانت كلماتها تطير في الهواء. «لا تذهبي!»، صرخت. «ماما، أحبّك. إبقي معي!» ثمّ نظرت إلى عينَيْ والدتها، فأدركت أنّها ليست بحاجة إلى قول المزيد. ماما تعرف كلّ شيء.

انحَنَت الملكة ورفعت ابنتها عن الأرض، حملتها بين ذراعيها وضمّتها بقوة إلى صدرها. قبّلتها للمرّة الأخيرة، فشعرت هَيا بنعومة بشرة ماما. تقدّمت غرايس نحوهما وهي تحمل علي على خصرها. ناولتها الملكة هَيا، فثبّتتها على خصرها أيضًا، قبل أن تتوجّه بالاثنين نحو المصطبة. أصبحت مروحة الهليكوبتر تدور أسرع، ثمّ أسرع ثمّ أسرع، حتّى أصبحت مشوّشة. هبّ الهواء قويًّا فبعثر شعر هَيا، وسوّى ورود الحديقة بالأرض.

في البدء، علت الهليكوبتر عن الأرض قليلًا، ثمّ عادت وارتطمت بها وكأنّها متردّدة، قبل أن ترتفع أكثر وكأنّها ورقة من أوراق الشجر

طارت في هبّة هواء. تأرجحت قليلًا، ثمّ انطلقت، بعيدًا من جدران القصر العالية ورؤوس الأشجار التي خلفه، نحو التلال البعيدة.

حاولت هَيا أن تتابعها بنظرها، لكنّ نور الشمس بَهَرَ عينيها فأقفلتهما للحظة. وحين فتحتهما مجدّدًا، كانت الهليكوبتر قد اختفت كليًّا.

*

انكمشت هَيا على نفسها حتّى أصبحت مثل الكرة. صحيح أنّ العتمة شديدة هنا، لكنّ المكان دافئ وجميل، خصوصًا بوجود «دول»، دميتها المفضّلة، ذات القبعة الزهرية والعينين المغمضتين والساقين الطريّتين، معها هنا.

«ششششش...»، هَمَسَتْ هَيا لـ«دول». «أعتقد أنّني أسمع أصواتهم. إنّهم قادمون. إهدئي وإلّا سيجدوننا.»

تعالت بعض الأصوات في الخارج، ثمّ سمعت هَيا باب السيّارة ينغلق. أخذ قلبها يخفق بسرعة حين سمعت أزيز المحرّك. لقد انطلقوا!

لكنّ السيّارة سرعان ما توقّفت، وعادت الأصوات والدعسات مرّة أخرى. فجأة، فُتح الصندوق على وسعه، فبَهَرَها ضوء النهار.

«هَيا! ليس مجددًا!»

إنّه بابا. لقد فتح صندوق السيّارة ووجَدها!

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

«هَيا...» لم يبدُ الملك متفاجئًا لرؤية ابنته في صندوق السيّارة. فهذا مشهد قد اعتادَتْه. «نطّي إلى الخارج، وبسرعة من بعد إذنك، فأنا مستعجل.»

أوّل مرّة اختبأت فيها هَيا في صندوق المرسيدس، سيّارة بابا، نَجَتْ بجلدها حتّى العقبة. ولكن، مذ حينها، انتبه الملك لحيلتها، فأصبح يفتّش السيّارة دومًا قبل أن ينطلق بها.

ببطء شديد، فَرَدَتْ هَيا جسدها، وكأنّ المماطلة ستفيدها في شيء ثمّ قالت متوسّلة: «أرجـوك، هل أستطيع أن أذهـب معك؟ سأكون عاقلة، لن تشعر بي، أعدك».

حاول الملك أن يكبت ابتسامته. تلك الملعونة المحتالة! انحنى وانتشلها من الصندوق وهو يقول لها: «أنتِ؟ عاقلة؟ هذا شيء من الصعب تخيّله!»

لقد فشلت الخطّة. لن تذهب هَيا إلى أيّ مكان. الآن، سيكون على غرايس أن تسلّيَها.

بعد ظهر ذلك اليوم، أعدّتا معًا، في مطبخ القصر، وصفة غرايس من البسكوت بالتمر واللوز. كانت مهمّة هَيا صنع كرات صغيرة من العجينة، وتغميسها بالسكّر، ثمّ ثقْبها بالشوكة، قبل وضعها على صينيّة الفرن.

ومَن كان المستاء من كلّ ذلك؟ اسماعيل طبعًا، كبير الطهاة. فقد احتلّت غرايس وهَيا مطبخه. صحيح أنّه لم يشتكِ – وكيف له

أن يوبّخ ابنة ملك؟ – لكنّه ظلّ يتذمّر ويتأفّف ويُطَرْطِق بشدّة على طناجره ومقلاته وهو يطبخ. كان يُعِدّ المنسف للعشاء: طبقًا من لحم الخروف مع الأرزّ واللبن الكثيف والحِرّيف. «طعامًا بدويًّا»، يسمّيه اسماعيل، طعامًا دسمًا إلى درجة أنّه قد يسندك لأيّام.

هو الطعام الذي كان أسلاف هَيا الرحّل يتناولونه خلال تنقّلاتهم عبر الصحراء الشاسعة. جدّ أبيها، الملك عبدالله، تناول المنسف مع لورانس العرب خلال قيادته الجيش البدويّ أثناء الثورة العربيّة.

لم يتسنَّ لهَيا التعرّف إلى جدّ أبيها، لكنّها رأت صورته على حائط الملوك. كان بابا معه يوم توفّي، يرافقه للصلاة. كانا يصعدان درج الجامع في القدس عندما فتح القاتل النار. أصيب الملك عبدالله، وكان والد هَيا ليُقتَل لو لم يكن يرتدي زيّه الرسميّ الجديد الذي دُبّسَت به، لجهة القلب، ميداليّة المبارزة بالسيف. فالميداليّة هي التي ردّت الرصاصة وأنقذت حياة والدها.

تربّع حسين، والد هَيا، على العرش وهو في السابعة عشرة من عمره. كان الرؤساء ونوّاب الرؤساء والملوك والملكات يتوافدون إلى الندوة لزيارته. يجلسون ويتحادثون لساعات طويلة، لكنّهم يأتون دائمًا من دون أولادهم، فتكاد هَيا تموت ضجرًا.

خلال تلك الزيارات، كانت تُقام حفلات عشاء كبيرة، يتحوّل معها المطبخ إلى حلبة مصارعة، إذ ينحشر فيه ستّة طبّاخين يعملون جنبًا إلى جنب. لذلك، لم يكن بوسع هَيا أن تفهم لِمَ يتذمّر اسماعيل

اليوم بالذات لأنّهما تشاركانه مطبخه. الأكيد أنّ مساحة المطبخ ليست هي السبب، فالمكان يَسَعُهما هي وغرايس إلى جانبه.

عندما أصبح البسكوت جاهزًا، تناولتاه في الغرفة الزرقاء، وهي غرفة مخصّصة للعائلة، أصغر بكثير من صالة الطعام الضخمة. كل شيء فيها أزرق – حيطان زرقاء، ستائر زرقاء، حتّى الصحون والأطباق زرقاء. اعتادت هَيا أن تحمل الكأس عاليًا وتنظر إلى طعامها من خلالها، فيصبح الطعام أيضًا أزرق.

رغم انشغاله الدائم، كان والدها يحرص على تناول الفطور في المنزل، لكنّه قلّما استطاع مشاركة عائلته العشاء. فمشاغل الملوك كثيرة.

«والدك ملكٌ على أمّة»، تقول لها ماما. «الأردنيّون إخوتك وأخواتك، وعلينا أن نحبّهم وأن نهتمّ بهم كما نفعل معك.»

في المبدأ، كان لهَيا ملايين الإخوة والأخوات. لكنْ، فعليًّا، كان لديها علي فقط، والمائدة التي أعدّت في ذلك المساء كانت لثلاثة أشخاص فقط: لها ولعلي وغرايس، لأنّ والدها لم يكن قد عاد من العقبة بعد، ووالدتها كانت لا تزال في المستشفى، في طفيلة. عادة، تكون وجبة العشاء فرصة لتبادل الأحاديث والضحك. لكنْ، في ذلك المساء، لم تكن كذلك. كانت غرايس تتصرّف بغرابة، وكأنّ أمرًا ما يقلقها. تساءلت هَيا ما إذا كان الاتصال الذي وردَها قبل العشاء مباشرة هو السبب.

كانت العاصفة على وشك الهبوب. من شبّاك الغرفة، رأت هَيا رؤوس أشجار النخيل تتمايل وتلوي في الريح. وضعتها غرايس في السرير وظلّت معها لفترة طويلة. فالأصوات كانت مخيفة – حتّى بالنسبة إلى فتاة شجاعة مثل هَيا.

«لا أريد أن أغفُوَ قبل عودة بابا وماما»، قالت هَيا لغرايس. كانت غرفة هَيا في الطابق الأوّل، وسريرها ملاصق للنافذة تمامًا. لطالما أحبّت هَيا تأمّل الطائرات منه، فالقصر قريب جدًّا من المطار إلى درجة أنّه حين تقلع الطائرات، تشعر هَيا بأنّ باستطاعتها أن تمدّ يدها وتلمس بطونها. لطالما أحبّت مشهد الأضواء وهي تومض بالأحمر والأخضر والأبيض على أطراف أجنحتها. لكنْ، في تلك الليلة، لم يكن هناك أيّ طائرات تتأمّلها. فقد أقفل المطار بسبب قوّة الرياح. مسّدت غرايس شعرها، ثمّ وضعت دول إلى جانبها في السرير. «هيّا نامي الآن. سأكون في الغرفة المحاذية، عند علي.»

ظلّت هَيا تدور وتتقلّب تحت البطّانيّة وهي ممسكة بـ«دول». كانت تعجز عن النوم. علا صوت الريح في الخارج. راحت أشجار النخيل تهتزّ وكأنّها دمى من قماش.

في عتمة غرفتها، تشبّثت هَيا بدول. دوّى الرعد بقوّة شديدة، فكادت تنادي غرايس ثمّ سمعت أصواتًا آتية من الطابق السفليّ. لقد عادوا!

تشقْلَبَت بسرعة وهي تُمسك دول من ذراعها، ونطّت من السرير. نزلت على الدرج فرأت والدها. لقد عاد، ومعه آخرون. كان يتحدّث مع رجل يرتدي زيًّا رسميًّا، زيّ الطاقم الملكي. كان الرجل مَحنيَّ الرأس، يسلّمه غرضًا صغيرًا يلمع.

«بابا!»

اندَفَعَتْ هَيا كالسهم فالتَفَتَ الملك ليرى الأميرة الصغيرة في ثياب النوم أمامه، وهي تحمل دمية قبّعتها زهريّة. نظرت إلى وجهه. كان يبكي. صدمها المشهد. فهي لم تَرَهُ يبكي من قبل. لم يحاول أن يخفي دموعه حتّى، بل تركها تنساب على خدّيه من دون أن يمسحها.

«هَيا!» حملها بابا، فشعرت بذراعيه القويّتين، الآمنتين، تحيطان بها. «لا بأس...»

احتضنَته بقوّة ودفنت رأسها في صدره. عندها، لمحت ذلك الغرض في يده اليمنى، الغرض الصغير واللمّاع الذي أعطاه إيّاه الرجل. الآن رأته بوضوح: إنّه ما تبقّى من ساعة يد ماما.

الفصل الثاني

أسطورة «الأفراس الخمس»

أخذ بابا يهَدْهِدُ هَيا وهي تشهق في البكاء. بكت إلى درجة أنّها كادت تختنق بدموعها. تشبّثت ببابا. كانت ذراعاه القويّتان تحتضنانها بقوّة وتضمّانها إلى صدره، لكنّها رغم ذلك لم تهدأ. هي تريد ماما. لكنّ أمّها لن تعود إلى المنزل. لا اليوم، ولا غدًا، ولا في أيّ يوم بعد الآن.

هذا ما قاله بابا لهَيا. قال إنّ ماما كانت في منتهى الشجاعة حين قرّرت الذهاب إلى طفيلة، رغم معرفتها بقدوم العاصفة. ساعدت الناس في المستشفى وأمّنت لهم البطّانيّات والدواء والطعام. كانت السماء قاتمة وملبّدة حين غادرت المستشفى، لكنّ الطيّار اعتبر أنّ بإمكانهما اجتياز السحب السوداء. كانا يطيران فوق الصحراء، على أطراف عمّان، حين عَلِقا في العاصفة وصَعَقَ البرق الهليكوبتر.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

في تلك الليلة، ظلّت هَيا ملتصِقة ببابا كيفما تحرّك، حتّى أثناء تسجيله الخطاب الذي سيُذاع على الراديو والذي أخبر فيه الجميع أنّ الملكة ماتت. جلست في حضنه وهو يكتب الكلمات التي سوف يتلوها على الأمّة. فيما كان يتحدّث على الراديو، كان صوت ناعم مُبهَم يتردّد في الخلفية. إنّه صوت تنفُّس علي وهو غافٍ بسلام بين ذراعَي الملك.

في تلك الليلة، نامت هَيا وعلي في السرير الكبير إلى جانب بابا. حين استيقظت صباحًا، كانت العاصفة قد ولّت. وكذلك كانت ماما.

في البدء، لم تصدّق ذلك. كانت تتوقّع أن تدخل ماما في أيّة لحظة، بذراعيْها المفتوحتيْن على وسعهما، وصوتها المنغَّم الرنّان وهي تنادي هَيا.

ستعود، تقول هَيا في قلبها. من المستحيل أن تكون رحلت فعلًا.

لكنّ ماما لم تَعُدْ هنا. لا على الفطور. لا لتمشّط لها شعرها. ولا لتختار لها ثيابها. وعلي لا يتوقّف عن النحيب. هو يبكي لأنّه لا يفهم لماذا لا تأتي ماما إليه.

«ششششش، علي، أنا هنا.» تُنزل هَيا قضبان المهد وتندسّ في داخله، قرب أخيها. الدموع تخطّط وجه علي الصغير ويداه تقبضان بشدّة على بطّانيّته. تُهَدْهِدُه هَيا إلى أن يتوقّف عن البكاء.

في تلك الليلة، عند العشاء، كانت هَيا قد قرّرت أنّ الذنْب هو ذنْبها. هي السبب في رحيل ماما، ولكن لا بأس. ذلك شيء بإمكانها

أن تعالجه. حين قُدّمَ الطعام، لم تترك هَيا لقمةً في صحنها. كادت أن تختنق وهي تعلك اللحم، لكنّها نظّفت صحنها عن آخره. ذلك سَيَفي بالغرض. الآن ستعود ماما.

لكنّ حيلة اللحم لم تنفع. حتّى في الليلة التالية، حين أكلت اللحم كلّه، بالإضافة إلى الخُضَر، لم تعد ماما. فبدأت هَيا تقتنع أنّها مهما أكلت من لحم، لن تعود ماما إلى المنزل. في الليلة الثالثة، دفعت صحنها بعيدًا، وحدّقت إلى اللحم وكأنّ اللوم كلّه يقع عليه. لن تتناول اللحم بعد اليوم.

في كلّ ليلة، كان بابا يمكث بجانب سريرها، ويظلّ يمسّد شعرها إلى أن تغفوَ، لكنّه لم يستطع أن يمنع تلك الكوابيس التي توقظها ليلًا، وتجعلها تَنْشَجُ وحدها في عتمة الغرفة. هي كوابيس عن أمّها حين علقت في العاصفة. ترى فيها هَيا اللحظة التي لمع فيها البرق. أكانت ماما خائفة حين سقطت من السماء؟ هل تألّمت؟

في الأيّام الأولى بعد وقوع الحادثة، غرق القصر في الصمت. ثمّ عاد الصخب بسبب التحضيرات التي تسبق الجنازة الرسميّة. جاء الوجهاء من مختلف أنحاء العالم العربيّ والعالم بأسره لتأدية واجب العزاء. كان أقرباء هَيا وأبناؤهم في غاية اللطف معها ومع علي. بدا الأمر وكأنّ هناك حفلة كبيرة والكلّ أتى لحضورها. ثمّ، فجأة، رحل الجميع مجدّدًا، وعاد القصر موحشًا وفارغًا من دون ضحكة ماما.

أصبح لخطوات هَيا صدًى حين تمُرّ في الرواق. تغيّر القصر. حاولت أن تُعدّ البسكوت كالعادة. اسماعيل لم يعُد يتشكّى أبدًا، حتّى وهي تُعيق دربه في المطبخ. أصبح لا يزيح نظره عنها، بعينيه الضبابيّتين الرطبتين وكأنّه على وشك البكاء. اشتدّ الحزن في هذا المكان إلى درجة لم تَعُدْ هَيا تتحمّلها.

«حسنًا»، قال بابا، «أنا أعرف إلى أين بإمكاننا الذهاب».

حين وصلت المرسيدس، صعدت غرايس وهَيا وعلي إلى المقعد الخلفيّ، وجلس الملك في المقعد الأماميّ مع حارسه الشخصيّ، ثمّ شقّت السيّارة طريقها في اتّجاه بوّابات المجمّع الملكيّ.

توقّف السائق أمام حاجز تفتيش عند أطراف المجمّع، وتبادل بعض الكلمات مع الحرس الذين ألقوا التحيّة مودّعين. تركوا المجمّع وضواحي عمّان خلفهم وصعدوا التلال في اتجاه الغابة، على طرقات تلتوي وتتعرّج بين شجراتٍ من الصنوبر. كان الطقس حارًّا في الخارج، لكنّ التكييف أنعش الجوّ داخل السيارة.

حاولت غرايس أن تفتح حديثًا، لكنّ هَيا أدارت وجهها. كانت شاردة في الأحراج المحيطة، تتأمّل ظلال الأشجار وهي ترسم خيوطًا من الضوء على زجاج النافذة الملوّن. لم يَعُدْ لديها ما تقوله. هي أصلًا لا تريد أن تقول شيئًا، لا شيء عن أيّ شيء، وخصوصًا عن ماما.

في أعلى التلّ، طالعَتْهم بوّابة زرقاء من الحديد المصبوب تستند إلى عمودين أبيضَين. انعطف السائق بالسيّارة وسَلَكَ دربًا تحيط به

شجرات النخيل من الجنبين، وتظهر في آخره مباني الحُمّر البيضاء: إنّها الإسطبلات الملكيّة.

بدت الإسطبلات كقلعة إسبانيّة بيضاء، أبوابها ونوافذها مزركشة بالدهان الأزرق الساطع. على طول الممرّ المؤدّي إليها، تبرز أزهارٌ حمراء من داخل أصصٍ طينيّةٍ وتغطّي القناطرَ دوالٍ بنفسجيّة متعرّشة. كان هناك باحتان، في إحداهما بركة مياه للشرب مصنوعة من القرميد المطليّ بالأزرق، تتوسّطها نافورة. هنا تستريح الأحصنة كلّ يوم وتشرب ما تحتاج من ماء. يبدو التراب حول البركة قاسيًا كالصخر بعد أن حمّصته الشمس، ثمّ فتّتته حوافر الأحصنة وسوّته بالأرض. الشيء الوحيد النابت هنا هو شجرة زيتون قديمة، لونها أخضر يميل إلى الرماديّ، تؤمّن أغصانها المجدولة بعض الفيء في ذلك النهار القائظ. على أطراف الباحتين، في ظلّ القناطر الإسبانيّة، تصطفّ مرابط في داخلها خيول.

خيول الحُمَّر هي أجمل خيول الأردن. تعتبرها هَيا كائنات مسحورة، بأعرافها الحريريّة، وخُطومها الناعمة كالمخمل، وعيونها القاتمة التي تخترق نظراتُها الروح.

هناك خمسون حصانًا، جميعها من سلالات عربيّة أصيلة. سانتي هو المسؤول عن الحُمَّر. إسمه الحقيقي سانتياغو لوبيز وهو مَنْ بنى هذه الإسطبلات بطلب من والد هَيا، وقد صمّمها على شكل إسطبلاته الخاصّة في وطنه إسبانيا.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كان سانتي، في ما مضى، فارسًا خبيرًا في ترويض الخيول. ولكن، حين التقاه والد هَيا في لندن حيث كانا يعيشان وقتئذٍ، كان يعزف الموسيقى مع فرقته اللاتينيّة الخاصّة، في فندق آستور، في سهرات كانت تبثّها إذاعة بي.بي.سي.

تتصاعد الموسيقى في كلّ الأوقات من مكتب سانتي في الباحة الأولى. «إنّها تحفّز الخيول على الرقص»، يقول لهَيا التي تشكّ قليلًا في ما يقوله.

«تيتش...»، هكذا يناديها سانتي. استقبلها قائلًا: «آه، تيتش، الحمدلله أنّك وصلت أخيرًا. الأحصنة تسألني منذ الصباح متى ستأتين!»

لم تردّ هَيا. لم تنطق. ولا حرف. لكنّ سانتي لا يهاب صمتها.

«كم إنّك ثرثارة. توقّفي عن الكلام، تيتش!» قال لها: «أصمتي، أيّتها الصغيرة، ستجفل الأحصنة من كلّ هذا الضجيج الذي تُصْدِرينَه!»

لم تستطع هَيا أن تتمالك نفسها، فابتسمت، ولو أنّها كانت ابتسامة صغيرة. سانتي لا يبالغ في رعايتها كما يفعل الجميع في القصر. لا ينظر إليها وكأنّها محلّ شفقة. تَرَكَها تجول في الباحتين بينما وقف في الشمس يتبادل الأحاديث مع الملك وغرايس التي كانت تُهَدْهِد علي الغافي على ذراعها.

على الموقد الصغير قرب طاولة المكتب، يحتفظ سانتي دائمًا بركوة من القهوة بالهال. صبّ فنجانًا للملك وآخر لغرايس، ثمّ وضع

الإبـرة على الأسطوانة، فملأت أنغام الموسيقى الإسبانيّة أرجاء المكان. جلسوا أمام المكتب يراقبون المُهرات تتجمّع حول البركة كمجموعة من الفتيات يتبادَلْن أسرارهنّ الصغيرة. حين تكبر هذه المهرات، بقوائمها الممشوقة والرشيقة، ستزول البقع الزهريّة والرماديّة عن جذوعها، وستصبح ذات لون أبيض صافٍ، كأمّهاتها التي وقفت في فيء المرابط تحرسها.

الأفراس، المهرات، والفحول، كلّها تعيش معًا. كانت هَيا تعرف معظمها بالأسماء. تزورها واحـدةً واحـدة. هي أقصر من أن تراها من خلف الأبواب. لذلك، كانت تتسلّق، متمسّكة بقضبان المرابط الخشبيّة لتلقِيَ التحيّة على كلٍّ منها.

طبعًا، كان بعضها أحبّ إلى قلبها من البعض الآخر. مِن بينها، جميلة، الفرس الكستنائيّة التي تشبه فرس البحر، بجبينها العريض وفُتْحات أنفها الواسعة. تتميّز جميلة ببريقٍ أبيض ناصع وعُرفٍ ذهبيّ ينسدل إلى ما تحت كتفيها. حازت الكثير من الميداليّات والجوائز على جَمالها. ثمّ هناك بحر، الفحل الرماديّ الأنيق المنمَّش، بعينيه البنيّتين الضخمتين اللتين تحدّهما رموش ترفّ وكأنّه نجم سينمائيّ. بحر ليس ودودًا جدًّا، غالبًا ما كان يتمنّع عن التحيّة، لكنّ هَيا كانت تصرّ. تأتيه حاملة بيدها كومة من البرسيم وتظلّ تناغشه إلى أن يتنازل ويقضمها. أمّا آخر مربط كانت هَيا تزوره، فهو ذاك الذي يُؤوي فرسها المفضّلة: أمينة.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كان مربط أمينة يقع في آخر الرواق، في الباحة الثانية. هي فرس كُمَيت، فروَتُها حمراء كثيفة وعُرفُها لمّاع أسود كالفحم، يكسو الأسود قوائمها حتّى العرقوب.

لمعظم الخيول العربيّة خطوم دقيقة، لكنّ أمينة لا تتحلّى بأنف جميل. هي جواد عربيّ بدويّ، بملامح خشنة وشكل جانبيّ مسطَّح، وخطْم أثقل من العادة. أمينة خُلقَت لتَثِب. هي إحدى أفضل الجياد الوثّابة في الإسطبلات، سريعة ومِقدامة.

كلّما زارت هَيا الإسطبلات، كانت تسأل سانتي أن يسمح لها بامتطاء أمينة، فيُجيبها دائمًا وهو يهزّ برأسه: «أمينة قويّة وعصبيّة، هي حصان صعب على تيتش صغيرة مثلك».

«أصلًا، أنا لست صغيرة»، كانت هَيا تجادل في محاولة فاشلة. فسانتي حازم جدًّا. «في المقابل، باستطاعتك التدرّب على داندي»، قال لها ذات يوم.

هَيا لا تريد داندي. هو فحْل اسكتلنديّ مشاكس، قوائمُه قصيرة وعُرْفُه أشعث. هو قصير إلى درجة أنّ باستطاعة هَيا تمشيط شعره من دون أن تستعين بالصندوق البرتقاليّ الذي تقف عليه في العادة. داندي يحاول دائمًا أن يعضّها عندما تمسّد جذعه. هو ليس الحصان المناسب لها.

*

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ذات يوم، زارت هَيا الحُمَّر برفقة غرايس وعلي فقط. منذ ماتت ماما، أصبحت هَيا تأتي إلى هنا مرّة في الأسبوع، وهي الآن على وشك أن تتمّ الرابعة من عمرها.

استقبلهم سانتي عند البوّابة كالعادة، ورافقَتْه غرايس إلى مكتبه حيث صبّ لها فنجانًا من القهوة. ناوَلَهُ علي إحدى الأسطوانات ليشغّلها فيما انسحبت هَيا لزيارة الأحصنة.

شقّت هَيا طريقها مباشرة نحو الباحة الثانية لرؤية أمينة. قبل وصولها، كانت أمينة قد أطلّت برأسها من باب المربط، وأذناها الجميلتان تتحرّكان بانتباه على وقع خطوات هَيا التي تقترب شيئًا فشيئًا. كان سانتي قد ترك لها الصندوق البرتقاليّ قرب مربط أمينة. أسنَدَتْه هَيا إلى الباب واعْتَلَتْه.

«أمينة!»

صهلت الفرس ردًّا على هَيا، ومرّغت أنفها بها. عادة، تطعم هَيا الأحصنة برسيمًا، لكنّها اليوم أتت لأمينة بشيء مميَّز. مدّت يدها إلى جيْبها، وسَحَبَتْ ثلاث حبوب من حلوى النعناع. ثبّتت وقفتها على الصندوق، ثمّ بسطت كفّها أمام خطم أمينة. تشمّمت الفرس كفّ هَيا بلهفة، ثمّ أخذت تقضم حبوب النعناع على مهل وبأناقة، وهي تلامس كفّ هَيا بشفاهها الناعمة إلى أن قضت على الحبوب الثلاثة. بدأت الفرس تهزّ رأسها صعودًا وهبوطًا، بينما عيناها تتّسعان وهي تمضغ. مدّت هَيا يديها الصغيرتين وفكّت المزلاج.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

تسلّقت هَيا باب الإسطبل، وما إن وصلت إلى النقطة الأعلى فيه، حتّى رمت بنفسها في الهواء! تململَتْ أمينة قليلًا حين شعرت بوزن هَيا يحطّ على ظهرها. أصدرت نَخْرة، بينما بدأت هَيا تنقر بطنها بكعبيها مستحثّة إيّاها على الانطلاق، مثلما كانت تفعل مع الأسديْن الحجريّيْن في الندوة.

أمينة ليست باردة مثل الأسدين الحجريّيْن؛ هَيا تشعر بجسمها الدافئ تحتها. قامَت هَيا بنقرة أخرى، وشدّت الرباط الذي لفّته حول عنق أمينة لتنطلقا عبر الممرّ نحو الباحة الرئيسة.

فيما كانتا تتجّهان نحو الباحة، مدّت الأحصنة رؤوسها من المرابط وهي تصهل بالتحيّة. لكنّ أمينة لم تُعِرْها اهتمامًا ولا حتّى تكرَّمت عليها بالتفاتة. بكلّ ثقة، تابعت سيرها مباشرة نحو البركة، وغمست خطمها عميقًا في المياه المنعشة. على ظهرها، جلست هَيا تداعبها، وهي تؤرجح ساقيها إلى الأمام وإلى الخلف بينما أمينة تنقر سطح الماء.

فجأة، فُتح باب مكتب سانتي على مصراعيه، وظهرت غرايس، وقد امتقع وجهها من الهلع. «هَيا!» صرخت. كانت تهمّ بالاندفاع نحو البركة حين شدّها سانتي من ذراعها.

«لا تقلقي»، سمعته هَيا يقول لها. «بما أنّهما اجتازتا المسافة من المربط إلى هنا بسلام، فذلك يعني أنّ الفرس لن تؤذيَها. عودي إلى الداخل وأكمِلي قهوتك، ودعيهما تقضيان بعض الوقت معًا.»

في طريق العودة إلى المنزل، لم تَعُدْ هَيا تلك الفتاة الصامتة. كانت الحماسة تغمرها. فقد بدأت منذ الآن تخطّط كيف ستمتطي أمينة في المرّة المقبلة التي ستزور فيها الحمَّر.

«سنرى»، قالت غرايس، وهي تحاول أن تبدوَ حازمة. شعرت بارتياح لدى رؤية الأميرة تضحك مجدّدًا، فلم تشأ رفض طلبها.

في تلك الليلة، انتظرت هَيا بفارغ الصبر عودة بابا إلى المنزل. كانت تتوق لإخباره.

«لقد امتطيْتُ أمينة اليوم»، قالت وهي تصعد على السرير ممسكةً بدول تحت إبطها.

رفع والدها حاجبيه باندهاش. «أحقًا فعلتِ؟»

«سانتي يقول إنّني موهوبة بالفطرة»، قالت هَيا بفخر. ثم سألت: «ماذا يعني موهوبة بالفطرة؟»

ابتسم بابا. «الخيول تجري في دمك هَيا. لأجيالٍ عديدة، ربّى البدو أفضل الخيول. تعود أصول الخيول البدويّة في إسطبلاتنا إلى الخيول الخمسة.»

هَيا تعرف أسطورة الخمسة. لقد سبق لوالدها أن رواها لها عدّة مرّات، لكنّها أرادت أن تسمعها مجدّدًا. استلقت على الوسادة، غطّاها والدها، ثمّ بدأ.

«منذ ألفَيْ عام، أراد أحد أجدادك الأوائل، محمّد، رحمه الله، أن يختار الفرس المثاليّة. فرس تتحلّى بالصلابة والسرعة والشجاعة

والإخلاص، ليعبر بها الصحراء الشاسعة. فجمع مئة من أفضل خيوله. طوال ثلاثة أيّام، تركها تحت شمس الصحراء الحارقة، محرومة من الماء والطعام، ليمْتَحِن صبرها. ثمّ أطلقها، وتركها تَعْدو في اتّجاه بركة مياه تنبع في واحة بعيدة. عَدَتِ الأفراس، واقتربت أكثر فأكثر من الواحة. ثمّ، ما إن كادت تصل إلى حافّة البركة حتّى رفع البوق الذي يستخدمه في المعارك ونفخ فيه، مناديًا عليها بالعودة. من الخيول المئة، خمسة فقط تحلّت بالشجاعة والإخلاص الكافيين لتعود أدراجها نحو صاحبها. عُرِفت هذه الخيول لاحقًا بـ«الخمسة». كانت كلّ منها بلون مختلف – الرماديّ، الأسود، الأغبر، الكستنائيّ، الكميت. يقال إنّ دماءها النبيلة تسري في شرايين كلّ فرس عربيّة بدويّة.»

«لماذا كانت كلّها من الأفراس؟»، سألت هَيا. «ألم يكن هناك فحول أيضًا؟»

«طبعًا، كانت هناك فحول عظيمة أيضًا»، قال والدها. «لكن، بالنسبة إلى البدو، الأمّهات، أي الأفراس، هي الأهمّ.»

«هل كان لمحمّد، رحمه الله، فرس مفضّلة؟»، سألت هَيا.

« يُقال إنّه كان يفضّل الكميت عليها جميعًا»، أجاب والدها.

«أمينة من نوع الكميت»، قالت هَيا. سكتت قليلًا ثمّ أضافت: «هل للجِمال دماء نبيلة أيضًا؟»

ابتسم والدها مجدّدًا. «الجِمال مخلوقات رائعة. من دونها، ما كان البدو ليتغلّبوا على الصحراء. لكنّ هناك رابطًا بيننا وبين الخيل.

رابطٌ عميقٌ جدًّا في قلوبنا. البدويّ يترك جِماله خارج الخيمة، لكنّ حصانه ينام إلى جانبه، في داخلها.»

«أنا أيضًا أريد أن أفعل هذا»، قالت هَيا، «كم أودّ لو تأتي أمينة إلى هنا وتنام إلى جانبي في غرفتي».

«أعتقد أنّ أمينة تفضّل البقاء في مربطها»، قال والدها. «ثمّ، لا أعتقد أنّ زهير سيُسَرُّ لرؤية بصمات حوافرها تلطّخ سجّادات القصر.»

أعاد الملك تسوية غطاء هَيا، ومسّد شعرها: «نامي هنيئًا، يا أميرتي البدويّة الصغيرة».

في تلك الليلة، وللمرّة الأولى منذ زمن طويل، لم تبكِ هَيا. استلقت على وسادتها وتأمّلت النجوم، وهي تتخيّل أمينة تعدو بها. كان باستطاعتها أن تسمع بوق المعارك وأن تشعر بانطلاقة أمينة، وهي تُحكم ساقَيها حول بطن الفرس، مستحثّة إيّاها على التقدّم. كانت تشعر بفروة أمينة الحريريّة تلامس بشرتَها، وبعرف الفرس مشبوكًا بيدها. ملأت رائحة أمينة الرائعة، الدافئة، والحلوة، حواسّها وهي تغرق في النوم.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الثالث

العقبة

ذات صباح، فيما كانا يتناولان الفطور معًا، أخبر الملك هَيا أنّ غرايس سترحل.

«والدتها مريضة جـدًّا»، شرح لها الملك، «وليس لديها أحد ليهتمّ بها. هي تحتاج للعودة إلى منزلها».

لم يَعُدْ بإمكان غرايس أن تظلّ في القصر لرعاية هَيا وعلي لأنّ والدتها تعيش بعيدًا جدًّا من عمّان.

«هل ستخبز المربّية الجديدة البسكوت؟»، سألت هَيا غرايس التي أجابتها مبتسمةً: «طبعًا!».

«ولكن، كيف ستعرف أيّ بسكوت أُحـبّ؟»، سألتها مجدّدًا. فاحتضنَتْها غرايس ومَسَحَت بكفّها الدموع الساخنة التي انهمرت على خدّيها الصغيرين. «ربّما ستعدّه بطريقة مختلفة»، قالت لهَيا، «لكنّي متأكّدة أنّك ستحبّينه أيضًا». ثمّ ضمّت هَيا بقوّة إلى

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

صدرها. «المربّية الجديدة ستحبّك بقدر ما أحبَبْتُكِ»، هَمَسَتْ لها برفق. «سوف ترين...»

*

يوم غادرت غرايس إلى الأبد، اصطحب الملك هَيا وعلي إلى منزل العائلة الصيفيّ في العقبة. انطلقوا هم الثلاثة في السيّارة الرياضيّة الزرقاء، وحدهم، لا يرافقهم سوى الحرّاس الشخصيّين الذين توزّعوا في سيّارتين، إحداهما سارت في المقدّمة والثانية خلفهم.

شقّوا طريقهم عبر شوارع السوق الضيّقة حيث زيّن التجّار أكشاكهم بسجّادات وأوشحة ملوّنة. زمّروا كثيرًا وتزاحموا مع المارّة إلى أن تجاوزوا آخر المباني البيضاء وأصبحت المدينة خلفهم.

بين التلال القاحلة، لمحوا بيوتًا ذات أسقف مسطّحة تزدحم بالصحون اللاقطة. ثمّ رأَوْا قطعان الماعز المشعّثة الصوف والبنّيّة اللون سارحةً بحرّيّة في الأحياء التي يقطنها رعاة الجمال. كان هؤلاء قد شيّدوا خيامًا من أقمشة فاقعة الألوان وأقاموا فيها متجاهِلين الطرقات السريعة المزدحِمة والصاخبة المحيطة بهم.

على الطريق السريع، كان ضجيج أبواق السيّارات فظيعًا، وهدير الشاحنات وهي تعبر بجانب السيّارة الرياضيّة عاليًا جدًّا. لكنّ ذلك لم يزعج والدها الذي كان يُتْقِن التسلّل بينها. في وقت من الأوقات، تجاوز الملك حرّاسه، ونظرت هَيا من الزجاج الخلفيّ، فرأَتْ

سيارتَي المرسيدس تصارعان لتلحقا بوالدها الذي ظلّ يقود بالسرعة القصوى حتّى عند المنعطفات.

استمرّوا في الصعود إلى أن بلغوا أخيرًا قمّة عالية وظهرت أمامهم جبالٌ صحراويّة تمتدّ حتّى الأفق. كان لون الجبال كالصدأ، لكنّ التربة على جانبَي الطريق كلسيّة باهتة لا ينمو فيها سوى الصبّار.

شعرت هَيا وكأنّ أذنَيْها ستنفجران وهم ينزلون مجدّدًا عن الطرقات الجبليّة نحو الطريق السريع المنبسط المؤدّي إلى العقبة، حيث تلتقي رمال الصحراء أخيرًا مع البحر.

كان منزلهم الصيفيّ في غاية البساطة مقارنةً بقصرهم: مشمس ومشرق، يُشرف على البحر، وله بابان يفضيان على الشاطئ مباشرةً. تذكّرت هَيا أيّام الصيف التي قَضَتْها هنا، بثياب البحر، وقدماها مغروستان في الرمال.

كان حرّاس الملك قد سبقوهم لتفقّد المكان. وبينما انهمكَتْ مدبّرة المنزل بتحضير الغداء مع الطبّاخ، استغلّت هَيا وعلي الفرصة للقيام بغطسة سريعة قبل تناول الوليمة المكوّنة من طماطم حمراء ناضجة وحمّص وبابا غنوج وتبّولة ومقلوبة باذنجان. أَرَتْ هَيا والدها أصدافًا وَجَدَتْها على الشاطئ حين نزلت للسباحة، ومن بينها صَدَفَة بيضاء تشبه كوزًا من الآيس كريم. كانت تلك صدفتها المفضّلة.

بعد الظهر، اصطحبَتْ هَيا علي في نزهة إلى الحديقة. حملَتْهُ ليطال البرتقال المتدلّي من الأشجار ويقطف بعضًا منه.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

عادت هَيا إلى المطبخ محمّلة بالبرتقال. كادت أن تنادِيَ ماما. اعتقدت أنّها ستكون هناك، في انتظارها، كالعادة. لكنّها تذكّرت فجأة... فاختنقَتْ بالكلمات، وتدحرجَت البرتقالات من بين يديها على الأرض.

في اليوم التالي، في طريق العودة، كانت هَيا غارقةً في الصمت، تحدّق إلى النافذة فيما كان والدها يحدّثها عن فرانسيس، مربّيتها الجديدة التي تصل غدًا.

«ستعيش فرانسيس معنا، تمامًا مثل غرايس»، شرح لها والدها.

لم تعرف هَيا في حياتها مربّيةً أخرى سوى غرايس. ظلّت تنظر من النافذة بينما أكمل والدها حديثه عن غرايس وعن لطفها. أحسّت هَيا بطعم دموعها، مالحًا مثل أمواج العقبة.

*

«لقد وصلت. أنظر علي، هل تراها؟» رفعت هَيا أخاها عن الأرض واقتربت به من النافذة حتّى يتمكّن من رؤية فرانسيس وهي تترجّل من السيّارة وتتّجه نحو باب المدخل.

«ها هِيَ»، قالت له. «ستكون لطيفة جدًّا وستحبّنا كما كانت غرايس تحبّنا. لقد وعَدَتْني غرايس بذلك.»

كلّ ما تسنّى لهَيا رؤيته هو قمّة رأسها، وشعرها الكستنائيّ المرفوع على شكل كعكة ناعمة. كانت فرانسيس ترتدي فستانًا كحليًّا بثَنْياتٍ بَدَتْ جامدة لشدّة سماكة القماش. وفيما كانت

تصعد الدرجات، لم يرفّ للأسدَين الرابضَين عند المدخل الأماميّ جفن. اطمئنّي، لن يتسابقا لالْتِهامِك!، قالت هَيا في نفسها. فقد بَدَتْ فرانسيس نحيلة جدًّا، وليس في جسدها ما يكفي من اللحم لإشباعهما.

ليس من السهل الحصول على خدمات فرانسيس بالسرعة التي حصل عليها الملك. لقد حالفه الحظّ من هذه الناحية. ففرانسيس كانت، حتّى فترة قصيرة، تعمل لدى عائلة في زيوريخ، في وسطٍ كوزموبوليتانيّ مختلط. تتحدّث الإنكليزية والفرنسية، bien sûr، والقليل من الألمانية، لكن ليس العربية، no, no... لا مجال لذلك أبدًا. عملت لدى أفضل العائلات، لدى الطبقة الأعلى في المجتمع المخمليّ. عرفت هَيا كلّ ذلك لأنّها سمعت فرانسيس تتلو قصّة حياتها على زهير وهما يعبران أروقة الندوة فيما كعباها يطَقْطِقان على الأرضيّة الرخاميّة. كذلك، سمعتها تبلغه بأنّ عليه أن ينادِيَها «مِسّ رامسميد»، ثمّ تشرح له كيف تحبّ شايَها: مع حليب، بدون حامض، بدون سكّر. أمّا الشاي نفسه، فيجب أن يُنقَع لدقيقتين تمامًا، ليس أكثر، ليس أقلّ، كما أنّها ترغب في تناول البعض منه الآن، فورًا، وليُرسَل الفنجان إلى غرفتها.

كانت هَيا تقف عند سفرة الدرج تَسْتَرِق السمع. ما إن رأت فرانسيس تتّجه نحو الطابق الأعلى، متقدّمةً زهير، حتّى انسحبت في الحال إلى غرفتها.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

بعد أن جالت بنظرها سريعًا على غرفة غرايس القديمة، أعلنت فرانسيس أنّها «ملائمة». أصبح الآن بإمكان زهير أن يجلب أمتعتها وفنجان الشاي الذي طلبته.

لم يكن زهير معتادًا على هذا النوع من المعاملة. حتّى الملكة لم تكن تتوجّه إليه بهذه النبرة. لكنّه حافظ على وجه خالٍ من أيّ تعبير وأجابها: «بالتأكيد، مِس رامسميد». ثمّ توجّه نحو الطابق السفليّ ليجلب حقائبها ويشرح لطاقم الموظّفين في المطبخ متطلّبات المربّية الجديدة وحاجاتها.

كانت هَيا تتأمّل فرانسيس وهي تنقّب بحيرةٍ في حقيبة يدها. فجأة، تجمّدت المربّية الجديدة والتفتت خلفها. حاولت هَيا الاختباء بسرعة وراء الباب، لكنّ الأوان كان قد فات.

«مساء الخير. لا بدّ أنّكِ سموّ الأميرة هَيا؟»

ظلّت هَيا مختبئة خلف الباب.

تنهّدت فرانسيس وقالت: «ليس من اللائق بأميرة أن تحيّيَ أحدًا بهذه الطريقة. التصرّف السليم يقضي بأن تقدّمي نفسك تمامًا كما أفعل الآن. أنا مِس رامسميد، لكن بإمكانك أن تناديني فرانسيس إذا أردتِ». وقفت بترقّب، بانتظار أن تطلّ هَيا. في النهاية، حين خرجت الأميرة من مخبئها وأصبحت في مدار نظرها، اتّسعت عينا فرنسيس لرؤية سروال هَيا القصير القذر، والقميص الذي ترتديه، وقدميها الحافيتين.

«مظهرك أقرب إلى ابن شحّاذ منه إلى ابنة ملك»، قالت لها.

هَيا تكره ارتداء الفساتين، فهي تُعيق حركتها أثناء اللعب. تحبّ ارتداء السراويل القصيرة، مثل علي. لكن بفضل شعرها الغامق والطويل الذي يصل حتّى كتفيها، لم يسبق لأحد أن أخطأ واعتبرها صبيًا.

كانت فرانسيس تتفحّصها. من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فوق. عندها انتبهت هَيا فجأة أنّها لم تمشّط شعرها في ذلك اليوم، وأنّها لم تستحمّ في اليوم السابق، بعد عودتها مساءً من تلك الرحلة إلى المنزل الصيفيّ، لأنّه لم يكن هناك مَن يساعدها على الاستحمام.

«من الواضح أنّ مربّيتك القديمة لم يكن لها التأثير المناسب عليك»، قالت فرانسيس. شعرت هَيا بالدم يتدفّق إلى وجنتيها. يا لوقاحة تلك المرأة! تقول ما تقول وكأنّ هَيا ليست واقفة هنا، أمامها، وتستطيع سماعها!

«هذه غرفتك؟»، سألت فرانسيس وهي تشير إلى الغرفة خلف هَيا، ثمّ تجاوزَتْها متّجهة إلى هناك. ألقت فرانسيس نظرة خاطفة إلى داخل الغرفة، فلمحت صورة لهَيا ووالدتها على المنضدة.

«لقد كنت من معارف الملكة عليا، أتدرين؟» قالت متناولةً الصورة فيما هَيا تقاوم رغبةً ملحّة في انتزاعها من يدها.

«تقابلْنا في أكثر من مناسبة في أوروبا»، أكملت فرانسيس، وهي لا تزال تمسك الإطار بيدها. «قبل أن تولدي، وقبل أن تتزوّج بوالدك... كنت أقول في نفسي، هذه شابّة من عائلة محترمة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ستصل بعيدًا. كانت والدتك نموذجًا للأناقة، كانت رائعة...».

قالت فرانسيس ذلك وعيناها مسمّرتان على ساقَي هَيا، تحدّق إلى الركبتين الملطّختين بالأخضر من كثرة اللعب على العشب.

«يا صغيرتي المسكينة»، قالت فرانسيس، «أنظري إلى حالتك». وبعد تنهيدةٍ طويلة: «لا تقلقي، كلّ شيء سيتغيّر من الآن فصاعدًا».

نظرت إلى ساعتها. «والآن قولي لي، في أيّة ساعة تبدأين عادة بإنجاز الفروض؟»

«الفروض؟»

«نعم»، قالت فرانسيس. «الفروض. واجباتك المدرسيّة؟»

لم تفهم هَيا. عمّ تتحدّث هذه المرأة؟! هي في الخامسة. أليست تلك السنّ المخصّصة للّعب فقط؟

في تلك اللحظة، دخل أحد عمّال المطبخ وهو يحمل إبريق شاي، وفنجانًا، وصحنًا وإبريقًا من الحليب على صينيّة من الفضّة.

«الشاي، مِس رامسميد»، قال لها.

رفعت فرانسيس إبريق الحليب بارتياب شديد، وأخذت تتحسّسه بأصابعها. «ما هذا؟ حليب ساخن؟»

أومأ برأسه بحماسة: «نعم! حليب ساخن».

عقدت حاجبيها وزمّت شفتيها قائلة: «الشاي يرافقه الحليب البارد». حدّق صبي المطبخ بنظرة مشدوهة إلى الصينيّة التي كان قد وضعها على الطاولة.

«إذًا؟» قالت فرانسيس. «ماذا تنتظر؟ هيّا، خذه من هنا واجلب لي حليبًا باردًا.»

تقدّم الصبيّ بحركة سريعة، تناول إبريق الحليب وتراجع بعصبيّة، ثمّ استدار واندفع كالسهم نحو الدرج. هزّت فرانسيس رأسها وهي تراقبه يبتعد، ثمّ نظرت مجدّدًا إلى هَيا وقالت: «أظنّ أنّني الشخص المناسب الذي حلّ في المكان المناسب، في الوقت المناسب».

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الرابع

علبة الكنز

سرعان ما اكتشفَتْ هَيا أنّ لفرانسيس وجهَيْن. فهناك فرانسيس، المربّية العابسة-المتجهّمة، ذات الشفّة الدقيقة والمشدودة مثل أوتار البيانو. ثمّ هناك فرانسيس الأخرى، تلك التي يراها الملك، وقد لقّبتها هَيا وعلي «فرانسيس السعيدة».

فرانسيس السعيدة تلعب بمرح وتنشد الأغاني. تُحيك لدول القبّعة الزهريّة التي قضت هَيا أيّامًا ترجوها لحياكتها. فرانسيس السعيدة تقرأ قصصًا حقيقيّة قبل النوم، وليس قصصًا لا يتجاوز طولها صفحة واحدة.

وإذا كان الملك موجودًا في الغرفة ذاتها، تدلّل فرانسيس السعيدة هَيا وتغرقها بالعناق والقُبل. لكنّ عظامها نافرة، وعناقها متصلّب وجامد ومزعج، يجعل هَيا تشتاق أكثر فأكثر إلى غرايس.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لم تخبر هَيا بابا ولا مرّة كم إنّها تشتاق إلى غرايس، ولم تحدّثه أبدًا عن مدى تألمها كلّ يوم بسبب غياب ماما.

ذات يوم، بعد عودتها من الإسطبلات، عادت هَيا إلى القصر لتجد فرانسيس واقفة تشرف على عمّال يتجوّلون بين غرف الطابق الأعلى وبحوزتهم ثلاثة صناديق كبيرة من الكرتون.

راقبَتْها هَيا بذعر وهي تتناول أحد أوشحة ماما الحريريّة وترميه في صندوق.

«ماذا تفعلين؟»

لم تلتفت فرانسيس حتّى: «أنظّف».

«لكن هذه أغراض ماما!» أحسّت هَيا بالدماء تتدفّق إلى وجهها.

«لا شأن لكِ بها!»

هزّت فرانسيس رأسها. «هذا قصر. ليس مقامًا ولا ضريحًا. لو أنّك تشعرين مع الآخرين، لكنْتِ عرفْتِ أنّ والدك يحتاج إلى أن يتجاوز الماضي ويمضي قدمًا.»

لو كان بابا هنا، لكانت هَيا ركضت إليه فورًا. لكنّه في العقبة، وفرانسيس اختارت التوقيت المناسب لتقوم بفِعْلتها. لم يكن لدى هَيا خيار سوى أن تقف عاجزة أمام مشهد فرانسيس وهي تمسح ذكرى والدتها وكأنّها طبقةٌ من الغبار تُمسح عن الأثاث.

لا ماما بعد الآن. هكذا قرّرت فرانسيس.

الفراغ يكبر. تشعر به هَيا في داخلها. إليه تدفع كل ذكرى متعلّقة بماما. إلّا أنّها تقوم بذلك بشكل أفضل من اللازم، فتدفع بعيدًا وتدفع عميقًا.

الآن، بات تخيّل وجه ماما أو تذكّر صوتها أصعب فأصعب. إنّها تخسر ماما من جديد. الآن، أصبحت صورتها كالسراب. لا تريد هَيا أن تفقد الذكريات. تحاول التمسّك بشدّة بكل ذكرى. لكن، بمجرّد أن يذكر شخصٌ ماما أمامها، تترَقْرَق عيناها بالدموع. لهذا، توقّف الجميع عن ذكر ماما. الجميع، ما عدا الشخص الوحيد الذي كان يجدر به أن يفعل.

بالكاد عرفت فرانسيس الملكة عليا، لكنّ ذلك لم يمنعها من التحدّث عنها بنبرة شديدة الثقة.

«لم تكن أمّك لـ...»، هذه هي دائمًا الكلمات التي تفتتح بها فرانسيس مواعظها. أصبحت هَيا تعرف ما ستقوله حتّى قبل أن تفتح فمها. لم تكن أمّك لـ... ترتدي ثيابًا كالصبيان، تضحك عاليًا، توسّخ أظافرها، تلطّخ ملابسها، تنسى أن تمشّط شعرها، تلعب ألعابًا طفوليّة، أو – الأنكى من كلّ هذا – تضيّع وقتها مع خيولٍ قذرة ونتنة.

وفرانسيس خبيرة بشخصيّة الملك أيضًا. تقول إنّ جلالته سيكون سعيدًا لو تجرّب هَيا أن تتصرّف بأنوثة أكثر. «كان سلوك والدتك نبيلًا بشكل لا يوصَف. كانت سيّدة أنيقة بكلّ ما للكلمة من معنى.»

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

سيّدة أنيقة بكلّ ما للكلمة من معنى؟ أهذا ما يريده بابا لهَيا؟ لم يذكر ذلك يومًا... لكنّ فرانسيس لا تنفكّ تكرّر ذلك، مرّة تلو مرّة تلو مرّة، حتّى كادت هَيا تصدّق أنّ ذلك ما يريده فعلًا. كما أنّها لا تعرف كيف تخبر والدها عن ذلك المكان القاتم والفارغ داخلها والذي يكبر يومًا بعد يوم. حين يسألها بابا: «أنت هادئة جدًّا يا هَيا، ما بك؟»، تكتشف أنّ لا كلمات لوصف حزنها فتجيبه: «لا شيء. أنا بخير».

لا تفصح هَيا عن مشاعرها، ولا حتّى لبابا. لكنّها وجدت مكانًا تحفظها فيه. جميعها في علبة الكنز. وعلبة الكنز مصنوعة من الذهب. حسنًا، ليس تمامًا. في الحقيقة، هي علبة أحذية مصنوعة من الكرتون، مطليّة باللون الذهبي وتكسوها صور من المجلّات. كلّ ما في تلك العلبة محفوظ بأمان، لا أحد يستطيع الوصول إليه ولا رؤيته. هناك، وضعت هَيا أغلى ما تملك: ذكرياتها عن ماما وعن حياتها قبل أن تأتيَ فرانسيس إلى القصر.

تلك العلبة هي متحفها. تعامل هَيا كلّ ما فيها بعناية فائقة: نظّارات ماما الشمسيّة ذات الإطار العاجي الضخم والمستطيل مثل شاشة التلفزيون. شريطا كاسيت لفرقة آبا وغلوريا غاينور وجدتهما مع النظّارات في سيّارة ماما بعد وفاتها. حصى زهريّة اللون وصَدَفَة الآيس كريم من شاطئ العقبة، بَتْلات ورد يابسة، وزهور برّيّة من المرجة قرب المنزل الصيفيّ كانت رقيقة وناعمة، وقد أصبحت اليوم هشّة كورق الزبدة بعد أن دسّتها هَيا بين صفحات مفكّرة

صغيرة. هناك بعض الصور أيضًا، وخراطيش رصاص فارغة من المعدن البارد، مثل تلك التي ارتدّت عن صدر والدها بعد أن ارتطمت بميداليّته.

كانت هَيا تقضي ساعات وهي تفرد محتويات كنزها على السرير، ثمّ تعود وتوضّبها. آخر شيء أضافته إليها كان قارورة شبه فارغة من عطر والدتها المفضّل. قبل أن تدسّها في العلبة، فَتَحَتْها بتأنٍّ ومسحت أصغر كمّيّة ممكنة من العطر على رسغها، كما كانت والدتها تفعل دائمًا. ثمّ أغمضت عينَيها وتنشّقت عميقًا حتّى طغى العطر على حواسّها كلّها، واختفى العالم من حولها.

*

بعد عدّة أسابيع من وصول فرانسيس، وبكثير من التردّد وغصبًا عنها، استسلمت المربّية أمام توسّلات هَيا واصطحبتها في زيارة إلى الإسطبلات الملكيّة في الحمَّر.

كالعادة، كان سانتي هناك لاستقبالهما.

«انظروا مَن هنا!»، قال لهَيا مبتسمًا. «لقد اشتاقت إليك الأحصنة، تيتش!» دعاهما سانتي إلى مكتبه حيث كانت أصداء الموسيقى تتردّد، وركوة القهوة تغلي على النار.

قدّم فنجانًا لفرانسيس. تناولت رشفة، ثمّ زمّت شفتيها الدقيقتين بقرف، واضعة الفنجان مباشرة على الطاولة. «سوف يُسعدني القيام بجولة في الأنحاء من بعد إذنك، سنيور لوبيز.»

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

سانتي فخور جدًّا بإسطبلاته. لقد سبق وأن اصطحب الكثير من الزوّار في جولات هنا؛ زوّار من السلاطين والملوك لم يكن أيّ منهم انتقاديًّا بقَدْر ما كانت فرانسيس. كانت المربّية تتفحّص الخيول بالطريقة ذاتها التي تفحّصت فيها هَيا يوم تقابلتا لأوّل مرة.

«أليست هزيلة بعض الشيء؟»

«هذه خيول عربيّة»، أجابها سانتي. «سلالاتها ذات أبدان أخفّ بكثير من تلك التي اعتَدتِ رؤيتها في بلادك في إنكلترا.»

«أعرف تمامًا بشأن السلالات، سنيور لوبيز»، قالت فرانسيس. «مع ذلك، أفضّل أن أراها أكثر امتلاءً من ذلك، لو سمحت.»

«لم أكن أدرك أنّك ملمّة بالخيول إلى هذه الدرجة، مِس رامسميد»، قال سانتي وهو يغمز هَيا.

«آه، نعم»، أجابت فرانسيس. «شارَكْتُ في إنكلترا برحلات مع صيّادي الكورن. هل سمعت بهم من قبل؟»

رفع سانتي حاجبيه إعجابًا وقال: «هذه رحلات صيد مشهورة ومميّزة». بدت فرانسيس مزهوّة بنفسها إلى أن أضاف: «لا بدّ أن تكوني قد التقَيْتِ زوجتي أورسولا. لقد اعتادت لسنوات طويلة مرافقتهم في تلك الرحلات. سأسألها إن كانت تتذكّرك...».

«أوه...» ردّت فرانسيس مُتلَعْثمة. «أرجوك، لا داعي لذلك. فأنا لم... أشارك كثيرًا في رحلات صيد. ثمّ إنّ وقتًا طويلًا قد مضى على كلّ ذلك، ولا أعتقد...».

فجأة، اندفع خطمٌ من باب المربط خلف ظهر فرانسيس، فأصدرت هذه الأخيرة صيحة تثقب الأذن وهي تقفز إلى الأمام، حتّى كادت تقع على هَيا.

«لا عليكِ»، قال سانتي وهو يداعب الفرس الكميت التي أطلّت برأسها من فوق الباب.

«هذه أمينة، تحاول أن تتودّد إليكِ، لم تقصد أن تخيفك.»

«ومَن قال إنّني خِفت؟» لكنّ فرانسيس لم تكن لتتقدّم خطوة نحو الفرس.

«مظهرها فظّ وخشن بالنسبة إلى فرس تتحدّر من سلالة أصيلة، أليس كذلك؟»، قالت فرانسيس وهي تحدّق إلى خطم أمينة السميك وأنفها المفلطَح.

«أمينة هي جواد عربيّ أصيل»، قال سانتي. «طبْعُها ممتاز وهي فرس وثّابة رائعة تشارك في بطولات القفز...»

«الخيول العربيّة لا تثب»، قاطعَتْه فرانسيس بنبرة متشدّدة.

«هذا ما يقولون»، أجاب سانتي موافقًا، «لكنّ بعضها، مثل أمينة، وثّاب ماهر، في غاية الشجاعة، وشديد الثقة بنفسه...».

«نعم، نعم. حسنًا، شكرًا سنيور لوبيز»، قالت فرانسيس بنبرة حازمة. «أعتقد أنّنا سنغادر الآن.»

«لكنّنا وصلنا للتوّ!»، قالت هَيا.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«أعتقد أنّنا قضينا ما يكفي من الوقت هنا»، قالت فرانسيس وهي تعود أدراجها نحو السيّارة تاركةً بالكاد لهَيا بعض الوقت لكي تتناول حزمة من البرسيم وتُطعمها لأمينة.

«ليتَكِ حاولتِ أن تعضّيها»، همست هَيا، «فهي تستحقّ ذلك».

صهلت أمينة. «أعرف، أعرف»، قالت هَيا موافقة. «لا أعتقد أنّها أحبّتكِ. وأعتقد أنها لا تحبّني أيضًا.»

«إبقيا على الغداء!»، قال سانتي فيما كانت فرانسيس تتّجه نحو السيّارة برفقة هَيا. «سأطلب من أورسولا أن تجلب لنا الطعام.»

«لا، شكرًا.»

«حسنًا إذًا، دعي تيتش تقضي بعد الظهر هنا. هي تعشق هذه الخيول، وسُيّاسي سيعتنون بها.»

«السيّاس؟ هَيا ليست حصانًا!»، أجابت فرانسيس. «شكرًا على الجولة سنيور لوبيز.»

كانت رحلة العودة إلى القصر فظيعة. «هذه الخيول ليست سوى وحوشٍ قليلة الأدب ووقحة!»، أعلنت فرانسيس. «وذلك غير مستغرَب بما أنّ سنيور لوبيز هو مَن يتولّى مسؤوليتها! يا إلهي! الغبار والزبل في تلك الباحات... غير معقول!»

«أنا أحبّ ذلك المكان»، قالت هَيا متصدّية بشجاعة. «ثمّ ما المشكلة في وجود الزبل أصلًا؟ أن تقولي هناك زبل في باحة للخيول هو مثل أن تقولي هناك رمل في الصحراء.»

خيّم الصمت خلال ما تبقّى من الرحلة. ولكن، في اليوم التالي، حين طلبت هَيا أن تذهب إلى الإسطبلات، رفضت فرانسيس. أبلغتها أنّ لديها درس بيانو، يليه درس اللغة الفرنسيّة الذي يليه درس الباليه. إذًا، لا وقت للإسطبلات.

*

«بابا؟ أشعر بأنّني لست بحال جيّدة.»

وضع الملك الصحيفة من يده، ونظر إلى ابنته. كان وجه هَيا محْتَقَنًا، وبالكاد لمست طعامها على الفطور.

«هل حرارتك مرتفعة؟»، سأل الملك وهو يتحسّس جبينها.

«أتعتقد أنّني على وشك أن أمرض؟»، قالت هَيا متمنّيةً ذلك في سرّها.

«ربّما.» نظر إليها والدها نظرة العارف الخبير، ثمّ استدعى المربّية: «فرانسيس. الأميرة هَيا سترافقني اليوم.»

وضّبت هَيا أقلام تلوينها الخشبيّة، وانتظرت مع دول عند باب المدخل بينما كان السائق يجلب السيارة. حاولت ألّا تبدوَ سعيدة جدًّا أو «غير مريضة» جدًّا وهي تستقرّ على مقعد السيّارة الخلفيّ، بجانب والدها. انطلقت السيارة خارج البوّابة، ثمّ عبرت الطرق المتعرّجة في اتّجاه مكاتب الديوان الملكيّ.

«أهلًا بك، سموّ الأميرة!» لطالما كانت السيّدات اللواتي يُدرن مكتب والدها سعيدات برؤيتها. أتت السكرتيرة بالقهوة للملك،

وبعصير البرتقال وبعض المقرمشات لهَيا، مع كومة من الورق والكثير من أقلام التلوين. في زاوية المكتب، أعدّت هَيا لنفسها حصنًا من وسادات الأرائك. تمدّدت على السجّادة، وراحت تتسلّى برسْم أحصنة بينما كان والدها يتحدّث على الهاتف ويراجع أوراقًا مهمّة على مكتبه.

ظلّت عاقلة حين دخل وزراء الملك لعقد اجتماع على طاولة خشب السنديان المصقولة في الزاوية الأخرى من الغرفة. كانت تركّز بشدّة على التلوين، لكنّها استطاعت أن تميّز النبرة الجدّيّة في أصواتهم وهم يناقشون أمورًا تتعلّق بمصر وإسرائيل ومكانٍ ما اسمه كامب دايفيد. بعد أن غادر الرجال، طلب الملك من سكرتيرته المزيد من عصير البرتقال والبسكوت بالشوكولاتة. ثمّ خلع حذاءَه وانسلّ داخل الحصن الذي بَنَتْهُ هَيا بالوسادات.

«هَيا، أتشعرين بتحسّن الآن؟»

«نعم، بابا.»

«أنت صامتة جدًّا هذه الأيّام. ما القصّة؟ أخبريني؟»

تردّدت هَيا. لا تريد أن تزعج الملك، فلديه ما يكفيه من هموم الأمّة.

«لا عليكِ»، قال والدها. «بإمكانك أن تخبريني.»

«فرانسيس ترفض اصطحابي لرؤية الأحصنة»، قالت هَيا. «دائمًا أطلب منها ذلك ودائمًا ترفض.»

سوء تفاهم. هكذا وَصَفَتْهُ فرانسيس السعيدة. بالطبع، ستكون أكثر من سعيدة لاصطحاب سموّ الأميرة إلى الحُمَّر إذا كان ذلك ما ترغب فيه. في تلك الأثناء، كان وجه فرانسيس يقطر سمًّا. حين وصلتا، رفضت دعوة سانتي لتناول القهوة، وعادت لتجلس في السيّارة فيما تقوم هَيا بجولتها على الخيول.

لساعتين، ظلت فرانسيس جالسة هناك، وهي تطالع رواية رومانسيّة. خلال عودتهما، دسّت الكتاب في حقيبتها، لكنّها ظلّت صامتة، لا تتحدّث مع هَيا. تكرّر الأمر ذاته في كلّ زيارة قامتا بها للحمّر خلال الأسبوعين اللاحقين. ثمّ، ذات يوم، وصل السائق بعد الظهر ليقلّهما إلى الإسطبلات كالعادة. فلاحظت هَيا أنّ فرانسيس لا تحمل حقيبة يدها.

«لقد تحادثْنا، سنيور لوبيز وأنا»، قالت فرانسيس، فكادت هَيا تنهار، إلى أن أضافت: «لقد وافقَني الرأي بأن لا حاجة لي لمرافقتك إلى الإسطبلات. من الأنسب أن يهتمّ هو بك خلال فترات بعد الظهر».

في الطريق إلى الإسطبلات، تنشّقت هَيا بملء رئتيها طعم الحرّيّة. أخيرًا، اعترفت فرانسيس بالهزيمة، وهَيا ذاهبة إلى الحُمَّر بمفردها!

سانتي مسؤول عن خمسين حصانًا ونصف دزينة من السيّاس، لكنّه لم يكن يومًا مشغولًا إلى درجة تمنعه من الاهتمام بهَيا ومن استقبالها عند البوّابة.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«أتمنّى أن تكوني قويّة بما فيه الكفاية، تيتش»، قال، «فهناك الكثير من العمل أمامك.»

في الباحة، وجد لها يوسف، كبير السيّاس، شوكة قصيرة تتناسب مع يديها الصغيرتين. ناولها إيّاها، وتبعت هَيا الرجلين لمساعدتهما. أوّلًا، يجب تنظيف الحاويات. حملت هَيا شوكتها، وبدأت تحفر مستخرجةً التبن الرطب لاستبداله بطبقة جديدة. ثمّ ملأت كلّ مَتْبَنَة في كلّ مربط بكومة كبيرة من البرسيم الغضّ الأخضر حَمَلَتْها ملء ذراعيها.

في غرفة الغلي، ساعدت السائس راضي على تحريك قدرٍ ضخمة من الشعير، مصنوعة من الحديد المصبوب ومعلّقة فوق النار بسلسلة حديد تصلها بخطّاف. كان ممنوعًا عليها أن تلمس القدر لأنّها شديدة السخونة، لكنّ راضي سمح لها بأن تغرف الشعير اليابس وتُلْقِيَه في الماء. من المفترَض أن يُغلى الشعير لمدّة ساعتين على الأقلّ، لكنّ راضي يفضّل أن يدعه يغلي طوال الليل. فالخيول، كما يقول، لديها معدة حسّاسة.

في غرفة الأسرجة، كان لهَيا علّاقة تحمل اسمها وحقيبة صغيرة تحوي عُدّة التنظيف: فراشي السَّوس، مشطًا مطاطيًّا، نكاشة الحافر، ومشط الغُرف. حملت عدّتها وراحت تدور من مربط إلى آخر، تنظّف الأحصنة واحدًا بعد الآخر بالفرشاة، تاركةً دومًا محبوبتها إلى الآخر. فروة أمينة تزداد سماكةً وزغبًا. الشتاء اقترب.

حين تساقط الثلج للمرّة الأولى في ذلك العام، وهبّت ريح فجائيّة في الباحة، أَحْكَمَتْ هَيا رسن أمينة بحبلٍ، وأخرجَتْها من مربطها. جفلت أمينة في البدء أمام مشهد الثلج، ورفضت أن تتقدّم، لكن هَيا ظلّت تستميلها حتّى مدّت الفرس حافرًا متردّدة نحو القشرة البيضاء التي كَسَت الساحة. ثمّ تراقصت متقدّمة أكثر، برأس مستقيم عالٍ، وهي تنخر وتهزّ عُرفها الأسود كالفحم. كان كلّ نخير تُصدره يرسم شكلًا جميلًا من البخار في ذلك الهواء الصباحيّ البارد. ثمّ تساقط الثلج بغزارة أكثر بعد، فلم يَرُقْ لأمينة الإحساس بندف الثلج على وجهها، ودفنت رأسها في معطف هَيا، محاوِلةً مسح الثلج عنه. ضحكت هَيا، وأعادت أمينة إلى مربطها حيث كانت قد حضّرت لها وجبة عشاء ساخنة من الشعير والحنطة.

*

على مرّ الفصول، أخذت فروة أمينة الشتوية تطرح، ببطء في البداية، ثمّ على شكل كتلٍ كلّما ازداد الطقس دفئًا. أخذت هَيا تمشّطها بالمشط المطاطيّ، لتنكشف شيئًا فشيئًا فروتها الصيفية اللمّاعة الحريريّة. لكنّ الربيع حمل معه أكثر من ذلك. كانت أمينة تتغيّر أمام عينَيْ هَيا، وكان على هَيا أن تُخبر سانتي بذلك.

«هناك مشكلة في أمينة»، قالت هَيا، وهي تحاول أن تقلّد النبرة التي سمعته يستخدمها مع السيّاس. «أعتقد أنّها تتناول الكثير من الشعير. لقد أصبحت بدينة.»

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ضحك سانتي. «هذه الفرس ليست بدينة، تيتش، هي حبلى.»

*

في تلك الليلة، بينما كان الملك يضعها في السرير، رَوَت له هَيا الأخبار الحلوة.

«أمينة ستضع مولودًا»، أخبرت بابا. «هي تبدو بدينة جدًا. ذلك يعني أنّ الموعد يقترب. قال سانتي إنّ بإمكاني أن أحضر الولادة شرط أن تسمح لي أنت بذلك.»

فكّر والدها قليلًا. «سأتحدّث مع سانتي. سنجهّز حقيبة من الثياب ومصباحًا ونتركها في غرفتك. في الغالب، تَلِدُ الأفراس في منتصف الليل. عليكِ أن تكوني جاهزة في حال استدعانا.»

«ولكن، إذا كان ذلك سيحصل ليلًا، فهذا يعني أنّني سأكون نائمة!»، قالت هَيا بقلق. «هل تَعِدُني أنّك ستوقظني؟»

«أَعِدُكِ»، قال الملك.

«بابا، هل تحبّ الخيول؟»

«نعم، هَيا.»

«وماما؟ هل كانت هي أيضًا تحبّ الخيول؟»

«كانت تعشق الحيوانات»، قال الملك.

«هل كانت فارسة مثلك؟»

«نعم، كانت فارسة، مثلي»، قال الملك، «كما إنّها كانت مولعة بالرياضة. والدتك كانت بطلة في التزلّج على الماء».

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«أنا أيضًا سأصبح بطلة»، قالت هَيا. «سأصبح بطلة في الفروسيّة. وذات يوم، سأشارك في بطولة الكأس الملكيّة!»

كان ذلك ادّعاءً جسورًا. فبطولة الكأس الملكيّة هي أكبر حدث رياضيّ في الأردن. لا تزال هَيا تذكر حين كان بابا يصطحبها مع ماما وعلي ليجلسوا جميعًا في المقصورة الملكيّة ويشاهدوا الفرسان يتسابقون. لا تزال تذكر تلويح الأعلام، حرارة الشمس وضجيج الحشود. وطبعًا، الخيّالة، وهم يعتلون أجمل خيول رأتها في حياتها. كان الفرسان يتقوّسون على ظهور خيولهم العربية الوثّابة، منطلقين بتهوّر مجنون لا حدود له. ذات يوم، قالت في نفسها: سأصبح فارسة مثلهم.

«يحتاج الأبطال إلى النوم»، قال لها الملك. «وخصوصًا أولئك الذين لهم من العمر خمس سنوات.»

«أكاد أتمّ السادسة»، ذكّرته هَيا.

«وماذا تريدين هديّةً لعيد ميلادك؟»

«أريد أن أجول في الصحراء على ظهر حصاني»، تَمْتَمَتْ هَيا، والنعاس يتسلّل إليها. «وأريد أن أنام وحصاني بجانبي، بينما جِمالي خارج الخيمة. أريد أن أكون أميرة عربيّة حقيقيّة.»

قبّلها والدها على جبينها. «تصبحين على خير، هَيا»، هَمَسَ لها بينما كانت تغرق في النوم.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الفصل الخامس

المُهْرة

كان عليها أن تمنع علي من اللعب في غرفتها. كانت تعلم ذلك! فالإخوة الصغار دائمًا ما يحشرون أنوفهم في حاجيّاتك.

«ما هذا؟»، سألها علي وهو يزحف خارجًا من تحت السرير وفي يده علبة الأحذية الذهبيّة.

«لا شيء»، قالت له. ولكنْ، قبل أن تتمكّن من منعه، كان علي قد رفع الغطاء عن العلبة ووضع نظّارة ماما الشمسيّة.

«لا!»، صرخت هَيا وهي تنتزع منه النظّارة. «ستكسرها!»

تصارعت معه وهي تحاول استرجاع العلبة أيضًا، لكنّ علي لم يفلُتْها. «أتركْها، إنّها أغراضي!»

«أريد فقط أن أتفرّج»، قال علي وهو لا يزال يفتّش في العلبة.

«ما هي هذه الأغراض أصلًا؟»

«كنز»، قالت هَيا.

نبّش علي في العلبة وأخرج من قعرها صورة. صورةٌ بالأبيض والأسود، أطرافها مهترئة لكثرة ما مُسكت. صورة لامرأة جميلة تضع النظّارات الشمسيّة التي جرّبها للتوّ، وتبتسم للكاميرا، وهي تحمل بين ذراعيْها طفلًا غامق الشعر، لامع العينين.

«هذا أنا أم أنتِ؟»، سأل علي.

«هذه أنا»، أجابته هَيا بهدوء. «أنت لم تكن قد وُلِدْتَ بعد، على ما أعتقد.»

أخذ علي يتأمّل الصورة بصمت، وكأنّه يحاول أن يتخيّل نفسه فيها، رغم ما قالته هَيا.

«هل لديها صُوَرٌ معي أيضًا؟»، سأل علي.

«ليس هنا»، قالت هَيا.

كان علي يحدّق إلى الصورة بحزن. «أنت تنعّمتِ بها أكثر مني»، قال.

امتلأت عينا هَيا بالدموع. تساءلت إن كان ذلك يجعل منها الأوفر حظًّا... فعلي بالكاد يتذكّر أيّام كانت ماما هنا. أمّا هي، فتتذكّرها جيّدًا، وذلك لا يفيد سوى في جعل غياب ماما أكثر إيلامًا.

«هل هذه حقيقيّة؟» سَأَلَ علي، وقد لَمَعَتْ عيناه مثل عينَيْ طائر عقعقٍ رَصَدَ للتوّ غرضًا برّاقًا.

التقَطَ عبوات الرصاص المعدنيّة الصغيرة وتفحّصها، محدّقًا إلى داخل كلّ منها. تذمّرت هَيا وطالبته بإعادة العلبة فورًا، لأنّها تتوتّر

عند رؤية محتوياتها مبعثرة هكذا. ماذا لو دخلت فرانسيس الآن ورَأَتْها؟

«فرانسيس شرّيرة»، أجابها علي موافقًا.

*

في عصر ذلك اليوم، كالعادة، كانت فرانسيس قد خطّطت لحصص في الرياضيّات، واللغة الإنكليزيّة، والعزف على الكمان، ثمّ لحصّة بيانو ورقص. مخطّط لا مجال فيه تقريبًا لزيارة أمينة.

لقد أصبحت أمينة الآن هائلة وبطنها مشدودًا مثل الطبل. كانت هَيا تتفاجأ بتضخُّم حجم الفرس يومًا بعد يوم. لقد تقدّم حَمَلُها جدًّا، ولم يعد هناك مجال لامتطائها، لكنّها لا تزال تحتاج إلى تمديد قوائمها من وقت إلى آخر. بعد أن تمشّطها، كانت هَيا تنزّهها على الطريق المفضي إلى البوّابة، وتسمح لها بأن تستريح وتقضم الأزهار كلّما احتاجت إلى ذلك.

دروس ذلك اليوم كانت معاناة بالنسبة إلى هَيا. حين وصلت أخيرًا إلى الإسطبلات، وجدت سانتي مع أمينة في مربطها. كان مقرفصًا تحت بطن الفرس.

«تعالي إلى هنا، تيتش»، قال مشيرًا إليها بالتقدّم. «هل ترين كم إنّ ثديَيْها منتفخان من كثرة الحليب؟ هذا يعني أنّ الولادة اقتربت جدًّا. قد يحصل ذلك في أيّ وقت الآن.»

«لماذا تتشمّم نفسها؟»، سألت هَيا وهي تراقب أمينة تستدير لتشمّ بطنها المنتفخ.

«هـذه إشـارة أخـرى»، قـال سانتي. «أعتقد أنّ المهر سيأتي قريبًا.» جلست هَيا بهدوء في مربط أمينة، بانتظار أن تلد. انتظرت وانتظرت وانتظرت... كان الوقت قد تأخّر حين أطلّت برأسها إلى مكتب سانتي. «لم يحصل شيء بعد»، قالت له.

«الصبر مفتاح الفرَج»، قال سانتي. «أنا متأكّد أنّ المهر سيأتي الليلة.»

«هل بإمكاني القدوم ومساعدتك كما وعدتَني؟»

أومأ سانتي برأسه. «سأرسل السائق ليأتِيَ بحاجياتك. بإمكانك أن تقضيَ الليلة في المنزل معنا أنا وأورسولا، بانتظار المهر.»

طبعًا، وكالعادة، أثـارت فرانسيس ضجّة من لا شـيء. جلالته في رحلة عمل، وقد أوضحَت أنّ هذا التدبير لا يروقها بتاتًا. في النهاية، عاد السائق إلى الإسطبلات حاملًا حاجيّات هَيا. أخذتها منه وصعدت التلّة في اتّجاه منزل سانتي الصغير المحاط بحرج من أشجار الزيتون.

أورسولا، زوجة سانتي، هي امرأة شقراء، زرقاء العينين، تضحك كثيرًا، ولكن ليس بطريقة مصطنعة مثل فرانسيس السعيدة. أورسولا لا تخلع عنها بنطال الفروسيّة، ولو أنّها لن تركب الخيل. في تلك الليلة أيضًا، كانت ترتديه وهي تقطّع الخُضر فيما يحضّر سانتي الفروج

المحمَّر مع الزيتون والحامض المرقَّد. بعد انتهاء العشاء، حاولت هَيا أن تساوِم على بقائها مستيقظة، لكنّ أورسلوا كانت حازمة.

«عليك أن تنامي قليلًا، حتى تتمكّني من مساعدتنا عندما يحين الوقت»، قالت لها بنبرة متعقّلة.

«عِديني أنّك ستوقظينني»، أصرّت هَيا على أورسولا وهي تغطّيها.

كانت الساعة حوالى الثالثة فجرًا حين عادت أورسولا وهزّت هَيا برِفْقٍ لتوقظَها.

«هَيا»، همست لها، «ارتدي ملابسك، لقد بدأ المخاض».

لحسن الحظ أنّ لدى هَيا مصباحًا، فالطريق بين المنزل والإسطبل معتم جدًّا. كان شعاع الضوء المنبعث من مصباحها يتمايل لشدّة ما كانت يدها ترتعش من الإثارة.

حين وصلت إلى المربط، كان سانتي يتّكئ على الجدار، مراقبًا أمينة وهي تجوب مربطها بسرعة، ضاربةً التبن الذي يغطّي الأرضيّة بحوافرها.

أخيرًا، غمغمت أمينة وهوت على ركبتيها، ثمّ تمدّدت أرضًا على جنبها. كانت الفرس غارقة في عَرَقِها، جسمها يلمع من البلل. ظلّت ممدّدة لبرهة، تُعلّي رأسها من وقت إلى آخر متشمّمة بطنها.

«الآن»، قال سانتي بترقّب. لكنّ أمينة انتفضت ووقفت على قوائمها من جديد.

«ما الذي يحدث؟»، سألت هَيا، «هل هي بخير؟»

«هي بخير»، طمأنها سانتي. «أمينة تستعدّ الآن. المهر سيظهر عمّا قريب.»

لكنّ المهر لم يظهر. كانت الدقائق تمرّ، وأمينة تتمدّد، ثمّ تقف مرّة بعد مرّة. كانت تتعرّق إلى درجة أنّ رغوة بيضاء تكوّنت حول رقبتها. سانتي أيضًا كان يتصبّب عرقًا وهو يحكم قبضته على رسن الفرس ويستحثّها على النهوض مجدّدًا.

ثمّ شمّر عن ساعديه. «أورسولا»، قال، «أمسكي برأسها». تجهّمت أورسولا. «أتعتقد أنّ هناك مشكلة ما؟»

غَسَلَ سانتي يديه في السطل المليء بالماء والصابون، ثمّ طلى ذراعه اليمنى بشحم استخرجه من أحد الأنابيب في العدّة الطبّيّة. دار إلى خلف أمينة ورفع ذنب الفرس.

«الولادة تستغرق وقتًا أطول من اللازم»، قال. «سأتحقّق من وضعيّة المهر.»

برفق، وبلطف، مدّ سانتي يده إلى داخل الفرس، ليتحقّق من وضعيّة المهر.

وقفت هَيا بجانب أورسولا تمسّد رقبة أمينة الساخنة والمبلّلة، وهي لا تتوقّف عن التَمْتَمَة، مُطَمئِنة الفرس أنّ كل شيء سيكون على ما يرام. حين سَحَبَ سانتي ذراعه، كان عابس الوجه. «أورسولا»، قال، «إذهبي لإحضار الطبيب البيطريّ فورًا».

بينما كانا ينتظران عودة أورسولا وبرفقتها الطبيب البيطريّ، ساعدت هَيا بفرك الفرس بفوطة ناشفة وطريّة. كانت أمينة ترتجف، وهَيا تمسّد وجهها متأمّلة بياض عينيها. «لا تخافي»، همست لها، «سيصل البيطريّ قريبًا». لم تكن قد مضت سوى دقائق على ذهاب أورسولا، لكنّ تلك الدقائق بَدَتْ دهرًا. حين حاولت الفرس أن تتمدّد مجدّدًا، طلب سانتي من هَيا أن تمسك الرسن ريثما ينتقل إلى خلف الفرس ويدفعها لتظلّ واقفة.

«أعتقد أنّ أمينة تعاني ممّا يُسمّى المجيء المقعديّ»، شرح سانتي، «فعادةً، رأس المهر هو ما يظهر أوّلًا، لكنّ رأس مهرنا هنا في المكان الخاطئ. لذلك، سنحتاج إلى بيطريّ لإتمام الولادة».

لم يعد أمامهما سوى الانتظار. كانت هَيا تمسك برأس أمينة بين ذراعيها. الفرس ترتعد وهَيا تهمس لها: «اقترب الفرَج يا أمينة. سيخرج قريبًا، أعدك».

أضاءت مصابيح السيّارة الباحة. لقد عادت أورسولا وبرفقتها البيطريّ. كانت أمينة مبلّلة بالعَرَق، ترتجف وتهتزّ مُنهَكَة. لم تلتفت حتّى حين دَهَنَ البيطريّ ذراعه بالشحم وبدأ بالتفتيش في داخلها عن المهر.

«إنه مجيء مقعديّ»، قال مؤكّدًا. «سأحاول أن أقلب المهر.»

أومأ سانتي برأسه موافقًا بينما استدار البيطريّ مجدّدًا ناحية الذنب.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

وقفت هَيا بجانب كتف أمينة تراقب البيطريّ. كان عمله يستغرق وقتًا طويلًا فيما يتمكّن الوهن أكثر فأكثر من أمينة. «لا تخافي»، همست هَيا. ولكنْ، الآن، أصبحت هي الخائفة. خائفة على أمينة. لقد مرّ وقت طويل منذ وصول البيطريّ.

أخيرًا، سحب الطبيب ذراعه وهزّ برأسه قائلًا: «للأسف، لن نتمكّن من تغيير وضعيّة المهر». لم يقل أكثر من ذلك. لكنّ ما قاله كان كافيًا. فَهِمَ سانتي ما الذي سيحصل حتمًا بعد ذلك.

«أورسولا»، قال سانتي، «أرجوك، أقلّي تيتش إلى الندوة».

ارتبكت هَيا. لم تعد تفهم ما الذي يحدث. لا يزال مهر أمينة عالقًا! الفرس تحتاج إلى المساعدة. وفجأة، يرسلها سانتي بعيدًا؟

«أرجوك، لا!»، قالت هَيا. «أريد أن أرى المهر وهو يولَد. لن أزعجكم، أعدك أنّني لن أفعل. سأقف هناك في زاوية المربط، دعني أساعدكم...»

بجانب أمينة، كان البيطريّ قد بدأ يفرد عدّته. استخرج من حقيبته الحِقَن، والمباضع، وأدوات أخرى، وصفّها على قطعة قماش من الأخضر الغامق.

«ماذا يفعل؟»

«سيحاول إنقاذ الفرس، إذا استطاع»، قال سانتي. لم يتمكّن من النظر في عينَي هَيا. «أورسولا، خذي الأميرة إلى القصر.»

*

ما إن توقّفت السيّارة عند المدخل، حتّى خرجت هَيا منها وهي لا تزال ترتجف. كانت منهارة من التعب، ثيابها مكسوّة بالغبار وبعَرَق الخيل، ووجنتاها مبقّعتان بالدموع. ليتَ ماما هنا لتأخذها بين ذراعيها وتحتضنها بقوة ولا تفلتها أبدًا. لكنّها ليست هنا. عوضًا منها، عند أعلى الدرج، كانت فرانسيس هي مَن تنتظرها، بذراعين مكتوفتين.

«أوه، هَيا...» شيءٌ في النظرة التي وجّهتها فرانسيس نحوها جعل عينَيْ هَيا تفيضان بالدموع مجدّدًا. كانت هَيا بأمسّ الحاجة إلى حضنٍ يعزّيها ويواسيها. ابتلعت كبرياءها وركضت على الدرج في اتّجاه المربّية.

هزّت فرانسيس برأسها.

«أنظري إلى حالك! جزمتاك ملطّختان بالوحل. وأظافرك! يا إلهي، أيّتها الصغيرة، أنت غارقة في القذارة حتّى أذنيك. كما أنّ رائحتك كريهة».

كفى! لن تستمع هَيا للمزيد. اندفعت كالسهم متجاوزة فرانسيس، وهي تكاد تختنق بدموعها. ثمّ عبرت، بجزْمَتَيْها المتّسختيْن، الرواق بأكمله، تحت صفّ الملوك المرصوصين على الحائط، لتصل إلى غرفتها. كان لصفقة باب الغرفة صدًى تردّد في القصر كلّه.

في الظلام، انهارت هَيا على الأرض. زحفت تحت سريرها إلى أن أمسكت بعلبة الكنز. تَنَحْنَحَت خارجة من تحت السرير وبيدها

العلبة، وتمدّدت على الأرض لاهثة. كانت يداها ترتعشان بشدّة إلى درجة أنّها عجزت عن فتح الغطاء. عوضًا من ذلك، تشبّثت بالعلبة وضمّتها إلى صدرها، هناك، في المكان الأقرب إلى قلبها. جلست هكذا وهي تنتفض وترتعش تحت وقْع نشيجها العنيف. في تلك الليلة، ظلّت تبكي وتبكي حتّى نَفَدَت دموعها.

الفصل السادس

الهديّة

فتحت هَيا عينيها. لقد طلع الصباح. كان ضوء الشمس المتسلّل من نافذتها ساطعًا في الغرفة. لكنّ الضوء ليس ما أيقَظَها وإنّما الجلبة الصادرة من الطابق السفليّ، عند باب المدخل.

نزلت عن السرير، وركضت نحو غرفة علي الذي كان واقفًا أمام النافذة يراقب الشجار الدائر تحت.

«إنّها أورسولا»، قال وهو يلصق أنفه بالزجاج. «هي وفرانسيس تتشاجران.»

نظرت هَيا من النافذة. رأت أورسولا واقفة على باب المدخل، وهي لا تزال في الثياب ذاتها التي كانت ترتديها ليلة البارحة، حين أقلّت هَيا إلى القصر. في مواجهتها تمامًا، بين الأسديْن الحجريَّيْن، وقفت فرانسيس مُشرَئبّةً، ويداها على خصرها.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«ما هذه السخافة؟»، قالت أورسولا، «دعيني أدخل، أحتاج إلى رؤية هَيا».

«مستحيل!»، أجابت فرانسيس. «الأميرة نائمة. لا تزال مرهقة من ليلة الأمس. حالتها لا تسمح لها باستقبال أحد.»

«إذًا، سأعود لاحقًا.»

«أفضّل ألّا تفعلي»، قالت فرانسيس.

«لستِ أنتِ مَن تقرّرين ذلك»، ردّت أورسولا غاضبة. «إسألي هَيا! عليها أن تعلم بما حدث.»

كان وجه فرانسيس جليديًا متصلّبًا كوجهَي الأسديْن الحجريَّيْن. «لن أطلب من فتاة عمرها خمس سنوات أن تتَّخذ القرار. أنا المسؤولة هنا. لو كان الأمر يعود لي، لما سمحت لها بالذهاب إلى هناك أصلًا. كانت غارقة بدموعها في الليلة الماضية حين أقللْتِها إلى المنزل.»

«ولكن عليّ أن أخبرها...»

«كلّا»، قالت فرانسيس. «لقد أزعجتِ الأميرة بما فيه الكفاية. من الأفضل الآن أن تعودي إلى سيّارتك وتغادري قبل أن أنادي الحرّاس.»

نطّت هَيا عن المقعد المحاذي للشبّاك وانطلقت كالسهم نحو الطابق السفليّ. كان قلبها يخفق بشدّة وهي تنزل على الدرج وتركض نحو الباب. أوف! ما أكبر هذا القصر! كانت قد وصلت إلى نصف الطريق حين رأت فرانسيس تتّجه نحوها بسرعة.

«أين هي؟»، قالت هَيا لاهثة.

«إذا كنت تتحدثين عن أورسولا، فقد رحلت»، أجابت فرانسيس. «بإمكانك الآن أن تعودي إلى غرفتك، هَيا، وأن ترتدي ثيابك للفطور.»

كانت هَيا في غاية الانفعال. «لكنّني أردْتُ أن أراها!...»

«مستحيل!»

«أريد أن أعرف ماذا حدث لأمينة...»

«هَيا، لا تناقشيني»، قالت فرانسيس. «انتهى الموضوع.»

*

ماذا عساها تفعل؟ بابا لن يصل من اجتماعه في أميركا قبل يومين، وفرانسيس لن تسمح لها بزيارة الإسطبلات مهما توسّلت.

وصل الملك من السفر في وقت متأخّر. كانت هَيا لا تزال مستيقظة في سريرها حين دخل يطمئنّ عليها. «لقد عدتَ»، تَمْتَمَتْ.مكتبة الرمحي أحمد

«وصلْتُ في آخر لحظة»، قال والدها وهو يمسّد شعرها. «أعرف فتاة ستتمّ سنواتها الستّ يوم غد.»

*

أُقيمَت حفلة عيد ميلاد هَيا على المرجة أمام القصر. حضر جميع أعمامها وعمّاتها وخالاتها وأخوالها مع أبنائهم وبناتهم. أُعجِبَت خالاتها بالفستان الجميل الذي ألبسَتْها إيّاه فرانسيس. قُلنَ لهَيا: «كم تشبهين والدتك!»، فاحمرّت وجنتاها فخرًا وسرورًا.

في عيد ميلادها، اشتاقت هَيا إلى ماما أكثر من أيّ وقت مضى. أليس من المفترض أن تكون المناسبات السعيدة سعيدة؟ ولكن، منذ رحيل ماما، لم يَعُدْ لتلك المناسبات الطعْم نفسه، أصبحت تشوبها مسحة من الحزن. لكن لا أحد يستطيع أن يُلْغِيَ أعياد الميلاد. هي تأتي كلّ عام مرّة. هكذا، كانت هَيا تحاول أن تسيطر على مشاعرها وأن تحافظ على ابتسامتها طوال الوقت، رغم ما سمعته من عمّاتها وخالاتها وهُنَّ يتهامسْنَ: «كم هي هادئة! كم تبدو حزينة! أنظروا كيف أنّها منزوية ولا تلعب مع الأولاد الآخرين. من غير المُستغرَب أن يكون الملك قلقًا عليها إلى هذا الحدّ».

«هَيا!»، ناداها والدها. «تعالي إلى هنا وشاركي الأولاد في لعبة ذيل الحمار.»

عَصَبَ الملك عينيْها، وجعلها تدور على نفسها عدّة مرّات إلى أن كادت تقع من الدوخة. قَهْقَهَ الأولاد وازداد صياحهم عندما حاولت أن تلصق ذنب الحمار على وجهه، فابتسمت بدورها.

قُدِّم الغداء على المرجة خارج القصر. فوق الطاولة الكبيرة، كثيرٌ من الهدايا المكدّسة يتوسّطها قالب حلوى. كانت أوراق التغليف الملوّنة تخشخش بين أصابع هَيا بينما كانت تفتح الهدايا وتشكر أقرباءها عليها.

«هديّتي لا مكان لها على الطاولة»، قال والدها. «إنّها تنتظرك عند باب المدخل.»

ركض الأولاد وهم يصرخون بحماسة، ويتسابقون، بأقدام حافية تصفع الرخام بقوّة. كانت هَيا في المقدّمة، تسبق علي وأبناء أعمامها وأخوالها، وهي مصمِّمة على أن تكون أوّل مَن يصل. كان باب الندوة مفتوحًا على مصراعيه.

«ما هي؟»، سألها علي لاهثًا. «ماذا أحضَرَ لك؟»

لم تُجِبْ هَيا. صدمَها المشهد الذي طالَعَها. فقد رأت، عند أسفل الدرج، ضابطين من عناصر قوّات البادية الأردنيّة، أكثر جنود المملكة خشونةً وشجاعة، يمتطيان جملَيْهما ويحملان خنجرين معقوفين على خصريْهما. تميّز الرجلان بوجهيْن مهيبَيْن: بَشَرَتان لوّحَتْهما الشمس، عظام خدود ناتئة ومنحوتة، عيونٌ سوداء، وتعابير وَقورة وجدّية. لو كان باستطاعة الأسدَين اللذين يحرسان باب الندوة أن ينحنيا أمامهما احترامًا لفَعَلا!

«هل أعجبتْكِ الهديّة؟»، سألها والدها بعد أن تمكّن من اللحاق بها أخيرًا. رفعت هَيا نحوه عينَين واسعتَين. فإلى جانب الضابطين، كانت هديّتها: جَمَلان زُيّنا بفراشتين زهريّتين ضخمتين معقودتين على عنقيْهما. أحدهما بالغ والآخر صغير لكنّه يفوق هَيا طولًا رغم ذلك. لم يتوقّف الجَمَل الصغير عن التململ وزحزحة عنقه محاولًا التخلّص من الشريط الزهريّ. يبدو أنّه كان منزعجًا منه.

استدارت هَيا نحو والدها مذهولة وقالت: «هُما لي؟ الاثنان؟».

«ألم ترغبي في أن تكوني أميرة عربيّة حقيقيّة؟»، قال الملك مبتسمًا. «ولتكوني كذلك، ستحتاجين إلى جِمال.»

لقد فهم بابا كلّ شيء. أميرة عربيّة حقيقيّة. هذا هو بالضبط ما تريده.

«هل سيعيشان معنا في القصر؟»

ما إن لفظت تلك الجملة حتّى شعرت بعينَيْ مربّيتها الزجاجيّتين الثاقبتين تخترقانها. أكيد أنّها تتخيّل الآن الفوضى التي سيُحدِثانها على المرجة الخلفيّة!

لحسن حظّ فرانسيس، كان الملك من رأيها: «الجملان سيظلّان مع قوّات البادية، لكن بإمكانكِ أن تزوريهما لتطعميهما وتمتطيهما».

تقدّمت هَيا نحو الجَمَلَيْن بخُطًى متردِّدة. «هل أستطيع أن أربّت الصغيرَ منهما؟»

«طبعًا، سموّك»، أجابها العسكريّ.

مدّت هَيا ذراعها لتمسّد الجمل الصغير. كانت فروته مشعَّثة وكثيفة، ناعمة كالحرير، وبلَوْن الكراميل.

قالت بحسْمٍ: «سأسمّيه فلافي، وقد أسمّي الأمّ لولابيل.»

صدَرَ صوت مكتوم عن الضابط الذي يُمسك برسن فلافي. رجال قوّات البادية هم أقوى جنود الأردن. لن يخطر على بالهم يومًا أن يسمّوا جِمالَهُمْ فلافي ولولابيل! لكنّه لم يقُل شيئًا، وحافَظَ على وجهٍ خالٍ من التعبير. انتظر بصبر بينما أخذت هَيا وعلي وأقرانهما

يدلّلون الجمل الصغير، وفيما ترجّل الضابط الآخر عن جَمَلِهِ ليرفع الأولاد واحدًا تلو الآخر فوق ظهر لولابيل. في النهاية، بعد أن اكتفى الجميع، اعتلى الضابطان جَمَلَيْهما مجدّدًا وساقا فلافي ولولابيل بعيدًا. كان الرجلان منهكيْن. كلّ مخاطر الصحراء تبدو تافهة أمام حفلة عيد ميلاد فتاة في السادسة من عمرها!

عند درج القصر، كان المدعوّون على وشك الانصراف حين وصل سانتي وأورسولا. كانا يقودان شاحنة الحُمُّر، وأورسولا تلوّح بيدها من النافذة بفرح.

«عيد ميلاد سعيد، هَيا!» صرخت. «آسفين على التأخير!»

«نعم، كلّ عام وأنت بخير تيتش»، قال سانتي بحرارة.

«أخشى أنكما فوّتما على نفسَيْكما إطفاء الشموع وقالب الحلوى»، قالت فرانسيس بفظاظة.

أوقف سانتي الشاحنة وفتح الباب، ثمّ ترجّل وهو يربّت كُرْشَه قائلًا: «لا أحتاج إلى تناول الحلوى. فأورسولا تغذّيني بما فيه الكفاية».

ثمّ ابتسم لهَيا غامزًا. «أنا هنا فقط لأسلّم تيتش هديّتها.»

نظر سانتي نحو الملك، ولمحت هَيا والدها يومئ له برأسه، وكأنّه يعطيه إشارة بأن يتابع ما بدأه.

«هناك هديّة أخرى»، قال والدها وهو ينحني باتجاهها، «أحضرها سانتي وأورسولا».

لا تعرف هَيا لِمَ أخذ قلبها ينبض بقوّة. جرّها والدها من يدها وتقدّم بها إلى خلف الشاحنة، حيث كان سانتي وأورسولا يفكّان المزلاج ويُنزلان سلّمًا. داخل الشاحنة، كانت هديّتها: شيءٌ أصغر من أن يحتلّ مساحة مربطٍ للخيل، وَجَّهَ نحوها عينين واسعتين تطرفان من ضوء الشمس، كتلةٌ من الزغَب والفرو تقف على قوائم هزيلة.

«إنّه حصان!» صاح علي، ثمّ عبس. «لماذا هو صغير هكذا؟»

«إنّه مهر»، قالت له هَيا. «إنّه طفل، علي، مثلك.»

«أنا لست طفلًا. لقد أصبحت في الرابعة»، قال علي غاضبًا. لكن هَيا لم تعد تسمع أخاها. كان كلّ تركيزها قد انصبّ على المهر الواقف قبالتها.

إنّه حصان كميت، بقوائم يكسوها السواد، وعُرْف أسود بارز كثيف، شعره كوَبَر فرشاة لتنظيف القناني، يتماوج على طول رقبته الصغيرة. على جبهته نجمة بيضاء. أما قوائمه الخلفيّة، فتنتهي ببياض مرقّط بالأسود مثل فرو القاقم.

بقامته المربوعة وبُنْيَتِه السمينة، لا يبدو هذا المهر بأناقة خيول الحُمَّر ولا بجمالها المتأصّل. إلّا أنّ خطمه السميك وشكل وجهه الذي يبدو مفلطحًا من الجنب، جميلان على طريقتهما الخاصّة. وهاتان العينان! لذلك المهر عينان رائعتان، بنّيّتان وكبيرتان وواسعتان بشكلٍ لا يصدَّق، تلمع فيهما ومْضَة لطفٍ وصدق. كانت هَيا تتأمّله وقلبها يخفق أكثر بعد. طوال حياتها، لم ترَ حصانًا بهذا الجمال.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

تأمّلت هَيا المهر لوقت طويل إلى درجة أنّها نسيت ضيوفها. حين التفتت أخيرًا نحوهم، كانت لا تزال فاغرةً فاها من الذهول، عاجزة عن النطق بكلمة، فضحك الجميع.

في النهاية، استطاعت أن تقول متَأْتِئَةً: «هل هو لي؟»

«هي لك»، قال والدها.

هي. لقد قال والدها هي. إذًا، المهر هو مهرة. صغيرة. قاد الملك هَيا بيدها صعودًا على سلّم الشاحنة. حين اقتربا من المهرة، لاحظت هَيا أنّها كانت ترتجف.

«إنّها تشعر بالبرد»، قالت هَيا.

«هي خائفة قليلًا»، قال الملك.

«لماذا؟»، سألت هَيا.

«لأنّه لم يسبق لها أن خرجت من مربطها قبل اليوم»، أجاب الملك، وهو ينظر إلى ابنته برفق. «كما تعلمين، قد يكون العالم مكانًا مفزعًا حين تكونين فتاة صغيرة ووحيدة.»

قَرْفَصَ الملك إلى جانب ابنته وأحاطها بذراعيه.

«هَيا، هذه المهرة هي ابنة أمينة. لم يستطع البيطريّ أن يُنقذ الفرس لكنّه فَعَلَ كل ما بوسعه لتحيا المولودة.»

الآن عرفت هَيا بما كانت أورسولا تودّ إخبارها يوم جاءت إلى القصر وطردتها فرانسيس. إذًا، كتلة الزغب هذه هي مولودة أمينة، يتيمة، تبلغ من العمر ثلاثة أيّام فقط.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«ستحتاج إلى الكثير من العناية»، قال بابا. «هذه مسؤوليّة كبيرة.»

تأمّلت هَيا المهرة. كم تشبه أمينة! صحيح أنّ فروتها لا تزال زغَبِيّة المَلْمَس، لكنّها فرس كميت، مثل والدتها. وعيناها، هاتان العينان البنّيّتان كالشوكولاتة، الناعمة واللطيفة، هما عينا أمينة.

«ماذا عليّ أن أفعل؟»، سألت هَيا بصوت مرتجف.

«أطعميها، اعتني بها ونظّفيها، ربّيها ودرّبيها، علّميها حسن التصرّف. علّميها كيف تصبح فرسًا»، قال والدها. «سانتي والسيّاس سيساعدانك، لكنّها مهْرتكِ أنت، هَيا. من الآن، أنتِ أمّها.»

شعرت هَيا بوقْع المسؤولية التي تضعها تلك الكلمات على عاتقها. هذه المهرة التي تمسّكت بالحياة بكلّ ذلك العناد، وبقيت في هذا العالم رغم كلّ الظروف الصعبة التي واجهتها، أصبحت الآن في عُهْدَتِها.

مدّت هَيا ذراعها ومسّدت المهرة التي كانت لا تزال ترتعش. «لا عليكِ»، قالت لها بحنان. «لا تخافي يا صغيرتي. لن يؤذيكِ أحد.»

كان المدعوّون قد تحلّقوا حول الشاحنة، محاوِلين الفوز برؤية أفضل. «لو يتراجع الجميع قليلًا، ستتمكّن هَيا من جرّها إلى الخارج»، قال الملك.

تراجع الضيوف نحو المدخل بينما كان الملك وهَيا ينزلان من سلّم الشاحنة، تتبعهما أورسولا ومعها المهرة. كانت تلاطفها وتستدرجها

نحو الخارج برفق، وخطوة خطوة، إلى أن هبطت مندفِعةً وقوائمها تترنّح كما لو أنّها تمشي على سيقان خشبيّة. ما إن وصلت المهرة إلى الأرض ورَأَت الحشد حتّى تسمّرت في مكانها. انتصبت أذناها وأخذت تصدر نخيرًا عميقًا وصاخبًا من فُتْحات أنفها الواسعة. ثمّ رفعت رأسها عاليًا قَدْر ما استطاعت وأصدرت شخيرًا شجاعًا، أرادَتْه صهيلًا قويًّا كصوت البوق لكنّه خرج كصريرٍ حادّ. ضحك الحشد فجفلت المهرة. تراجعت وأصدرت نخيرًا ثانيًا، بينما كان جسدها لا يزال يرتجف وعيناها مفتوحتان على وسعهما.

ناولت أورسولا هَيا الحبلَ قائلة: «هل تودّين جرّها؟». أمسكَتْهُ الأميرة وهي تقف على بعد ذراع من الفرس، غير مصدّقة بأنّ هذا الكائن أصبح ملكها. نظرت إلى والدها وعيناها تلمعان.

«شكرًا بابا»، قالت بنبرة جدّيّة. «لقد أحببتها. كم إنّها جميلة!»

«هل ستمتطينها الآن؟»، سأل علي.

استدارت هَيا نحو أخيها وأجابت: «لا!»

«إذًا، هل بإمكاني أنا أن أمتطيَها؟»

«علي»، قال الملك، «المهرة لا تزال صغيرة. لا يمكن امتطاؤها بعد».

«أصلًا، عليك أن تروّضها أوّلًا»، قالت هَيا. فقد سبق لها أن سمعت سانتي يتحدّث عن ذلك في إحدى المرّات.

تجهّم علي، وقال: «ومتى يكون هذا إن شاء الله؟»

«ستكون مستعدّة في غضون السنوات الثلاث المقبلة»، ردّ الملك.

فأطلق علي تنهيدة عميقة، وقال: «أنا أريد درّاجة في عيد ميلادي. على الأقلّ سأتمكّن من الركوب عليها فورًا».

جفلت المهرة مجدّدًا لدى سماعها ضحكة الحشد.

«يكفينا حماسًا لليوم، أليس كذلك؟»، قال سانتي لهَيا. «تحتاج المهرة أن تعود إلى منزلها. بعد قليل، سيحين موعد عشائها.»

«ماذا تأكل؟»، سألت هَيا.

«حليب الجِمال»، قال سانتي. «سوف أُريكِ كيف تشرب قنّينتها. عليكِ أن تطعميها أربع مرّات في النهار – وثلاث مرّات خلال الليل أيضًا.»

سَرَتْ همْهَمَة صاخبة بين الحشد، ثمّ نطقت فرانسيس السعيدة بصوتٍ معسولٍ: «سنيور لوبيز. بالتأكيد لست تقصد أنّ سموّ الأميرة ستضطرّ إلى الذهاب ليلًا إلى الإسطبلات لتطعم هذا الكائن».

هزّ سانتي كتفيه وقال: «المهرة أصبحت لهَيا الآن. هي المسؤولة عنها. هذا كلّ ما أقوله».

التفتت فرانسيس مستنجِدَةً بالملك. «لكن، بالتأكيد يدرك السيد لوبيز أنّه ليس من المنطقي أن تتنقّل الأميرة في وقتٍ متأخّر كهذا. لِمَ لا يتولّى سيّاس الإسطبلات إطعامها؟»

«عليّ أن أقوم بذلك بنفسي»، أصرّت هَيا. «هي لي. أنا مَنْ سيهتمّ بها.»

«مستحيل!»، قالت فرانسيس رافضة الاستسلام. «المكان بعيد، والعتمة، وكلّ تلك الطرقات...

«فرانسيس على حقّ»، قال الملك، فشكّت هَيا للحظة في أنّه سيصطفّ إلى جانب المربّية، لكنّه التفَتَ نحو الحشد وقال: «أخي؟، هل بإمكان المهرة أن تبقى في إسطبلاتك؟».

الأمير حسن هو أخو الملك وقائد فريق البولو الملكيّ، وإسطبلات البولو تقع داخل المجمّع الملكي، على بُعد دقائق فقط من القصر، عند أعلى التلة.

«بالتأكيد»، قال الأمير موافقًا. «لديّ الكثير من المرابط الاحتياطيّة. أفراس البولو ستستمتع برفقتها.»

فورًا، أرسل عمّ هَيا الأوامر لسيّاسه في باحات البولو ليجهّزوا مربطًا لضيفتهم الجديدة، بينما قادت أورسولا المهرة إلى داخل الشاحنة وسألت هَيا: «هل تريدين أن تركبي معها هنا؟».

تسلّقت هَيا سلّم الشاحنة بتوتّر. كانت عيناها مفتوحتين على وسعهما، تمامًا مثل عينَي المهرة إلى جانبها.

«ستكونين بخير»، قالت أورسولا، «كلّ ما تحتاجين إليه هو أن تمسكي برسنها هكذا، وأن تتحدّثي معها ما إن نتحرّك حتّى تظلّ هادئة».

ابتسمت أورسولا، ونزلت من الشاحنة ثمّ رفعت السلّم. سمعت هَيا المزلاج ينزلق على الباب من الخارج.

«ما إن ننطلق تمسّكي بالقضبان الحديد!»، صرخت لها أورسولا. «قد تكون الطريق وعرة في البداية.»

بعد أن أغلقت أورسولا الباب، أصبحت العتمة كاملة في الداخل، لكنّ الضوء النافذ من الطاقتين الصغيرتين على الجنبيْن وفّر لها ما يكفي من النور. استخدمت هَيا يدًا لتمسك القضبان الحديد، فثبّتت وقفتها بينما قبضت بشدة، بيدها الثانية، على رسن المهرة.

ها هما معًا، ولوحدهما، للمرّة الأولى. كانت هَيا تحدّق إلى المهرة الصغيرة كما لو أنّها حصان أسطوريّ خرافيّ.

«مرحبًا»، قالت للمهرة. «أتدرين؟ أنا أعرفك من قبل أن تولَدي. أنت تبدين مثل والدتك تمامًا. لقد كانت جميلة جدًّا، وكانت فرسًا وثّابة ممتازة. وأنتِ مثلها تمامًا.»

أخذت تمسّد المهرة على خطْمها العريض السميك، وهي تكاد تلتصق بها في العتمة. ثمّ همست لها: «إسمي هَيا وأنا سأعتني بك».

كانت تشدّ بقوّة على رسن المهرة فيما تتردّد صدى كلمات والدها في الصمت الذي حلّ بينهما: «من الآن، أنتِ أمّها».

«سأعتني بكِ»، همست هَيا مجدّدًا. «لن تشعري يومًا بالوحدة أو بالحزن لأنني سأحبّك دومًا، وسأكون إلى جانبك مهما حصل.

ستجعلين والدتك تفتخر بك لأنّك ستصبحين أفضل حصان في الأردن.»

في عتمة تلك الشاحنة، حَمْحَمَت المهرة بنعومة، فأدركت هَيا أنّها فهِمَتْ كلّ كلمة قالتْها.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفصل السابع

بنت الريح

مدّت أفراس البولو أعناقها من مرابط الأمير حسن، وهي تصهل مرحّبةً بالضيفة الجديدة.

جفلت المهرة حين أحسّت بالعيون المصوّبة نحوها، والتصقت بهَيا حتى كادت تدوس على قدميها. وقفت في الباحة، ترتعش وتُحَمْلِق بعينيها الواسعتين، وهي تحاول استيعاب كلّ هذه المشاهد والأصوات.

أفراس البولو أفراسٌ أصيلة، رقْباتها مفتولةِ العضلات وأنوفها رومانيّة الشكل. أعرافها مجزوزة عن آخرها وشعورها محلوقة على طول أعناقها حتّى لا تتشابك مع اللجام في حمأة مباراة ما.

هذه باحة للعمل. على عكس الحُمَّر، ليس فيها أشجار زيتون رماديّة وخضراء ولا بركة ماء أنيقة. هنا، تشرب الأحصنة من أحواض بلاستيكيّة وتتجوّل في حظائر مغبرّة.

مبنى الإسطبل نفسه جميل وحديث، جدرانه عالية كجدران قلعة. حول الباحة الإسمنتيّة حيث تتجمّع الأحصنة وتغتسل، تصطفّ دزّينتان من المرابط على شكل نصف دائريّ.

تنشّقت هَيا رائحة الزبل وعَرَق الخيول فكاد قلبها يقفز من صدرها، تمامًا كما كان يحصل لها في الحُمَّر. «هيّا!»، قالت للفرس وهي تقودها إلى الأمام، «تعالي نرى منزلك الجديد».

كانت المهرة تنَطِنطُ بجانبها. عندما وصلت إلى المربط، كانت فروتها قد تبلّلت بالعرق. وما إن فكّت هَيا رسنها وترَكَتْها طليقة داخل المربط، حتّى اندفعت المهرة مباشرة نحو الباب، وهي ترفع خطْمها الصغير في محاولة يائسة لتنظر من فوق حاجزه. تردّد صدى حَمْحَماتها الحزينة في أرجاء الإسطبلات.

«لم يعجبْها»، قالت هَيا. «أعتقد أنّها تريد العودة إلى الحُمَّر.»

هزّ سانتي رأسه نفيًا: «إنّها لا تشتاق إلى الحُمَّر، هي تشتاق إلى والدتها».

أطلقت المهرة نخيرًا يائسًا جديدًا، وفُتْحات أنفها لا تزال ترتجف، فأصبحت هَيا فجأة في مطبخ المنزل الصيفيّ وكومة من البرتقال تتدحرج أمامها. أيّتها المهرة المسكينة! هي تعتقد أنّها إذا بكت بصوت عالٍ، ستعود والدتها.

«المهرة ستتأقلم بسرعة»، قال لهم الأمير حسن مطَمئنًا. «سيحرص سيّاسي على أن تتغذّى جيّدًا.»

كانت هَيا تعِبَةً وجائعة. لقد حلّ المساء، وآخر شيء تناولته كان قطعة من قالب الحلوى عند الظهر. كم ترغب في العودة إلى الندوة الآن! فالكثير من الهدايا بانتظارها هناك. لكنّ المهرة لم تكن لِتهدأ وظلّت تنادي أمّها. التفتت هَيا نحو عمّها وقالت بهدوء ولكن بإصرار: «عليّ أن أبقى. عليّ أن أقوم بذلك. فهي تحتاج إليّ».

*

من السهل أن تدّعِيَ القوّة وأن تتماسك أمام الجميع. ولكن، في الليل، وفي العتمة، حين تكون وحدك، تصبح المسألة أصعب.

غادر سانتي وأورسولا في اتجاه الحُمَّر لإطعام الأحصنة هناك، فقد حان موعد عشائها. كذلك ذهب الأمير حسن إلى منزله وانتهى سيّاسو إسطبلات البولو من أعمالهم لذلك النهار. لم يَعُدْ في الباحة سوى هَيا، يلازمها حرّاسها الشخصيّون عند أبواب الإسطبلات.

بعد كثيرٍ من التململ والتلوّي، انهارت المهرة من التعب وغطّت في النوم. تمدّدت على سرير التبن في الزاوية، بينما استَلْقَت هَيا بجانبها على الأرض. تمنّت لو أنّها طلبت إحضار بطّانيّة. فليالي الصيف أصبحت أقلّ دفئًا، وقد شعرت بلسعة بردٍ في الجوّ حتّى داخل المربط. كما أنّها ظلّت لساعة تقريبًا تحاول تجاهل الأصوات الغريبة الآتية من الباحة في الخارج. كانت تسمع خربشاتٍ ما، لكنّها، كلّما أطلّت برأسها خارج المربط، كانت الأصوات تَخْفُت.

«ربّما تكون قطّة الإسطبلات تقوم بإحدى جولاتها لصيد الفئران»،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

قالت لنفسها. كانت العتمة شديدة، أشدّ من أن تتمكّن هَيا من رؤية أيّ شيء حولها. جلست، وأسندت ظهرها إلى جدار المربط. كلّ شيء على ما يرام. لا شيء في الخارج. لعلّها القطّة فقط.

بعدها بلحظات، أومضت مصابيح الحرّاس، وسمعت هَيا وقْع أقدام تعبر الباحة، فحبست أنفاسها. عليها أن تحمِيَ مهرتها.

«هَيا!»

لمحت عينين تتلصّصان عليها من خلف حاجز المربط. لم يكن ذلك سوى علي!

«قال بابا إنّ باستطاعتي أن أعود لأرى المهرة»، قال علي. «جلبنا لك العشاء.»

ثمّ ظهر والدها عند الباب. قال: «حضّر لك اسماعيل مأدبة بمناسبة عيد ميلادك. أين تودّين أن تأكلي؟»،

بدت غرفة الأسرجة أفضل مكان لتناول الطعام. أتى الملك من الباحة بقطعة خشب، مدّوا عليها المائدة وتحلّقوا حولها بعد أن جلسوا على أسرجة خشبيّة وكأنّهم يأكلون ويمتطون الخيل في الوقت نفسه!

كان اسماعيل قد وضّب الطعام في أطباق بأغطية حتّى يظلّ ساخنًا: طبق شهيّ من الدجاج بالبرتقال والمكسّرات إلى جانبه أرزّ بالخوخ.

«إذًا، ما رأيك بمهرة هَيا؟»، سأل الملك ابنه.

«في الحقيقة، لم نرَ شيئًا من مواهبها بعد، أليس كذلك؟»

«هي نائمة»، أشارت له هَيا.

قَضَمَ علي قطعة من الدجاج، وهو يحاول هزّ السرج الذي يجلس عليه ليطَقْطِق وهو يمضغ.

كانت التحلية برازي وليموناضة منعشة. بعد العشاء، عادوا إلى المربط فوجدوا المهرة مستيقظة. كانت منتصبة على قوائمها تتشمّم التبن محاوِلَةً استكشاف منزلها الجديد.

«ما اسمها؟»، سأل علي.

نظرت هَيا نحو المهرة. تأمّلتها وهي تحاول بقوائمها الهزيلة تفقُّد المكان من حولها. هذه القوائم ستحملهما في يوم من الأيّام في جولة عَدْوٍ على رمال الصحراء الشاسعة.

«سأسمّيها بنت الريح»، قالت هَيا لأخيها.

ضحك علي.

عبست هَيا في وجهه. «ما المضحك في الأمر؟»

«بنت الريحة»، قال علي وعيناه تلمعان خُبْثًا. «بنت الريحة!»

رمقت هَيا أخاها بنظرة غاضبة.

«توقّف، علي!» قالت متشكّية.

لكنّ علي لم يتوقّف. فقد قرّر أنّ نُكْتَتَهُ تلك هي أظرف شيء سمعه في حياته. ظلّ يغنّي «بنت الريحة»، ويغنّي ويغنّي، إلى أن حمله الملك ووضعه في السيّارة، ثمّ أقفل الأبواب عليه لكي لا يعود بإمكان هَيا سماعه.

«لِمَ لا تأتين إلى المنزل أنت أيضًا، هَيا؟»، سألها والدها. «لِنَدَعْ أحد سيّاس حسن يحلّ محلّك خلال الليل، إلى أن تعودي صباحًا وتطمَئنّي بنفسك على بنت الريح.»

كانت هَيا ترتدي السترة الصوفية الدافئة التي جلبها لها والدها ولكن، رغم ذلك، كانت تشعر بقرصة البرد في الجوّ. فكّرت قليلًا بالقصر وبسريرها الدافئ. ثمّ هزّت رأسها قائلة: «بنت الريح أصبحت تعرفني الآن. لن تشتاق إلى أمّها كثيرًا إذا بقيت معها».

لم يجادلْها الملك. «افعلي ما ترينه مناسبًا.» احتضن ابنته وقبّلها على رأسها، ثمّ قال: «أعجبني الاسم الذي اخترتِه لها. إنّه اسم يليق بفرس عظيمة».

«بنت الريح ستكون فرسًا عظيمة»، ردّت هَيا. «ذات يوم، ستصبح أفضل أفراس الإسطبلات الملكيّة.»

*

بعد أن غادر الملك وعلي، جلست هَيا على السرير النقّال المفتوح، مفترشة كيس النوم، وصبّت حليب الجَمَل الساخن من الترمس في قنينة المهرة. أسندت الترمس إلى طرف القنّينة حتّى تثبّته وهي تصبّ، ثمّ غطّت القنّينة بالمصّاصة وأحكمت إغلاقها. لقد حان وقت الوجبة.

«هيّا، بنت الريح»، قالت للمهرة وهي تمسكها بإحكام من رسنها محاولةً إطعامها. حين قام سانتي بذلك أمامها، كان يمسك بالقنّينة

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

فوق فم المهرة مباشرة ويُقحم المصّاصة في داخله، ويظلّ يضغطها إلى أن تبدأ المهرة بالمصّ.

حاولت هَيا، لكنّ المهرة كانت أقوى منها فلم تتمكّن من السيطرة عليها ومن إمساك القنّينة في الوقت نفسه. كانت بنت الريح تتراجع وتشدّ بجسمها نحو الخلف. حشرتها في زاوية المربط، وهي تمسك الرسن بيد وتحاول باليد الأخرى إدخال المصّاصة في فمها. لكنّ المهرة رفضت فتح فمها.

«عليكِ أن تشربي!»، قالت هَيا وقد دمعت عيناها. «أرجوكِ!»

أحكمت قبضتها على الرسن، لكنّ المهرة ظلّت تتخبّط وتصارع إلى أن أفلتت هَيا الحبل ووقعت على التبن منهكة. لن تستطيع القيام بذلك بمفردها. هذا مستحيل!

كانت الدموع تتساقط على خدَّيْ هَيا. إذا ظلّت المهرة ترفض تناول الوجبة في الليل ستصاب بالتجْفاف، ستصبح ضعيفة ولن تكبر – حتّى إنّها قد تموت!

لا تفكّري هكذا، قالت لنفسها. هذه مهرتك، هَيا. تناولت القنّينة من جديد. تسرّبت من المصّاصة بعض قطرات الحليب وانزلقت على ساعدها. كانت دافئة ودبقة. تأمّلت هَيا القطرات وهي تنزلق. ومن دون أن تفكّر لحَسَتْها، فذاقت طعم الحلاوة على لسانها.

تغلّبت على يأسها، فأمسكت المهرة من رسنها من جديد. هذه المرّة لم تقدّم لها القنّينة، بل رشّت بعض القطرات من حليب

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الجَمَل على يدها. وبرقّة شديدة، قرّبت إصبعها من خطم المهرة. شمّت المهرة كفّها، وأذناها منتصبتان.

«تذوّقيها»، قالت هَيا. «أنت تحبّين الحليب، أليس كذلك؟»

مدّت المهرة لسانها. كان ملمسه على بَشَرَة هَيا خشنًا كورق الزجاج. رشّت المزيد على إصبعها وقرّبته مجدّدًا من فم المهرة. هذه المرّة، عندما مدّت المهرة لسانها، أدخلت هَيا إصبعها داخل فمها. كان ذلك أغرب إحساس في العالم. تلهّت به لتتناسى خوفها من أن تعضّها المهرة. لكنّ المهرة لم تقرص أصابع هَيا. عوضًا من ذلك، بدأت تمصّ. ثمّ أصبحت حركة لسانها أقوى فأقوى، فدسّت هَيا المصّاصة في فمها وسحبت إصبعها على مهل حتّى لا تشعر المهرة بالتبديل الذي وقع.

فجأة، أخذ ذيل المهرة يغزل بسرعة وكأنّه دولاب حظّ من الفرو، وراح الحليب يتناقص بسرعة من القنّينة.

«عافاكِ، بنت الريح!» كادت هَيا تبكي وكأن همًّا انزاح عن قلبها. أمسكت القنّينة بكفّيها الاثنتين، وكلّما فرغت القنّينة أكثر، كانت المهرة تشرب بشهيّة أكبر. «عافاك!»

استيقظت هَيا مرّتين إضافيّتين خلال الليل لإطعام مهرتها. وفي كلّ مرّة، كانت تستخدم الحيلة ذاتها. في الصباح، حين عاد والدها، وجد ترمس الحليب فارغًا وهَيا تنام نومًا عميقًا وهي متقوقعة على نفسها في سرير التبن، بجانب بنت الريح.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الفصل الثامن

قوّات البادية

كانت هَيا تقضي كلّ وقتها بجانب بنت الريح. تتناول وجباتها في المربط، وتنام على السرير النقّال بقرب مهرتها التي ترقد على التبن.

وفي كلّ صباح، أمام إصرار فرانسيس، تذهب إلى القصر لتستحمّ، وتبدّل ثيابها وتتناول الفطور، قبل أن تعود بسرعة إلى الإسطبلات.

«أنا قلقة على صحّة الطفلة»، سمعت هَيا فرانسيس السعيدة تقول لبابا. «لا يمكنها الاستمرار هكذا، إنها تبدو شاحبة ومُنهَكَة.»

«إنّها تبتسم مجدّدًا»، قال الملك، «وتضحك وتتحدّث. للمرّة الأولى منذ رحيل والدتها، أرى عينيها تلمعان من جديد».

«المهرة تأخذ الكثير من وقتها.» لم تستسلم فرانسيس. ها هي تحاول بأسلوب آخر. «الفتيات في سنّها يحتَجْنَ إلى تنشّق الهواء النقيّ وإلى رفقة أقرانهنّ من الصبيان والبنات. ثمّ، ماذا عن دروسها؟ فهي لم تقم بشيء طوال هذا الأسبوع سوى الاعتناء بالمهرة.»

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«في الحياة دروسٌ تفوق دروس المدرسة أهمّيّة»، أجاب الملك. «وأفضل أساتذتنا يمشون على أربع.»

*

«هل ستذهبين مجدّدًا إلى الإسطبلات؟»، سأل علي وهو يراقب أخته توضّب حقيبتها. «لا أفهم ما الذي يميّز هذه المهرة أساسًا. فهي تقضي وقتها نائمة.»

ابتسمت هَيا. يبدو أنّ الصبيان والرجال لا يدركون أنّ لا نهاية للأعمال التي تقوم بها هَيا في الإسطبلات. فعلي وعمّها يزورانها لممارسة الفروسية فقط، وليهتمّا بأحصنتهما ويعتنيا بها، لكنّ هَيا تشعر بالسعادة لمجرّد وجودها هناك.

كان علي يحمل طابة تحت إبطه. عرض عليها أن تبقى وتلعب معه. «لنقمْ ببعض الركلات في الحديقة»، قال لها.

هزّت هَيا رأسها. «لا أستطيع، علي. لقد اقترب موعد وجبتها.»

تَمْتَمَ علي بكلمات قال فيها شيئًا عن أن الأحصنة مملّة وغادر غاضبًا. شعرت هَيا بالأسى. هي تعرف أنّ أخاها يشتاق إلى رفقتها، لكنّ المهرة تحتاج إليها أيضًا. كيف تصف لعلي ما تشعر به وهي مع المهرة. كأنّهما قلبٌ قُسمَ إلى نصفين، ونصف القلب لا يدقّ من دون نصفه الآخر.

ثمّ عاد علي. أطلّ برأسه من خلف الباب وصاح قائلًا: «بنت الريحة!».

«إسمها بري»، قالت هَيا بحزم. وبري هي كنية المهرة الآن، هي تصغير لاسمها بنت الريح.

«بنت الريحة!»، هتف علي مجدّدًا، سعيدًا بقدرته على إغضاب أخته بمجرّد زيادة حرف واحد على اسم حبيبة قلبها.

تنهّدت هَيا بيأس وانطلقت نحو الإسطبلات.

في باحات الأمير حسن، كانت بري لا تزال تنتظر، بخطمها الصغير الذي بالكاد يظهر من خلف المربط، وفُتحتَيْ أنفها المختلجتين.

ما إن دخلت هَيا المربط، حتّى صهلت المهرة بابتهاج، ومرّغت أنفها بهَيا مداعبةً، وهي تدفعها بخطمها، بحثًا عن الحليب. لم يَعُدْ على هَيا القيام بحيلة الإصبع. فما إن رأت بري المصّاصة حتى تلقّفتها بحماسة بين شفتيها وأخذت تمصّ، وذنبها الصغير يدور ويلتفّ بسرعة.

كانت هَيا تراقب حليب الجَمَل وهو يختفي من القنّينة التي تحملها بيدها، وتشعر بالرضى حين تتخيّل الغذاء وهو يملأ معدة بري الآن.

ظلّت بري تشرب بحماسة وشهيّة، حتّى بعد أن فرغت قنّينة الحليب تمامًا، إلى أن انتصبت أذناها فجأة ولمعت في عينيها تلك النظرة الشقيّة، فيما اتّسعت فُتحتا أنفها. تعرف هَيا تمامًا تلك النظرة. لقد رأتها سابقًا. هكذا إذًا... المهرة العفريتة في واحدة من فوراتها المجنونة، وتريد اللهو. بالكاد تسنّى لهَيا الوقت الكافي

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

للابتعاد قليلًا قبل أن تندفع المهرة إلى الأمام، في نوبة سرعة فجائيّة، وتنطلق بجنون في المربط، وهي تحيط هَيا بقفزات عشوائيّة، وقوائمها تغطس مع كلّ خطوة في التبن الذي يغطّي أرضيّة مربطها.

بعد عدّة قفزات، توقّفت ورفعت رأسها، ثمّ أطلقت صهيلًا حادًّا وثاقبًا، قبل أن تشبّ كفحْلٍ، وهي تركل بقوائمها الأماميّة وكأنها تتعارك مع عدوّ وهميّ.

أطلقت هَيا ضحكة. فأطلقت بري نخيرًا ساخطًا قبل أن تقوم بدورة أخرى في المربط، ثمّ تجمد تمامًا وتنهار على التبن. خلال لحظات، كانت قد غرقت في النوم.

لقد أصبحت أفراس البولو تتعرّف إلى هَيا حين تصل إلى الباحة. تصهل بمرح ترحيبًا بها، آملة أنّها ستقدّم لها الطعام. أحيانًا، كانت هَيا تساعد سيّاس حسن على إعداد وجباتها الصباحيّة، فتخلط الشعير المغليّ مع البرسيم.

«ما رأيكِ أن تتوظّفي هنا، سموّك؟»، قال لها رئيس السيّاس ذات يوم. «فأنا أحتاج إلى شخص إضافيّ يساعدني هنا، وأنت تأتين كلّ يوم مع صياح الديك.»

كان سانتي غالبًا ما يأتي للاطمئنان على بري. ذات يوم، وصل بعد الظهر إلى إسطبلات البولو، وهو يجرّ عربة نقل الأحصنة خلف سيّارته. «تعالي وانظري، تيتش!»

كانت الفرس التي أنزلها من المقطورة كبيرةً، بيضاء بالكامل، جسمها خالٍ من البقع الرماديّة. قوائمها ورقبتها نحيفة، لكنّ بطنها يبدو ضخمًا، نافرًا من الجهتين.

«هل هي لي؟»

«كلّا»، قال سانتي. «هي للمهرة. لقد قدْتُ مسافة طويلة حتّى وادي رم لجَلْبها. إسمها لطيفة. ستكون فرس بري المرضعة.»

ربّت سانتي رقبةَ الفرس. «لقد وَلَدَتْ مهرًا لكنّه مات. أترين كيف أنّ ثدييْها متضخّمان من كثرة الحليب فيهما؟ بإمكانها أن تكون أمًّا لبري.»

«لكنّني أعرف كيف أطعمها»، قالت هَيا بنبرة دفاعيّة. «أستطيع أن أعتني بها وحدي.»

لمح سانتي نظرة ألم في عينَي الفتاة فقال لها: «تيتش، أعرف أنّك بذلتِ كلّ ما في وسعك خلال الأيّام الماضية. لو لم تهتمّي ببري بكل هذا التفاني، لما كانت بقيت على قيد الحياة. إنّها تكبر على يديك. باعتقادي، أنتِ بمثابة أمّ لها الآن. وهذا أمر رائع...».

تَرَدَّدَ سانتي قبل أن يكمل: «...لكنّه لا يخلو من الخطورة. فالمهر يتعلّم قواعد السلوك من أمّه، ويتيمة مثل بري قد تصبح متسلّطة وعدوانيّة بعض الشيء».

«لكنّني أُلقِّنها قواعد حسن السلوك»، قالت هَيا بإصرار، «وهي تسمع الكلمة. ترفع حوافرها وتدعني أنظّفها».

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«هَيا»، قال سانتي، «أنت تقومين بعمل ممتاز، لكنّ هناك بعض الأشياء التي لا يمكن إلا لفرس أن تعلّمها لمهرة. ماذا ستفعلين إذا ما قرّرت بري أن تنقضّ عليك وتركلك بقوائمها الخلفيّة فقط لأنّها تريد المزيد من الحليب؟ الفرس ستعضّها في هذه الحالة، وستردّ لها الرفسة فورًا، لتعرف حدودها في المرّة المقبلة. المهرة تكبر بسرعة. قريبًا جدًّا ستصبح أكبر منك وعاداتها الصغيرة التي كنت ترينها ظريفة قد تصبح خطرة عليك».

كانت هَيا قد بدأت فعلًا تشعر بذلك التحوّل، لكنّها أبت الاعتراف بذلك. فقد أصبحت المهرة، وهي تتناول الحليب، تشدّ على القنّينة بقوّة تجعل من الصعب على هَيا أن تظلّ ممسكة بها. كلّ هذا وعمرها لم يتجاوز بعد الأسبوع! تخيّل إذًا حين تكبر وتصبح أقوى، كيف ستتمكّن من إطعامها حينذاك؟ إذا كانت هَيا هي الأمّ، كما يقول والدها، فعليها إذًا أن تقوم بما هو الأفضل لبري.

«أوكي»، قالت غصبًا عنها.

توقّعت هَيا أن يضع سانتي لطيفة في المربط ذاته مع بري، إلّا أنّه لم يفعل، بل قاد الفرس نحو المربط المحاذي. «سنقوم بذلك بهدوء ورويّة»، قال لهَيا. «هكذا، نقلّل احتمالات انقضاض الفرس على المهرة.»

انقضاض الفرس على المهرة؟ لم يذكر سانتي ذلك من قبل!

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

تابعت هَيا بقلق اقتراب لطيفة من قضبان الطاقة الصغيرة الفولاذيّة التي تفصل بين المربطين. بإمكان الفرس أن تشمّ المهرة من هناك. أقحمت بين القضبان خطمها النحيل بفُتحتَيْ أنفها اللتين توسّعتا، وأخذت تصدر أنفاسًا متقطّعة، على شكل نخير مُستكشِف، فضوليّ ومتكرّر.

في الناحية المقابلة من الجدار، كانت بري قد وقعت في الغرام. اقتربت أكثر لتنظر من الطاقة. ثمّ، من دون أن تحرّك قوائمها، مدّت رقبتها، ثمّ خطمها لتقترب أكثر من لطيفة. شمّت الفرس. وفجأة، بدأ ذنبها يهتزّ بسرعة من الفرح. أخذت بري تصهل بحماسة وكأنّها تناشد الفرس لتأتِيَ إليها، فشعرت هَيا بانقباض في معدتها. مسكينة... كم ستشعر بالتعاسة إذا ما صدّتها الفرس!

«سانتي؟»، كان صوت هَيا يرتعش من القلق. «ماذا لو رَفَضَتْها لطيفة؟»

تقدّمت لطيفة خطوة في اتّجاه المهرة، وحين تلاقى خطماهما أطلقت الفرس كريرًا عميقًا. ثمّ، فجأة، تملّكها الغضب، فانخفضت أذناها وأطلقت شخيرًا متوحّشًا، وانقضّت على المهرة بضربة خاطفة وغير متوقّعة من إحدى قائمتيها الأماميّتين!

«بري!»، صرخت هَيا بذعر وهي تحاول فتح باب المربط لتصل إليها، لكنّ سانتي أوقفها. «هي بخير. ليس بإمكان الفرس أن تؤذيها من وراء الحائط.»

لم تقتنع هَيا، لكنّها رضخت لسانتي وانتظرت، حابسةً أنفاسها، بينما كانت لطيفة تتقدّم مجدّدًا لتشمّ المهرة من خلال الطاقة. بمعجزةٍ ما، بدا وكأنّ أحاسيس الفرس تبدّلت... عادت أذناها وانتَصَبَتا مجدّدًا وبدأت بإطلاق حَمْحَمات حنونة، وهي تداعب المهرة بأنفها من خلال القضبان.

«لقد أحبّتها!» كادت هَيا تبكي من الارتياح.

لكنّ سانتي لم يتسرّع. ترك الفرس والمهرة تتابعان عمليّة التعارف من خلال القضبان لوقتٍ بدا دهرًا، قبل أن يُغَمْغِم معبّرًا عن رضاه وينقل لطيفة إلى مربط بري.

راحت الفرس والمهرة تشتمّان إحداهما الأخرى، ثمّ كانت هناك تلك اللحظة. لحظة التلاقي القويّة حين وضعت المهرة رأسها تحت بطن الفرس للمرّة الأولى، باحثة عن ثديها. كانت هَيا قلقة من أن تشرئبّ الفرس وتصبح شريرة فجأة. إلّا أنّ لطيفة ظلّت واقفة لا تتحرّك فيما بري تتحضّر بحماسة لتناول وجبتها. وما إن تدفّق الحليب حتّى بدأ ذنبها بالدوران.

نظر سانتي إلى هَيا، ففاجأتْهُ الدموع التي رآها تسيل على خدّيْها.

«ما بكِ؟ تيتش؟»

مسحت هَيا دموعها بسرعة، وهي تهزّ رأسها مُحرَجة.

«ما الأمر؟»، سأل سانتي بإصرار.

«بنت الريح لم تعد تحتاج إليّ. لديها أمّ جديدة الآن.»

ضحك سانتي. «هَيا، بنت الريح لديها فرس مُرْضِعة تؤمّن لها الحليب الذي تحتاج إليه، لكنّها ستحتاج إليكِ أكثر ممّا تتخيّلين خلال نُموِّها. مَن غيرك سيعلّمها كيف تقف بلا حراك حتّى يتمّ تنظيفها، أو كيف تصعد إلى مقطورة نقل الأحصنة، وكيف تتناول طعامها من الوعاء وتضع السرج واللجام وتحمل فارسًا على ظهرها؟ هذه المهرة لديها الكثير لتتعلّمه وأنتِ مَن سيعلّمها كلّ شيء.»

كان يبتسم أمام مشهد المهرة وهي ترضع من الفرس. «لم يتمّ استبدالك. لقد حظيتِ فقط ببعض المساعدة، هذا كلّ ما في الأمر.»

قضَت لطيفة تلك الليلة مع بنت الريح في مربطها. وللمرّة الأولى منذ أسبوع، أمضت هَيا ليلتها في سريرها في الندوة. بدا الفراش ناعمًا، وكانت رائحة برتقال خفيفة تفوح من غرفتها. ورغم أنّ فرانسيس أجبرتها على حلّ واجب الرياضيّات وعلى عزف الكمان لساعة كاملة قبل العشاء، شعرت بالسعادة لعودتها إلى المنزل.

*

فرضت فرانسيس قواعد جديدة في القصر. بالنسبة إلى المربّية، كان من غير المقبول أن يتجوّل الأولاد في جميع أرجاء المنزل. هكذا، ومن دون سبب واضح، أصبح فجأة الدخول إلى غرفة مكتب بابا ممنوعًا.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«والدك يحتاج إلى بعض الخصوصيّة ليعمل»، قالت فرانسيس. «مكتب الملك ليس مكانًا للّعب. هو مليء بالأوراق المهمّة.»

لكنّ فرانسيس لا تستطيع أن تراقب ولا أن تحرس طوال الوقت. في الصباح، حين كانت تغيب، كانت هَيا وعلي يتسلّلان إلى داخل غرفة المكتب ويمشيان على رؤوس أصابعهما فوق سجّادة الفرو. تحت طاولة المكتب، حيث لا يمكن أن تصل عَيْنا فرانسيس، كان هناك مكان سرّيّ يتركان فيه الرسائل لبابا. أحيانًا، كان هو أيضًا يترك لهما فيه الرسائل. هم مثل عملاء سرّيّين يمرّرون الرسائل أحدهم للآخر، وفرانسيس هي العدوّ.

في ذلك اليوم، كانت الرسالة إلى بابا ورقة لونها زهريّ ومُخربَش عليها بقلم خطّاط ثلاث كلمات فقط: «هَيا تحبّ بابا».

دسّت هَيا تلك الرسالة في كمّ قميصها وعبرت الرواق حافية. خارج مكتب والدها، توقّفت وانتظرت، مُنْصِتَةً إلى وقْع أقدامٍ تقترب، ثمّ اسْتَرَقَتْ نظرة خاطفة ناحية المطبخ. لا أحد. عندها، مدّت يدها نحو مسكة الباب. دخلت المكتب وأقفلت الباب وراءها.

كانت الغرفة معتمة، يخيّم عليها السكون، وبَدَتْ جُزَيْئِيّات الغبار واضحة وهي تطفو في ضوء الصباح المتسلّل من النوافذ على طول الجدار الشرقيّ.

شعرت هَيا بوَخْزٍ في أخمص قدميها الحافيتَين وهما تلامسان سجّادة الفرو فيما تقدّمت بصمت نحو طاولة مكتب بابا. وضعت

الرسالة في مكانها وكانت تهمّ بالخروج عندما وقع نظرها على التمثال. كان رابضًا على قاعدة بجانب النافذة. كان صقرًا بالحجم الطبيعيّ ومصنوعًا من البرونز. بدا أملس وقويًا، يتلألأ ريشه البرونزيّ تحت شعاع الشمس، ويرفع رأسه عاليًا بشموخ وتكبّر.

اقتربت هَيا من التمثال تتفحّصه. كانت قد أصبحت على بُعد عدّة أمتار منه حين مدّت يدها لتلمسه، ثمّ تجمّدت مكانها. لقد غَمَزَها!

الطائر حيّ! والآن، أصبحت العينان العنبريّتان مصوّبتين نحوها وكأنّها فريسة.

بهدوء، بدأت هَيا بالتراجع. وبينما كانت تقوم بذلك، ثبّت الطائر الضخم نظره عليها، وهو يميل برأسه، مترقّبًا حركتها التالية. شعرت هَيا بقلبها ينبض بشدّة. هل سينقضّ عليها إذا ما حاولت الهرب؟ تراجعت أكثر بعد، بهدوء ما بعده هدوء، وكانت على وشك أن تصل إلى الباب حين فتحه بابا فجأة. «بابا!» كانت خائفة إلى درجة نسيت أنّه من غير المسموح لها بأن تكون هنا أصلًا. «تمثالك الجديد يريد أن يأكلني!»

ضحك الملك وقال: «أرى أنّك قابلت أخبار». عندما سمع صوته، تحرّك الطائر فجأة نافضًا جناحيه، وأطْلَقَ صيحة قويّة.

تقدّم الملك نحو الصقر، ثنى مَرْفَقَيْهِ كشابّ يدعو صبيّة إلى رقص الفالس. «أخبار!»

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

بتصفيقة واحدة وأنيقة من جانحيْه، نزل أخبار برشاقة عن مربضه وقفز على ذراع الملك. نظرت هَيا إلى والدها وهو يربّت الطائرَ ويمرّر أصابعه على شكل خطّ بين عينيه الوحشيّتين.

«أخبار سيرافقنا اليوم.»

*

ركبوا الجيب ورافقهم موكب من أربع آليات عسكريّة مُمَوَّهة مكشوفة، تعلوها قضبان حديد. ركب في الجيب الأوّل ثلاثة جنود من الحرس الملكيّ ببزّاتهم العسكريّة. وفي الجيب الثاني جلس الملك في المقعد الأماميّ إلى جانب سائقه. «أخبار» أيضًا ركب في المقدّمة، على كتف الملك. كانت ساقا الصقر مربوطتين بحزام بينما غطّى رأسَه بُرقعٌ أخفى عينيه، فلم يَعُدْ يظهر من وجهه سوى منقاره الحادّ كالسيف.

على المقعد الخلفيّ، جلست هَيا وعلي. تَلَثَّمَ علي بكوفيّته تمامًا كما يفعل الجنود، فلم يَعُدْ يظهر من وجهه سوى عينيه المحدّقتين إلى وهج شمس الصحراء. تمنّت هَيا لو أن لديها هي أيضًا كوفية تغطّي بها وجهها لأنّ الغبار كان يتطاير ويلفّهم، كلما تقدّموا أكثر، بغيْمة من الرمل الناعم المتفتّت.

كان معهم راكب خامس في تلك السيّارة، كلب سلوقيّ أصيل، فروته حريريّة الملمس ورماديّة اللون، يشبه كلاب الصيد التقليديّة، إلّا أنّه يفوقها حجمًا. ظلّ الكلب السلوقيّ طوال الرحلة جالسًا في

مكانه، وخطمه يرتعش فيما يتنشّق الهواء. شعرت هَيا بالقلق. ماذا لو حاول السلوقيّ أن يعضّ أخبار؟ إلّا أنّ السلوقيّ، الغارق في تأمّل الأفق، بدا غير مهتم أبدًا بالصقر.

لم يسلكوا طرقًا عاديّة في ذلك اليوم، بل اتّبعوا مسارًا وعِرًا ومحفَّرًا يعتمده البدو الرحّل. أحيانًا، كانت الرمال تصبح ناعمة، وكأنّها رمال متحرّكة، فتنغرس إطارات الجيب وتغوص فيها. وفي أحيان أخرى، كانت الطريق تصبح وعرة وصخريّة فتضطرّ هَيا إلى التمسّك بالمقعد بكلتا يديها حتى لا تُقذَف في الجوّ.

توغّلوا أكثر فأكثر في الصحراء، ثمّ لمحت هَيا في الأفق جسمًا كبيرًا أسود ينبثق من الرمال.

مع اقترابهم أكثر، اكتشفت هَيا أنّها خيمة من خيام البدو، ورأت رجال قوّات البادية يخرجون من بابها لاستقبالهم. كان الضابط المسؤول رجلًا وسيمًا، منحوتَ السِّمات. تعرّفت إليه فورًا. إنّه الرائد جعفر، الرجل الذي أحضر لولابيل وفلافي إلى القصر يوم عيد ميلادها.

«جَلالَتُكم.» انحنى الرائد أمام الملك بِتَبْجيل. «أتمنّى أن تكونوا قد قمتم برحلة ممتعة.» ثمّ أشار إلى جِمال قوّاته الصحراويّة المربوطة بحبال قرب الخيمة، والمزيّنة بأسرجة ملوّنة تتدلّى منها شرّابات، قائلًا: «الجمل هو أفضل وسيلة للتنقّل في الصحراء».

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بينما كان رجاله يقومون بالتحضيرات اللازمة للرحلة، دعا الرائد جعفر الملك ومرافقيه للدخول إلى الخيمة. هناك، قدّم للجميع شايًا أسود مغليًّا لا يزال يحمل طعم الجمر من النار المتّقدة تحته، أضافوا إليه الكثير من السكّر لتحليته. تربّعت هَيا وعلي على الوسادات يحتَسيان الشاي فيما كان الملك يتحدّث مع الرائد جعفر. لاحظت هَيا كم بدا بابا سعيدًا هنا، بين رجاله. إنّه ابن الصحراء عن حقّ.

كان أحد البدو يراقب هَيا وعلي وهما يحتسيان الشاي. هو جنديّ من جنود البادية يرتدي زيًّا مثل زيّ رفاقه، بالخنجر المعقوف على الخصر وحمّالة البندقيّة على الظهر. فيما كانا يُكملان القدح الثاني من الشاي، اقترب منهما وسأل هَيا: «هل ترغبين في رؤية جملَيْك؟». كان صوته خشنًا لكنّ عينيه في غاية اللطف. أومأت برأسها أن نعم.

«تعالي معي.»

كانت الجِمال متراصفة، مربوطة بحبال طويلة طرفها مغروس في الرمال. كانت سيقانها مقيّدة بأحزمة جلديّة وعلى ظهورها أسْرِجَة أُرخِيَت أحْزِمَتُها حتّى لا تزعجها. حدّقت الجمال للحظة إلى هَيا وعلي، ثمّ تابعت مضغ الحنطة التي تتناولها من أكياس الطعام المعلّقة برقبتها.

كانت لولابيل الرابعة في ذلك الصفّ من الجِمال، يلتصق بها فلافي. لقد أصبح كبيرًا ويتناول الطعام من كيسه الخاصّ، رغم

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أنّ الكيس لا يزال يغطّي وجهه بالكامل تقريبًا، فلا يظهر منه سوى عينين بنّيتين واسعتين ورموش خافقة طويلة.

«على فكرة، هَيا، الجِمال لديها ذاكرة جيّدة»، قال البدوي. «هي تعرف أنّها ملكك.» ثمّ أشار إليها بالاقتراب. «تعالي، بإمكانك أن تلمسيها. هي غير خطرة. الجِمال لا تعضّ حين يكون كيس الطعام بحوزتها.»

لاحظت هَيا أنّ البدويّ لا يقول «سموّكِ» حين يخاطبها. لا يستعمل لقبها كما يفعل الباقون، يناديها باسمها فقط. أعجبها ذلك. ما ألطفه وهو يناديها هَيا كما لو كان يخاطب ابنته! يطمئنها ذلك ويُشعِرها، وهي في وسط الصحراء، بأنّها في منزلها. أصلًا، هي في منزلها هنا، أوليست بدويّة بدورها؟

«هاي، فلافي.»

ربّتت هَيا فروةَ الجمل الناعمة والبنّيّة بلون الكراميل. كم يختلف هذا الجَمَل عن بري. وجهه مخمليّ، لكنّ شعره مشعّث ومتصلّب ومتداخل، ينبت بعشوائية من كلّ مكان. ثمّ لديه تلك العينان الهائلتان البنّيّتان المزيّنتان برموش طويلة لمواجهة جنون العواصف الرمليّة.

«هَيا!»

إنّه صوت علي. رفعت رأسها. ولكنْ، حين انحنت لتبحث عنه تحت صفّ الجمال، لم تجده في أيّ مكان.

«علي؟»

لا شيء. صمت.

«علي، أين أنت؟»

تركت هَيا فلافي ولولابيل وبدأت تمشي بمحاذاة صفّ الجِمال.

يا لعلي ولحيَله! لا شكّ في أنه مختبئ، تُراه استلقى قرب أحد الجِمال الضخمة؟

ظلّت تبحث عنه وهي تروح وتجيء. لا أثر لعلي. بدأت تقلق.

«علي؟»

ثمّ سمعت ضحكة مكتومة بدت كأنّها صادرة عن أحد الجِمال. أنصَتَتْ هَيا جيّدًا وهي تتنقّل ببطء من جمل إلى آخر. حين وصلت إلى منتصف الصفّ، سمعت ضحكة أخرى. الصوت مكتوم، لكنّها تستطيع تحديد مصدره الآن. ها هو!

فوق كلّ سرج من أسرجة الجِمال، هناك خرجٌ كبير، مصنوع من قماش ملوَّن بألوان فاقعة، يسع كلّ ما قد يحتاج إليه البدويّ طوال أشهر سيقضيها في الصحراء. دقّقت هَيا النظر، فلاحظت أنّ أحد تلك الخِرَجَة يتنفّس.

«علي؟» لكزت هَيا الخُرْجَ بإصبعها، فتحرّك فجأة وبدأ يتلوّى.

«أُخرج، أعرف أنّك هنا.»

لكزت هَيا الخُرْج مجدّدًا، فبرزت منه لبْدة من الشعر الكثيف الداكن وعينان.

«تعالي نلعب الغمّيضة»، قال علي.

قَضَيا وقتًا طويلًا وهما يلعبان بين الجِمال. ثـمّ، حين شعرا بالعطش، قَصَدا الخيمة مجدّدًا لاحتساء المزيد من الشاي، فاستمعا إلى الرجال يسردون حكايات المعارك التي خاضوها. الصحراء مكانٌ قد يكون خطيرًا، يعجّ بقطّاع الطرق، وتلك الخناجر والمسدّسات التي يحملها عناصر قوّات البادية ليست للاستعراض فقط. تابعت هَيا وعلي تلك الحكايات بعيون متّسعة وأنفاس محبوسة، إلى أن وقف والدهما والرائد جعفر وأشارا إلى الرجال بالتحرّك. لقد حان الوقت.

اختفت أكياس الطعام عن وجوه الجِمال واستُبدلَت بألْجِمَةٍ ملوّنةٍ على رؤوسها. كان أحد البدو منهمكًا في إحكام سرج لولابيل.

«إنّها جاهزة وبانتظارك، هيَا»، قال لها.

اقتربت هَيا من الناقة التي نَقَرَها البدوي بعصاه خلف ركبتها نقرًا خفيفًا. «كوش، لولابيل»، أَمرَها، «كوش».

نهقت لولابيل معترِضَةً ورفضت أن تربض، لكنّ البدويّ كان حازمًا. «كوش!»

راحت لولابيل تئنّ باستسلام، ثـمّ أرخـت ركبتيْها وخفضت أردافها استعدادًا لأن تمتطِيَها هَيا.

لم تركب هَيا جملًا في حياتها. سرْجُه ليس كأسرجة الخيول. فهو مصنوع من الخشب القاسي وعليه مقبضان عاليان، واحد من الأمام، والثاني من الخلف، يجلس الراكب بينهما على قطعة من جلد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الماعز المكسوّ بشعر كثيف ومجعّد. جلست هَيا. فوجئَت حين اكتشفت كم هو مريح. أمسكت بالمقبض الأماميّ بيد وبالحبل بيدها الأخرى، ثم ربّتَ الجندي جنْبَ لولابيل، فهبّت الناقة واقفة. صاحت هَيا تحت وقْع المفاجأة. لقد وجدت نفسها فجأة على علوّ مترين من الأرض تقريبًا.

«استخدِمي الحبل أو العصا لتوجيهها. ربّتي جنْبَها لحثّها على التقدّم»، قال الرائد جعفر. ومن دون المزيد من الشرح، انطلقوا. كان الملك والرائد جعفر يتقدّمان الموكب، ولولابيل في آخره، خلف كل الجِمال، مع فلافي يسير طليقًا خلفها.

الجِمال تتهادى بمشْيتها، ركوبها يشبه ركوب قارب يطفو على غير هدى في الماء، فيهتزّ يمينًا وشمالًا، إلى الخلف وإلى الأمام. وذلك مختلف تمامًا عن ركوب الخيل. خطوات الجمل الواسعة تبدو متثاقلة وهي تمشي ببطء عبر الرمال. مع ذلك، تقدّم الموكب بشكل لا بأس به، ليصل إلى عمق الصحراء، بعد أن تسلّقت الجِمال دروبًا صخريّة ليس بإمكان الجيب اجتيازها.

فيما كانوا ينحدرون عن إحدى التلال، اتّسعت الصحراء تحتهم وامتدّت إلى حدود المملكة مع سوريا المجاورة. كانت هَيا تحدّق إلى المنظر الجافّ والملوَّح بالشمس وترى... لا شيء. فقط رمال وصخور، والمزيد من الصحراء، حتّى الأفق.

كان الصقر مستقرًا على كتف الملك، وكأنّه هو أيضًا يمسح الأفق بنظرته – مع أنّ ذلك مستحيل، فالبرقع لا يزال يغطّي عينيه.

فجأة، تحرّكت كومة الأعشاب أمامهم. انتبه الملك، فأشار إلى الموكب بالتوقّف. ثم تقدّم وحده، مع أخبار على كتفه وعنبر، الكلب السلوقيّ، بجانبه على الرمال. حين أوقف الملك جَمَلَهُ، رَقَدَ عنبر مطيعًا وتسمّر في مكانه. انتظر بصبر بينما رفع الملك أخبار ووضعه على قبضته، ثمّ نزع برقعه.

رفع أخبار عينيه نحو السماء الزرقاء، ثمّ جال بنظره على تضاريس الصحراء.

مهما كان ما يتحرّك هناك، فإنّ هَيا تعجز عن رؤيته. ففي النهاية، عينا الفتاة لَيْسَتا كعَيْنَيْ صقر. لقد رَصَدَ أخبار فريسته: أرنب برّي يتحرّك على بعد عدّة أمتار.

ذات مرّة، خلال حديث دار بينهما، أخبرت هَيا والدها كم إنّها تكره الصيد. «إنه فعلٌ عنيف»، قالت له. «الفريسة المسكينة تُقتل في النهاية.»

«هذا ما فعله البدو، أجدادنا، لقرون مضت»، أجابها الملك يومها. «الصيد ليس رياضة نمارسها، هَيا، إنّه تقليد، إنّه أسلوب حياة.»

«ولكن أصبح لدينا سوبرماركت الآن»، أشارت له هَيا. «بإمكاننا شراء الطريدة من هناك.»

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«وكيف تصل الطريدة إلى السوبرماركت برأيك؟»، سألها والدها.

حمل الملك أخبار عاليًا، ثمّ أطلقه. بخفقتين قويّتين من جناحيه، ارتفع الصقر ومضى. ظلّلت هَيا عينيها بكفّيها، وتأمّلته وهو يحلّق فوق الصحراء، وقد بَسَطَ جناحيه على وسعهما.

لفّ الصقر ودارَ، ثمّ راح ينخفض شيئًا فشيئًا، لكنّه فَقَدَ الفريسة. لقد اختفت. اختبأت في مكانٍ ما. ستنتظر هناك جاثِمةً، ولن يتمكّن الصقر من إجفالها. ولكن ما يعجز الصقر عن عمله، يقوم به عنبر. سرعان ما اكتشفت هَيا ذلك، إذ بمجرّد أن سمع صفّارة الملك، وثب السلوقيّ، الذي كان رابضًا بصمت عند قوائم الجمل، وشبّ على مخالبه المخمليّة الرشيقة مثل غزال. في غضون ثوانٍ، وصل إلى الأجمّة، وما إن شمّ رائحة الطريدة حتّى بدأ بملاحقتها. ظهر الأرنب مجدّدًا، راكضًا في العراء. عندها، انخفض أخبار وهبط، بعد أن أصبح هدفه في مرمى نظره.

بعد أن شعر بالخطر الآتي من السماء، قفز الأرنب إلى الأمام، وتكفّلَت وركاه القويّتان بتسريع وثباته. لاحَقَهُ عنبر، لكنّ الأرنب كان أسرع منه. اندفع بسرعة البرق إلى الأمام، محاوِلًا بجنون الهروب من درب السلوقيّ. لم يركض في خطّ مستقيم، بل كان يُمَوّه مساره ويُراوغ آملًا إرباكَ كلب الصيد حتّى يتسنّى له الاختباء مجدّدًا.

لو كان السلوقيّ وحده في عمليّة الصيد هذه، لكان بإمكان الطريدة إرباكه بالتفافاتها. ولكن، عاليًا فوقهما، كان هناك أخبار،

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الصقر، يلاحقها بدوره. وكلّما غيّرت الطريدة اتّجاهها، كان أخبار ينقضّ نزولًا فوقها مباشرة، فيعطي الكلب علامة ليتبع الطريق الصحيحة.

كانت الطريدة تلفّ وتدور، لكنّها بدأت تتعب. فهي معتادة التغلّبَ على عدوّها بكثير من الذكاء وقليل من نوبات السرعة. كان بإمكانها أن تعاود الاختباء، لكنّ وجود الصقر فوق رأسها في السماء وحِصار الكلب لها على الأرض أنْهَكاها.

كان عنبر في طريقه إلى الفوز، وكلّما حاولت الطريدة قلبَ المعركة لمصلحتها، كان يزيد سرعتَه، فتصغر المسافة بينهما أكثر فأكثر. في لحظة خاطفة وسريعة، أصبح السلوقيّ فوق الطريدة. بحركة واحدة، التَقَطَها بين فكَّيه القويّين وهزّ رأسه برجفة غريزيّة ليكسر رقبتها في الحال.

بصفرة حادّة، نادى الملك كلب الصيد ليعود إليه، وتأمّلت هَيا السلوقيّ وهو يُسقط الفريسة من بين فكَّيه ويعود بانصياع نحو سيّده.

في السماء، كان أخبار يهبط باسطًا مخالبه إلى الأمام. من دون أن يلامس الأرض، انخفض الصقر بما يكفي لالتقاط جسد الفريسة الرخو بمخالبه، ثمّ بثلاث خفقات هائلة من جناحيه القويَّين، حلّق مجددًا في السماء والفريسة تتدلّى تحته.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كان وزن الفريسة تقريبًا من وزن أخبار، فكان عليه أن يخفق بجناحيه باستمرار حتّى يظلّ في الجوّ. كان عنبر يركض بسرعة فائقة، لكنّ سرعة الصقر لا يُستهان بها أيضًا. ما إن وصل الكلب إلى الملك حتّى دوّت صيْحة من فوق. حطّ الصقر على الأرض ورمى الفريسة عند قدمَيْ سيّده.

في تلك الليلة في القصر، تناول بابا وهَيا وعلي يخنة الأرنب البرّيّ على العشاء.

الفصل التاسع

مسز غودار والدبّابتان

شرح سانتي لهَيا كيف يتمّ فطْم المهرة، وحين بلغت بنت الريح ثمانية أشهر من العمر، قال سانتي إنّ الوقت قد حان.

قاموا بذلك باكرًا ذات صباح. بذلت هَيا كلّ ما في وسعها لإلهاء بري فيما كان سانتي يُحمّل لطيفة في عربة نقل الجياد. كان كلّ شيء يسير على ما يرام إلى أن بدأت العربة بالتحرّك، فأطلقت لطيفة صيحة مدوّية.

«لا عليكِ بري. أنا هنا. ششششش...» حاولت هَيا طمأنة مهرتها المرعوبة، لكن من دون فائدة. ارْتَطَمَ جسد بري بباب الإسطبل وهي تحاول الخروج، في محاولة يائسة للعودة إلى أحضان الفرس الرماديّة. ملأت حَمْحَماتها المسعورة الجوّ لشدّة ما كانت تبكي. وقفت هَيا عاجزة، وقد أدركَت أنّها لا تستطيع القيام بشيء للتخفيف عن مهرتها.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حين عاد سانتي، وجد بري غارقة في عَرَقِها، وصدى بكائها الحزين لا يزال يتردّد في الباحة، بينما اتكأت الأميرة على باب المربض ودموعها تنهمر على وجهها.

«امسحي دموعك، تيتش»، قال لها سانتي بحزم. «أنت في موقع المسؤوليّة، لا تنسي ذلك. أحيانًا علينا أن نقوم بما هو أفضل لخيولنا، ولو كان ذلك مؤلِمًا.»

«لكنّ ذلك في منتهى القسوة»، قالت هَيا. «أنظر إلى حالها!»

«حسرتها لن تدوم»، قال لها سانتي مطمئنًا. «الخيول أوفر حظًا منّا. تعيش في الحاضر، ولا تحتفظ بالذكريات كما نفعل نحن.»

وبالفعل، ما إن انقضى يومان حتّى بدت بري راضية ومسرورة وحدها في مربطها، تتناول البرسيم تمامًا مثل خيول البولو الأخرى البالغة.

بعد أن فُطمت عن الحليب، وبدأت تتناول الطعام الصلب، راحت بري تكبر بسرعة. هَيا أيضًا كانت تكبر. كان صدى ضحكاتها وغنائها يتردّد في الإسطبلات، وهي تعمل بمرح ودون كللٍ مع السيّاس.

«ماذا حلّ بفتاتنا الصموتة؟»، كان سانتي يسألَها مناكفًا. «لم نعد نعرف كيف نُسكِتك الآن!»

*

حين تساقط الثلج لأوّل مرة، اصطحبت هَيا بري إلى الباحة. كانت تريد أن تختبر ردّ فعلها. فهي تذكر كم كانت أمينة تكره الإحساس

بندف الثلج على وجهها، وكيف كانت تدسّ رأسها في معطف هَيا لتمسحها عنه. على عكسها، تحمّست بري وهما في طريقهما إلى الخارج، وراحت تنخر وتدوس على كتل الثلج المتساقط وكأنّها تحاول أن تسحقها تحت حوافرها.

أخذتها هَيا نحو ساحة البولو وأطلقتها لتمدّد قوائمها. حين أرخت حبْلها، خبّت بري إلى وسط الباحة ثمّ توقّفت فجأة. تشمّمت الثلج، وحاولت استكشافه بحوافرها. حفرت حفرة صغيرة، قبل أن تُرْخي رُكبَها وترمي بنفسها على الأرض. وقفت هَيا تتأمّل المهرة وهي تهَمْهِم بمرح، رافعةً قوائمها في الهواء، متلذّذةً بملمس الثلج البارد على ظهرها. قد تكون بري ورثت بعض ملامح والدتها، لكنّها بالتأكيد ليست نسخة مطابقةً عنها.

خلال الشهور الباردة التي مَضَتْ، ازدادت كثافة فروة بري وسماكتها فبَدَتْ المهرة كدُمْيَةٍ محشوّة، ولكن، ما إن بدأ الثلج بالذوبان حتّى أخذت فروتها تطرح. ومثل أمينة، كلّما نظّفتها هَيا، كانت كتل كبيرة من الشعر تتساقط منها، ليظهر تحتها الجلد الصيفيّ اللمّاع. لقد أصبحت مهرتها قويّة ومفتولة العضلات.

رغم أنّ بري لم تتمّ السنتين من عمرها بعد، بدت بنيتها كبنية فرس وثّابة. بردفَيْها المستديرين وكتفيْها القويّتين، بدت ممتازة لخوض قفز الحواجز. كم تودّ هَيا لو تقفز على ظهرها وتعدو بها عبر الصحراء، والهواء يلفح وجهها!

«لا تـزال بـري غير جاهزة للترويض»، قال لها سانتي. «لِمَ لا تمتطين فرسًا أخرى؟»

«لا أريد فرسًا أخرى. أريد فرسي أنا.»

«أنا أفهمك تمامًا، تيتش»، قال لها. «لكنّ مهرتك يجب أن تحظى بالوقت الكافي لتنضج. سيمرّ عام آخر قبل أن تتمكّني من ترويضها وإلباسها السرج. أثناء ذلك، استفيدي لتصبحي فارسة. هكذا تكونين مستعدّة لها عندما يحين الوقت.»

«أيّ حصان سأمتطي إذًا؟»، سألت هَيا.

أجابها سانتي: «سنخصّص لك إحدى الدبّابتين.»

كانت الدبّابتان تعيشان في إسطبلات الحُمُّر. هما من نوع البالومينو الذهبيّ. تلقّاهما الملك من أميركا كهديّة.

وصل حصانا البالومينو إلى الأردن، منذ سنوات عديدة، عبر البحر، إلى ميناء العقبة. حين رَسَت السفينة، كان قد مرّ عليهما وقت طويل وهما واقفان في قفص الشحن على سطح المركب. بالكاد تمكّنا من تحريك قوائمهما، فقرّر سانتي رفعهما فوق الدرابزين وتركهما يسبحان حتّى الشاطئ.

في المياه المالحة، استرخت أطراف الحصانَين، فتمكّنا من شقّ طريقهما عبر الأمواج. ما إن وصلا إلى البرّ حتى تحلّق السيّاس حولهما على الشاطئ منبهرين. في حياتهم لم يروا مثل هذين الخيليْن. كان حصانا البالومينو ممتلئَي الجسم، قويَّي البنية، قوائمهما غليظة

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وجسد كلّ منهما ضخم كالبرميل. مقارنةً مع خيول الحُمَّر العربية ذات القوام الرشيق والعظم الرقيق، كانا هائلين.

«هذان ليسا خيليْن!»، صرخ أحد السياس مستهجنًا، «هاتان دبّابتان!» وهكذا، اكتسب حصانا البالومينو لقبهما.

حظيَت كلّ دبابة بمربطها في إسطبلات البولو. دبّابة لهَيا والأخرى لابنة الأمير حسن، الأميرة بديعة. أمّا علي، فكان الفحل داندي من نصيبه. كلّ ما ينقصهم الآن مدرّب.

«إسمها مسز غـودار»، قال الأمير حسن للملك. «هي سيّدة بريطانيّة انتقلت إلى الأردن منذ فترة وجيزة مع زوجها. وهي فارسة خبيرة من الدرجة الأولى وقد عرضت خدماتها.»

في صباح درس الفروسيّة الأوّل، أسرجت هَيا وبديعة وعلي خيولهم بمساعدة سيّاس الأمير حسن.

كانت بديعة من سنّ هَيا. فتاة رقيقة، عيناها كبيرتان وشعرها كثيف أسود كالفحم، طويل حتّى خصرها. طفلة مهذّبة ولطيفة، أميرة بكلّ ما للكلمة من معنى. بينما كانوا ينتظرون، أخذت بديعة تجدل غُرف البوني الذي ستمتطيه، في ضفائر جميلة. كلّما ضحكت، فكّرت هَيا كم إنّ حتّى ضحكتها رائعة، وكأنّها الخرير الصافي والشفّاف لجدوَلٍ منساب.

«أين مسز غودار تلك؟!»، قالت هَيا متنهّدة. فقد ملّت الانتظار. تريد أن تركب الخيل.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

«لِمَ لا نركب وحدنا؟»، اقترحت على بديعة. «أستطيع أن أرفعك على يدي إذا أردتِ.»

«أوكي»، قالت بديعة موافقة.

تناولت هَيا لجام البالومينو ووضَعَتْه على عنق الحصان. ثمّ أمسكت بديعة من ساقها ودفعَتْها بقوّة عاليًا فوق السرج. للأسف، لقد أمسكت بالساق الخطأ، وبطريقة ما، انتهى الأمر ببديعة وهي تواجه ذيل الحصان لا رأسه.

«استديري إلى الناحية الأخرى!»، قالت لها هَيا.

«لا أستطيع!»، زعقت بديعة.

«نطّي إذًا!»، قال لها علي.

ذلك كان المشهد الذي رأتهم عليه مسز غودار حين وصلت. سرى الكثير من التأنيب والاستنكار وهزّ الرأس خلال إنزال مسز غودار لبديعة عن ظهر الحصان.

«درْسنا الأوّل يتعلّق بطريقة الصعود على ظهر الحصان.»

رغم حرارة الصحراء المرتفعة، كانت مسز غودار ترتدي جاكيت فروسيّة من صوف التويد وبنطال فروسيّة منتفخًا عن الجنْبَيْن، عند الردْفين. قامتها منتصبة كالرمح وتصفّف شعرها مثل ملكة إنكلترا، بينما تعقد تحت ذقنها وشاحًا أنيقًا. أما كفّاها فمغطّيان بقفّازين لونهما بيج فاتح، تلمعان نظافةً، وتحمل بيدها عصًا جلديّة أنيقة بنّية طرفُها فضّيّ. سرعان ما ستكتشف هَيا أنّ تلك العصا تشكّل امتدادًا

لذراع مسز غودار اليمنى، تستخدمها حين تلوّح بيدها وهي تتكلّم، وتصفعها بقوّة على طرف حذائها الجلديّ الطويل.

«الفروسيّة»، قالت مسز غودار وهي تجوب الباحة أمام تلامذتها الصغار، «هي رياضة يستغرق إتقانها عمرًا».

«سينقضي عمري قبل أن نبدأ!»، همست هَيا في أذن بديعة. إلى جانبهما، كان علي يحاول كتم ضحكته.

هَيا لا تفهم مسز غودار. من المفترض بها أن تدرّبهم على ركوب الخيل، ولكن، عوضًا من ذلك، تقضي نصف ساعة وهي تشرح الطريقة المُثلى للصعود على ظهر الحصان، قبل أن تسمح لهم بتطبيق ذلك! في النهاية، أصبحوا على ظهور أحصنتهم، لكنّ الأمور ازدادت سوءًا بعد.

«دعونا الآن نتحدّث عن الوضعيّة الصحيحة على السرج. يجب أن يكون هناك خطّ مستقيم بين الكتفين والردفين والكاحلين وخطّ آخر من الكوع إلى قبضة اليد حتّى طرف اللجام. وعليكم أن تمسكوا اللجام بين الخنصر والبنصر. دعيني أرى رسنك أميرة هَيا، حسنًا، هذا جيّد.»

«مسز غودار، متى سنعدو؟»

«بالتأكيد ليس اليوم!»

«مسز غودار؟»

«نعم، أميرة هَيا؟»

«هل نستطيع أن نمتطِيَ كالهنود في أفلام الكاوبوي؟»

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

«كاوبوي وهنود؟» كادت مسز غودار أن تجنّ. «أميرة هَيا، أنا مدرّبة مُجازة من الجمعيّة البريطانيّة للخيول (BHS). ولست هنا لتصوير فيلم أميركيّ مشوّق عن رعاة البقر!»

كان ممنوعًا طرح المزيد من الأسئلة في ذلك الدرس. قضوا الساعة التالية وهم يصعدون على ظهور الخيل ثمّ يترجّلون عنها، ويتدرّبون على وضعيّة الامتطاء الصحيحة. بالكاد بقي لهم بعض الوقت ليقوموا بدورة من السير المتمهّل مع أحصنتهم حول الحلبة قبل أن تعلن مسز غودار انتهاء الحصّة لذلك اليوم.

«أتمنّى أن تقدّري لي ذلك»، شكت هَيا لبري في مربطها بعد أن غادرت المدرّبة. «أنا أقوم به من أجلك!»

ربّتت خطْمَ المهرة. «سأصبح فارسة حقيقيّة، بري»، همست هَيا. «وعندها، سنعدو في الصحراء معًا، أنا وأنت. ولتحاول مسز غودار الإمساك بنا!»

كان والد هَيا في لندن لحضور اجتماع. وحين عاد، حمل معه هدايا لهَيا وعلي وبديعة. كانت الهدايا ملفوفة بورق محالّ هارودز. حين فتحت هَيا هديّتها، سُرَّت لحصولها على أوّل بنطال فروسيّة. كان هناك أيضًا في العلبة جاكيت فروسيّة من صوف التويد وخوذة مخمليّة. طارت بديعة من الفرح بالزيّ المشابه الذي وجَدَتْهُ في علبتها أيضًا، وأخذت تختال به أمام المرآة، بينما تناولت هَيا البنطال فقط وتركت الباقي.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«هل المطلوب أن أرتدِيَ هذه للدروس؟»، سألت والدها. فمن الصعب تحمّل جاكيت من الصوف تحت الشمس الحارقة، ثمّ إنّ لا أحد مِمّن يتدرّبون في ساحات البولو يضع خوذة.

«مسز غودار تصرّ على ذلك»، قال الملك.

«مسز غودار عدوّة المرح أصلًا. تنتظر أن أبلغ التسعين حتى تسمح لي بالقفز.»

اعتادت هَيا أن تتسكّع في مضمار الخيل بعد انتهاء حصّة التعليم مع مسز غودار. تراقب عمّها وهو يدور بأحصنة البولو دورات واسعة في الحلبة عند أسفل التلّة. لِمَ لا يمكنها الامتطاء هكذا؟

معظم أحصنة البولو في إسطبلات الأمير حسن هي من الأفراس، ما عدا فحلًا واحدًا. إسمه سالومون، لونه كستنائيّ غامق مع لمعة بيضاء وقوائم يكسوها البياض. يُعتبَر سالومون طويلًا بالنسبة إلى خيول البوني القصيرة التي تستخدَم في لعبة البولو. لكنْ، رغم ضخامته، يشعّ من عينيه البنّيّتين الغامقتين لطفٌ دافئ. سيكون من الرائع امتطاؤه. في أحد الأيّام، بعد أن انتهى الدرس مع مسز غودار، وخيّم الصمت على حلبة التدريب، دخلت هَيا إلى غرفة السوس. تناولت لجام سالومون عن علّاقته، ورَمَتْ بسرجه على ذراعها.

لم يكن إحكام اللجام على الفحل الكستنائيّ سهلًا، كان عليها أن تقف على رؤوس أصابعها حتّى تزلقه فوق أذنيه. وضع السرج لم يكن أسهل، لكنّها تدبّرت أمرها. أحكمت حزام السرج حول بطن

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

سالومون ثمّ قادته نحو الباحة، وكالعادة، استعملت صندوقًا لترمِيَ بنفسها فوق ظهره.

وكأنّها في برج عالٍ! سالومون أكبر بكثير من الدبّابة، ولكنّه نحيف إلى درجة أنّها لم تعرف كيف تثبّت ساقيها حول بطنه. كما أنّ رقبته طويلة كرقبة زرافة.

«شاطر، يا سولي»، قالت هَيا وهي تربّت الفحلَ فتقدّم مطواعًا. وسارا عبر الدرب المحفّرة التي تقود إلى حلبة التدريب.

أكيد سالومون لاحظ أنّ الوزن الخفيف الذي يحمله على ظهره ليس وزن الأمير حسن، لكنّه حصان طيّب بالفطرة، فأسرع خطاه بانصياع، فيما قادته هَيا ذهابًا وإيّابًا على أرض حلبة البولو الترابية.

«شاطر، سالومون، ما رأيك؟ هل نجرّب بعض الخبب؟» ضغطت هَيا بشدّة على جنبَيْ سالومون كما علّمتها مسز غودار.

لكنّ سالومون مُدرَّب على أن يجري بسرعة.

بينما شبّ الفحل الكستنائيّ إلى الأمام، كانت هَيا تتعرّض لصدمة حياتها. إنّهما يجريان! كانا مسرعيْن، وكأنهما يطيران في الحلبة، وكان الجري ناعمًا - ليس نطّاطًا كما في الخبب، بل منساب، وكأنّها تمتطي لعبة الحصان الهزّاز. كما حلمت تمامًا، مع الهواء يلفح وجهها ويطيّر شعرها والحصان تحتها. كالسحر...

إلّا أنّ السحر لم يلبث أن انتهى فجأة. إذ ما إن شدّت هَيا اللجام حتى شبّ سالومون على قوائمه الخلفيّة. أطلقت هَيا صيحة وهي

تندفع بقوّة نحو رقبته. تشبّثت بكلّ قوّتها ولكن من دون فائدة، فقد قُذِفَت عن السرج، ولم يتوقّف سالومون إلّا بعد فوات الأوان. ما وَقَعَ وَقَعَ، وها هي، مُتكوّمة بخجل على التربة الناعمة في حلبة البولو.

جلست هَيا تلهث مصدومة. لم يسبق لها أن وقعت عن ظهر حصان من قبل. كانت السقطة أسرع ممّا تخيّلتها! بعد أن التقطت أنفاسها، أدركت أن الوقوع ليس بذلك السوء. فهي لم تُصَب بأيّ أذى. وقفت ونفضت الغبار عن بنطالها.

بدا سالومون وكأنّه آسف لما حصل. خفض رأسه ليشمّها بمنخرَيْه اللذين فتحهما على وسعهما، وكأنّه يقول لها: «ماذا تفعلين هنا على الأرض؟»

«سالومون الشاطر.» قادت هَيا الفحل الكستنائيّ مجدّدًا نحو المسار، وتسلّقت حتّى بلغت الرِكاب بقدمها وركبت مجدّدًا.

هذه المرّة، لم تشدّ اللجام بقوّة. دارت بسالومون على مهل حول الحلبة، وهي تشعر بخطواته الكبيرة.

هَيا تركب الخيل بالضبط كما تتمنّى مسز غودار أن تفعل، لكنّها لا تعرف ذلك. وضعيّتها على السرج ممتازة، ظهرها مستقيم، ويداها ثابتتان ومتوازنتان أمامها.

ظلّت تجري به هكذا لحوالى ساعة. في النهاية، عندما عادت بسالومون من الحلبة عبر الدرب المحفّرة، لمحت الأمير حسن ينظر نحوها، من باحات البولو، فأدركت أنّه كان واقفًا يراقبها منذ فترة.

فيما كانت تتقدّم بسالومون نحو التلّة لملاقاة عمّها، أخذ قلبها يخفق بشدّة. سالومون هو حصان البولو المفضَّل لديه. أكيد أنّها في ورطة.

«يا لها من سقْطة!»، قال عمّها، «هل أنتِ بخير؟»

«نعم، عمّو.»

«متأكّدة؟»

أومأت هَيا برأسها.

«جيّد»، قال الأمير حسن. «لا يزال أمامك نصف دزّينة منها.»

«نصف دزّينة؟»

«يقال إنّ المرء يحتاج إلى السقوط عن ظهر حصانه سبع مرّات حتى يصبح فارسًا»، قال حسن. «أنا سقطْتُ أكثر من سبع مرّات، سقطْتُ لمرّات لا تُحصى ولا تُعدّ.»

ابتسم لهَيا. «إيّاك ألّا تمتطي سالومون مجدّدًا في الغدّ، هه؟»

هكذا طوّرت هَيا مهاراتها، وهي تقضي ساعات وساعات على ظهر الفحل الكستنائيّ في الحلبة. أصبح حسن ينضمّ إليها من وقت إلى آخر ويشرح لها حيَل البولو التي يُتْقِنها، أو كيف يستخدم اللجام لتوجيه الخيل، فيقرّبه من رقبته ويشدّه من ناحية إلى أخرى. وسُرعان ما أصبح باستطاعتها أن تقود سالومون بهذه الطريقة، من دون أن تُخفق ولا مرّة. أصبح باستطاعتها أن تجرِيَ بالخيل مثل لاعبي البولو، وأن ترتفع في الهواء كلّ خطوتين مثلما يفعلون.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لا، لا، لا!» كادت مسز غودار تنتف شعرها حين جربّت هَيا القيام بذلك خلال إحدى حصص الفروسيّة. «لسنا في الأرجنتين نرعى الثيران كشعوب الغاوتشو! لن أسمح لك بسوْق حصانك باللجام وفي جميع الاتجاهات في صفّي. وبحقّ الله اجلسي كما يجب، وكُفّي عن استعمال الركاب للوقوف وأنت تجرين! هذا ليس شوطًا في مباراة بولو!»

قد تفقد مسز غودار أعصابها، لكنّها تدرك تمامًا أنّ هَيا أفضل تلامذتها. يومًا بعد يوم، كانت تلاحظ تَقدُّمها. بحلول الربيع، كانت هَيا قد تمكّنت من امتطاء سالومون من غير أن يكون مسرّجًا والعَدْو به وسوْقه في لفّ ودوران في فناء البولو، من دون أن تستخدم اللجام تقريبًا. لكنّ سالومون أطول من أن تمارس حيل الوثب على متنه. لذلك، حين كانت ترغب في تمثيل لعبة الكاوبوي والهنود، أو في الوثب على الحصان وهو يعْدو، كانت تستعين بالدبّابة.

كانت تتعلّم القفز العالي أيضًا. صحيح أن مسز غودار أجبرتها خلال الدروس على ممارسة الخبَب فقط، بين العوارض وحواجز الكافاليتو المنخفضة، إلّا أنّه، ما إن كانت المعلّمة تدير ظهرها، حتّى كانت هَيا تقفز عن كلّ شيء وعن أيّ شيء تراه أمامها. براميل سعتها 200 ليتر، أكياس حنطة، صناديق خُضَر، كلّ شيء كان يتحوّل بالنسبة إليها، وهي على ظهر الدبّابة، إلى حواجز للقفز.

تتخيّل نفسها مشاركة في قفز الحواجز في مسابقة «حصان العام»، وهدير الحشود يطنّ في أذنيها كما في التلفزيون.

كانت تمتطي خيولًا أخرى من الإسطبلات أيضًا، وتتمرّس على التعامل مع تقلّبات طِباعها كما يجدر بفارسة حسّاسة أن تفعل. نصحها سانتي بأن تمتطِيَ أكبر عدد ممكن من الخيول لتنمية إحساسها وغريزتها. هَيا تدرك أهمّية ذلك لأنّ الحصان الذي تنوي امتطاءَه ليس سالومون ولا الدبّابة. فقلبُها لا يزال مع تلك المهرة الجميلة التي يكسو ساقها البياض وتحمل نجمة على جبينها، وتُحَمْحِمُ كلّ صباح حين تزورها في مربطها.

لقد تجاوزت بري سنواتها الثلاث، وأصبح بإمكانها تحمّل فارس على ظهرها. لم تضع يومًا شكيمة بين أسنانها ولا شعرت بحزام السرج المُحكَم على ظهرها.

لكنّ كلّ ذلك كان على وشك أن يتغيّر. فقد حان وقت ترويضها.

الفصل العاشر

مصعد الخدمة

«أميرة هَيا، هلا مرّرْتِ لي شوكة المحار، من فضلك؟»

أطلقت هَيا تنهيدة ونظرت إلى الطاولة. أمامها، مُدَّ طقم المائدة الملكيّ، بصحونه التي نُقش عليها التاج الملكيّ الأردنيّ والأحرف الأولى من إسم الملك، وإلى جانبها صفٌّ طويل من لوازم المائدة الفضّية الأنيقة. كان كلّ شيء مُعدًّا وكأنّه عشاء رسميّ، سوى أنّه لم يكن في الغرفة أيّ طعام، ولا أيّ ضيوف... فقط هَيا وفرانسيس.

نظرت الأميرة إلى الشّوَك الستّ أمامها. فكّرت قليلًا ثمّ تناولت الأنحَف بينها، وكانت لها سِنّان مُدبّبتان.

«هذه شوكة بزّاق»، قالت فرانسيس بنبرة يائسة. «شوكة المحار هي تلك التي على يسارها. لديها ثلاث أسنان، هل ترين؟ تستخدمين السنّ العريضة لفصل المحار عن صدفته، ثمّ تلك الناعمة لانتزاع المحار وحمله إلى فمك...»

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«لكنّي لا أحبّ المحار»، قالت هَيا.

أجابت فرانسيس: «هذا خارج عن الموضوع. ماذا لو دُعيتِ إلى عشاء رسميّ يُقدَّم فيه المحار ولم تعرفي أيّ شوكة تستخدمين؟»

«هذا لن يطرح مشكلة لأنّني لن أتناول المحار أصلًا.» شعرت هَيا بأنّ شيئًا ما يفوت فرانسيس هنا.

«والدتك، الملكة عليا، كانت في منتهى النبل وتصرّفاتها وسلوكها في منتهى الأناقة.» شغلت فرانسيس نفسها بإعادة ترتيب المائدة. «ولكن يبدو أنّ البنت ليست دائمًا سرّ أمّها.»

سَوّت فرانسيس مفرش المائدة بتكلّف، ثمّ شَبَكَتْ يديها وصوّبت نحو الأميرة الصغيرة نظرة في منتهى الجدّيّة. «والآن أخبريني، أيّ نوع من الشوَك تستخدمين لتناول الفراولة؟»

عاشت هَيا في قصر الندوة أيّامًا مارست فيها هواياتها المفضّلة كما يحلو لها: الشقلبات البهلوانيّة في الأروقة، التمرّغ بالوحل، ولعب الفوتبول على العشب مع علي. لم يكن أحد يطالبها بأن تتصرّف بشكل لائق وبأنوثة. لكنّها الآن، بعد أن أتمّت العاشرة من عمرها، أصبح عليها أن تتابع دروسًا في لوازم المائدة وآدابها.

«ما هذه السخافة...»، تَمْتَمَتْ هَيا شاكية لعلي وهي تفتّش في أدراج لوازم المائدة في المطبخ الملكيّ: «فرانسيس تتصرّف كما لو أنّ نهوض المملكة وسقوطها مرهونان بقدرتي على تمييز شوكة عن أخرى». تناولت ملعقتين ومرّرت واحدة لعلي، ثمّ فتحت

الثلّاجة وجالت بعينيها متفحّصة الرُّفوف. أخيرًا رأت علبة آيس كريم الفراولة. لا بدّ أنّ اسماعيل دَفَعَها إلى الخلف، إلى قعر الرفّ، لإخفائها عنها. أخذت العلبة وسكبت منها ملعقتين كبيرتين، واحدة لها وأخرى لعلي. ثمّ تناولت نثرات الشوكولاتة.

«حاولْتُ أن أشرح لها...» نفضت هَيا النثرات أقوى ممّا يجب فتطايرت على المقعد. مدّ علي يده ليأخذ زبديّة الآيس كريم، لكنّ هَيا لم تكن قد انتهت بعد. «قلت لها إنّ بري أصبحت جاهزة للترويض. هي تحتاج إليّ الآن. عليّ أن أكون في الإسطبلات إلى جانبها وليس هنا حيث أجِدُني عالقة!»

مرّرت هَيا لعلي زبديّة الآيس كريم وهي شاردة الذهن. «أصلًا لا يهمّني ما تقوله فرانسيس. سأصبح بطلة في قفز الحواجز وسأعيش مع خيولي. من دون مربّية ومن دون أحد يُملي عليّ ما أفعله!»

أخذ علي زبديّة الآيس كريم وجلس إلى جانب هَيا على مقعد المطبخ. «أمّا أنا، فسأصبح لاعب فوتبول»، قال لها، «وجنديًّا».

«قد ينتهي بك الأمر ملكًا»، أشارت هَيا، «مثل بابا».

«تسق»، صفّر علي بين شفتيه وهو يؤرجح قدميْهِ من على طرف المقعد. «عبدالله هو مَنْ سيصبح ملكًا.»

فلدى هَيا وعلي أخ أكبر منهما بكثير، من زواج سابق للملك.

«وماذا عنكِ؟»، واجَهَها علي بالردّ. «أنتِ التي قد تصبحين ملكة.»

مثل ماما.

عرفت هَيا أنّه كاد يقولها، لكنّه تراجع لأنّهما كلّما تحدّثا عن ماما انتهى الأمر بتكدّر أحدهما.

«أممممممم. لن أصبح ملكة»، قالت هَيا، «لأنّني لن أتزوّج أبدًا. عوضًا من ذلك، سأعيش مع خيولي». ثمّ اتخذ صوتها نبرة فاخرة مفخّمة وهي تقلّد فرانسيس: «على الملكة أن تتحلّى بسُلوكٍ نبيل. الملكة تعرف أيّها شوكة المحار».

كانا يتناولان الزبديّة الثانية من الآيس كريم عندما أطلّ زهير، رئيس طاقم الخدم الملكيّ. توجّه إلى هَيا قائلًا: «فرانسيس تبحث عنك. مدرّس الكمان ينتظرك منذ نصف ساعة تقريبًا.»

لم تشعر هَيا بأيّ رغبة في العزف على الكمان. «ألا نستطيع البقاء هنا؟»، توسّلت زهير. المطبخ هو مخبؤها المفضّل حين تعلن فرانسيس الحرب. قد يكون لفرانسيس حلفاؤها في القصر، لكنّ فريق العمل في المطبخ والندّل هم من أنصار هَيا وعلي، يتصرّفون وكأنّهم من أفراد عائلتهما. زهير أيضًا يقف دائمًا إلى جانبهما. لكنّه اليوم يهزّ برأسه.

«من الأفضل أن تسمعي كلمتها. لن يرغب الطبّاخون في أن تتجوّلي بينهم وتُعيقي حركتهم وهم يعملون.»

فالليلة تُقام مأدبة عشاء ملكيّة في القصر. وبعد قليل، سيبدأ اسماعيل وفريقه الإعداد لها. يكون إسماعيل في مزاج سيّئ حين

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

يترقّب القصر عددًا كبيرًا من الضيوف. لذا، قرّرت هَيا أنّه من الأفضل لها أن تتحمّل فرانسيس ومدرّس الكمان.

لِهَيا أيضًا مدرّس للغناء والباليه، وآخر يأتي ثلاث مرّات في الأسبوع ليساعدها على تحسين لغتها العربيّة. تتولّى فرانسيس ما تبقّى من موادّ، فتدرّسها الرياضيّات والجغرافيا واللغة الإنكليزيّة. عندما كان والد هَيا صغيرًا، ارتاد مدرسة داخليّة في إنكلترا. تمدح فرانسيس دائمًا بالمستوى العالي للتعليم في إنكلترا، وتظلّ تردّد أنّ على هَيا وعلي تلقّي علمهما هناك. صحيح أنّ هَيا لا تطيق فرانسيس، إلّا أنّها ترى أنّ العيش معها تحت سقف واحد يظلّ أفضل لها من أن تضطرّ إلى الابتعاد عن بابا وعلي.

ذلك المساء، جلست هَيا وعلي عند شفرة الدرج أمام غرفتها، يتفرّجان على الضيوف وهم يصلون إلى بهو الاستقبال. كان جميع الرجال يرتدون بزّات رسميّة وبعضهم وضع حزامًا عسكريًّا.

في تلك الليلة، تناولت هَيا وعلي وجبتيْهما في غرفتيْهما، وقد أُرسِلَتا إليهما عبر مصعد الخدمة، وهو مصعد صغير جدًّا مخصَّص لنقل الطعام، يتحرّك صعودًا وهبوطًا بين المطبخ وشُفرة الدرج أمام غرفة هَيا. تعشق هَيا استخدام ذلك المصعد. تحبّ كثيرًا أن تضع الصينيّة في داخله وأن تضغط الزرّ لإعادتها إلى المطبخ بعد أن تفرغ من الطعام. وكأنّه سحر: تُدخل الصينيّة في المصعد، ثمّ، بح! تختفي الأطباق المتّسخة.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

لعشاء تلك الليلة، كان الطبّاخون قد أرسلوا إلى هَيا وعلي حمّصًا شهيًّا وتبّولة مع خبز. بعد أن انتهيا من تناول الطعام، وضعا الصواني في المصعد وأعاداها إلى الأسفل. تباريا في لعبة ورقة وحجر ومقصّ ليحدّدا مَن يفوز بضغط الزرّ، فربحت هَيا. اغتاظ علي. كان دوره هذه المرّة! وحين عاد المصعد فارغًا، خطرت على باله فكرة. ركض إلى غرفة هَيا وجاء بدول.

«تعالي نضع دول في المصعد»، قال. «باستطاعتنا إرسالها إلى المطبخ ثمّ استعادتها مجدّدًا.»

لكنّ هَيا لا تريد إرسال دُمْيَتِها المفضّلة في مصعد الخدمة. لديها فكرة أفضل. «أنت إصعد»، قالت لعلي. «سأضغط على الزرّ وأرسلك إلى المطبخ.»

«أنا؟»، صرخ علي.

«سيكون مصعدنا السرّيّ»، قالت له هَيا. «ننزل فيه إلى المطبخ لجلب الآيس كريم متى أردْنا من دون أن يمنعنا أحد.»

تحمّس علي، لكن حين فتحت هَيا الباب الجرّار، تردّد.

«هيّا! إصعد!» قالت له. كانت عيناها تتّقدان إثارة.

المكان ضيّق، لكنّه سيَسَعُه إذا تكوّم على نفسه. «لا أريد القيام بذلك»، قال علي.

«علي»، قالت هَيا. «هل تتذكّر يوم طلبت مني مساعدتك على سرقة سيّارة بابا لكي تشارك في سباق السيّارات؟»

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أوْمَأ علي برأسه.

«ساعدْتُك يومها، أليس كذلك؟»

«نعم»، أجاب علي بنبرة متردّدة.

«لكنّكَ اصطدمْتَ بحائط. ثمّ، في النهاية، تحسّنت الأمور»، قالت هَيا مصرّة. «أعدك أنّك ستكون بخير. فمن المستحيل أن تتعرّض لحادث اصطدام في مصعد الخدمة.»

غَمْغَمَ علي ببعض الكلمات وهو يحشر نفسه ويتكوّم كالكرة حتى تتمكّن هَيا من إغلاق الباب.

«سوف أضغط على الزرّ»، قالت له هَيا. «حين تصل، دقّ على السقف. سأسمعك، وأضغط مجدّدًا لأسحبَك.»

«هل أفتح الباب حين أصل إلى الأسفل؟»، سأل علي.

«لا»، قالت له هَيا. «المطبخ يعجّ بالطبّاخين. لا نريد أن يراك اسماعيل. فقط دقّ على السقف وأنا سأسحبك إلى هنا مجدّدًا، أوكي؟»

«أوكي»، قال علي موافقًا. أخذ نَفَسًا عميقًا وكأنّه على وشك أن يغطس تحت الماء. جرّت هَيا الباب وأغلقته ثمّ ضغطت الزرّ. بدأ المصعد بالتحرّك مُصدرًا بعض الصرير. اليوم فقط، لاحظت هَيا كم أنّ هذا الشيء بطيء وصاخب. فهذه المرّة، هي تنتظر وصول علي إلى المطبخ وليس صينيّة الطعام.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

كان الضيوف يتناولون عشاءهم، وقد تناهَتْ أصواتهم وطرطقة الملاعق والشُّوَك على الأطباق إلى مسمعها. أدخلت هَيا رأسها في فجوة المصعد. ما الذي يستغرق كلّ هذا الوقت؟ ثمّ سمعت ضجّة، فحدّقت إلى الظلام.

دِج! دِج! دِج! إنّه علي يخبط على سقف المصعد.

أقفلت هَيا الباب الجرّار وكبست على الزرّ، فأخذ المصعد يتحرّك من جديد، لكنّه كان أكثر بطئًا بعد. أمّا الحبال، فكانت تعنّ وتئنّ على البكرة. ثمّ، سمعت رجّة قويّة وتوقّف المصعد تمامًا. هذا غير مُطَمئِن. كبست هَيا الزرّ مجدّدًا، ثمّ لمرّة ثالثة ثمّ رابعة، لكن لم يحدث شيء.

فتحت هَيا الباب ونظرت داخل الفجوة، إلى أسفل. كان من المفترض أن تدور البكرة وأن تُصدر صريرًا، لتعيد الصندوق إليها مجدّدًا، لكنّها لم تفعل.

«علي؟»، صرخت عبر الفجوة.

كان علي قد بدأ يقلق. «هَيا، كفى سخافة! اسحبيه مجدّدًا! هَيا!»

«علي!»، ردّت عليه من الفجوة. «انتظر! لقد علق! سأخرجك من هنا! إبقَ حيث أنت!»

لاحظت، وهي تركض نزولًا نحو الطابق السفليّ، كم كانت كلماتها الأخيرة بلا معنى. إلى أين قد يذهب علي؟ فهو عالقٌ داخل مصعد الخدمة، ومحشورٌ في الفجوة الضيّقة بين طابقَي المنزل.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

شعرت هَيا بقلبها يكاد يقفز من بين أضلعها. حبال البكرة لم تبدُ متينة. ماذا لو انقطعت؟ عليها أن تجدَ زهير فورًا.

كانت قد أوشكت على الوصول إلى المطبخ حين سمعت طرطقة كعب فظيعة خلفها مباشرة في الرواق.

«سموّك؟»

يا إلهي! إنها فرانسيس!

«إلى أين أنتِ ذاهبة؟ تعرفين تمامًا أنّ الدخول إلى المطبخ خلال مآدب العشاء ممنوع.»

تضخّمت الكتلة التي تسدّ حنجرة هَيا وأصبحت تهدّدها بالاختناق. «أنا... أمممم... أنا... تركْتُ دول في المطبخ»، قالت، «عليّ أن أجلبها».

لم يكن ذلك أفضل عذر في العالم، لكن لحسن الحظ، كان كافيًا لإقناع فرانسيس.

«حسنًا، لكن لا تعرقلي الحركة في المطبخ»، قالت. «إجلبي دُمْيَتَكِ وعودي مباشرة إلى السرير.»

«حاضر، فرانسيس!»، أجابتها وهي تنطلق نحو المطبخ. لا شكّ في أنّ علي يتساءل الآن إن كانت هَيا قد نسيته. فهو عالق في المصعد منذ دقيقتين على الأقلّ.

في المطبخ، كانت قرقعة الطناجر والأوعية عالية. طبيعيّ ألّا يكون أحد من الطبّاخين قد سمع الضربات والصرخات التي يصدرها

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الصبيّ إبن الأعوام التسعة المحشور في مصعد الخدمة. ولكن، حين اقتحمت هَيا المطبخ، وما إن ظهرت في الباب، حتّى أدرك زهير مباشرة أنّ مصيبةً ما قد وَقَعَت.

«إنّه علي»، قالت هَيا، وهي تدفع باب المصعد الجرّار وتُدخل رأسها في الفجوة. «إنّه عالق هنا.»

حَمْلَقَ زهير بعينين واسعتين وهو يكاد لا يصدّق أذنيه. «الأمير علي داخل مصعد الخدمة؟»

«نعم»، قالت هَيا.

«وكيف دخل إلى هناك؟»

«أنا أدخلْتُه!»، ردّت هَيا لتزيد الأمور سوءًا بعد. «إلّا أنّه أثقل ممّا كنّا نتخيّل، فعلق المصعد وهو في طريقه إلى فوق.»

تسمّر جميع مَن في المطبخ في أماكنهم. هدأ ضجيج الطناجر والأوعية فيما أدرك الموظّفون ما يجري. أمير الأردن عالق في صندوق خشبيّ صغير، يتدلّى بحبْلٍ وبَكَرَة.

أدخل زهير رأسه في الفجوة ونظر إلى الأعلى. تمكّن من رؤية المصعد. كان عالقًا في منتصف المسافة تقريبًا بين الطابقين. حاول الضغط على الزرّ في حائط المطبخ، فلم يحصل شيء.

قال أحد العمّال وقد بدا عليه التوتّر: «أستاذ زهير. هل تريدني أن أنادي الملك؟»

«لا!»، صاحت هَيا. «أرجوك! لا تخبر أبي.» ثمّ نظرت إلى زهير: «ساعدْني على إخراجه من هنا!»

أخذ زهير نَفَسًا عميقًا ثمّ استدار نحو فريقه. «أنت! إصعد إلى فوق حالًا!»، أَمَرَ أحدهم. «وأنت! إذهب معه! حاوِلا تشغيل البَكَرَة يدويًا وإنزال الصندوق إلى هنا. هيّا، وبحذر شديد!»

فجأة، بدا القلق على هَيا. «هل تعتقد أنّ علي يَصِلُهُ ما يكفي من الهواء؟ هل يستطيع أن يتنفّس؟»

أجابت الخبْطات المحمومة من داخل المصعد على سؤالها.

«أخرجوني!»، صرخ علي. «هَيا، ما الذي يحدث؟»

«علي!» ردّت هَيا عليه عبر الفجوة. «لا مشكلة. زهير يهتمّ بالأمر. سنخرجك.»

أدخل زهير رأسه عبر الفجوة وصرخ له: «لا تتحرّك، علي! إنّنا نحاول إنزالك».

بدا وكأنّ العمّال استغرقوا دهرًا للوصول إلى فوق، ثمّ دهرًا آخر ليبدأوا بتحريك البَكَرَة، ولكن في النهاية توصّلوا إلى جعل الدولاب يدور يدويًا وبدأ المصعد بالهبوط على مهل في الفجوة.

«إنتظر!»، قال زهير لعلي مع اقتراب وصول المصعد. ولكن علي لم يَعُدْ يُطيق الانتظار، قفز، فتلقّفه زهير وسحبه إلى برّ الأمان.

استدار زهير نحو هَيا وقال: «كان ذلك تصرّفًا في منتهى الحماقة».

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«كنّا نقوم بتجربة»، أجابته هَيا. «وكنت موجودة لطلب المساعدة في حال وقع مكروهٌ ما.»

ابتسم علي، ثمّ قال: «كان ذلك مسلّيًا جدًّا! هلّا نعيد الكرّة؟»

قبل أن يتسنّى لزهير الرّد، فُتح باب المطبخ على مصراعيه. إنّها فرانسيس. «ماذا يحدث هنا؟»

كان قلب هَيا ينبض بقوّة. حلّ الصمت على الجميع في المطبخ. وعلى زهير أيضًا، الذي نظر نحو هَيا وعلى شفتيه ابتسامة خافتة عرفت منها أنّه لن يفضحها.

«إذًا؟»، قالت فرانسيس، وهي تتوجّه إليهم بنبرة فيها احتقار. «أليس لدى أحد شيءٌ يقوله؟»

صمت.

ثمّ، من الطابق الأعلى، ارتفع صوت سُمع صداه من خلال فجوة المصعد. «أستاذ زهير! هل أخرجتَ الأمير علي؟»

صمت.

إلّا أنّ الوضع تفاقَمَ بعد حين قرّر العامل أن يضيف: «من الأفضل أن تسرع أستاذ زهير! ففرانسيس في طريقها إلى المطبخ...».

قبل أن يكمل جملته، كانت فرانسيس قد اقتحمت المطبخ لتصفق باب مصعد الخدمة بعنف. كان الشرر يتطاير من عينيها حين استدارت لمواجهة هَيا وعلي.

الفصل الحادي عشر

ترويض الريح

تسلّقت هَيا حافّة النافذة وأرْخَتْ رجليْها نحو الخارج. غرفتها في الطابق الثاني والمسافة إلى الأرض بعيدة.

«هَيا؟»، سأل علي بقلق. «هل أنت متأكّدة ممّا تفعلين؟»

«إذا كنت لا تريد مرافقتي، إبقَ في المنزل»، قالت هَيا. «باستطاعتي الذهاب وحدي.» تزحزحت قليلًا بعد على الإفريز، ثمّ استدارت لتواجه الغرفة. وقبل أن يتسنّى لعلي قول المزيد، هَوَتْ عن العتبة وتبخّرت في الهواء.

«هَيا!»

كانت هَيا قد حطّت على سلّم نجاة يبعُد نحو متر من النافذة، وانحنت فورًا لتصبح خارج مرمى نظر علي. حين أطلّ برأسه من النافذة بحثًا عنها، كانت تنظر نحوه مبتسمة.

«نلتُ منك»، قالت وهي تضحك.مكتبة الرمحي أحمد

«ليس هناك ما يدعو إلى الضحك»، قال علي مكابرًا.

«يلّا علي!»، ردّت هَيا بنبرة هازئة. «لا تقُل لي إنّك خائف!»

«أكيد لا!» قال علي متسخّطًا. «لكنّنا معاقَبان لشهر. إذا أمسَكَتْ بنا فرانسيس مجدّدًا...»

«لا تخَف، لن تمسك بنا»، قالت هَيا بكلّ ثقة. «علي، لا أستطيع التخلّي عن بري بهذا الشكل.»

هذا الأسبوع هو موعد ترويض بري. حلفت هَيا أنّها ستكون عاقلة وأنّها ستقوم بفروضها على أكمل وجه، وتعهّدت أنّها لن تغادر البيت أبدًا إلّا لزيارة الإسطبلات والاطمئنان على مهرتها. لكنّ فرانسيس تعرف أنّ إبعاد هَيا عن بري هو أفضل طريقة لمعاقبتها، لذلك منعَتها من الذهاب.

«أنا متأكّدة من أنّ السنيور لوبيز سيطلب من سيّاسه الاهتمام بالمهرة خلال فترة عقوبتك. لا داعِيَ أبدًا لذهابك إلى الإسطبلات.»

سلّم النجاة يشبه هيكل التسلّق الذي يلهو عليه الأطفال. آخر عارضة فيه تبعد عن الأرض مسافة مترين. تمسّكت بها هَيا ثمّ أفلتتها لتقفز. تبعها علي ليحطّ على قدميه كالهرّ، ومعًا، مشَيا نحو بوّابات الندوة.

فوجئ الحرّاس عند البوّابة لرؤية ابن الملك وابنته يسيران وحدهما من دون مرافقة. بكلّ ثقة، لوّحت هَيا لهم بالتحيّة.

ناداها أحد الحرّاس. «اعذريني، سموّك؟ أين طاقم حراستكما؟»

«لا داعِـيَ لهم»، قالت هَيا وهـي تبتسم بابتهاج. «سنقصد الإسطبلات فقط.»

ما إن تقدّمت خطوات قليلة، حتّى لحق بها الحارس.

«انتظري!» توقّفت هَيا واستدارت نحوه. «لا يمكنني السماح لك بالخروج من دون مرافقة.»

كانت هَيا تتوقّع ذلك. «أرجوك!»، قالت له متوسّلة. «عليّ أن أذهب لأرى مهرتي. وفرانسيس تمنعني.»

بدا على الحارس القلق. «انتظري لحظة.»

دخل كشك الحراسة وتحدّث مع حارس آخر، ثمّ عاد مجدّدًا إلى هَيا. «سموّك»، قال، «لقد خدمت والدك لسنوات طويلة. والدتك الملكة عليا كانت في غاية الكرم معي. ذات يوم، اشتدّ المرض على زوجتي، فجاءت الملكة عليا شخصيًا إلى منزلنا واعتنت بها وأخذتها إلى المستشفى...». ابتلّت عينا الحارس بالدموع وبدا أنّه غاص في الذكريات، لكنّه سرعان ما تمالك نفسه. «لو كانت والدتك هنا، لما سمحت لك وللأمير علي بالذهاب إلى الإسطبلات وحدكما...»

حَبَسَتْ هَيا أنفاسها إلى أن أضاف الحارس «ولكن... بإمكاني مرافقتكما حتّى أتأكّد من وصولكما سالمَيْن».

*

كان الإسفلت يلمع من وهج الحرارة. حين وصلوا إلى الإسطبلات، كـان علي وهَـيا يشعران بعطش شـديـد. قصدت هَيا فـورًا غرفة

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

السيّاس. تناولت من الثلّاجة زجاجتين من المشروبات الغازيّة، ثمّ توجّهها رأسًا نحو مربط بري.

«بري؟ بنت الريح!»، نادت هَيا.

ما إن سمعت صوت هَيا حتّى أطلّت بري برأسها من فوق باب المربط وبدأت تحَمْحِم بجنون.

«أهلًا، بنّوت.» ربّتت هَيا المهرة وهي ترفع المزلاج وتدخل باب المربط. وضعت لها الرسن بسرعة وبدأت بفكّ حزام بطّانيّتها.

وقف علي عند عتبة الإسطبل متأمّلًا أخته وهي تتصرّف كالخبيرة، تُحدّث مهرتها باستمرار، وتتعاطى معها بطريقة مدروسة لا تسرُّع فيها. التصقت هَيا بمهرتها وهي تقودها نحو الباحة. بدت بري منفعلة وفي غاية الحماسة، تنَطْنِطُ إلى جانبها، تفتح عينيها على وسعهما وتطلق أنفاسًا على شكل نخيرٍ متقطّع مرتجف.

«إهدئي بري، أنا هنا...»

أطلّت أحصنة البولو برؤوسها من مرابطها لتستطلع سبب تلك الجلبة في الخارج. فُضولُها أثارَ بري أكثر فأكثر، فبدأت ترقص. حافظت هَيا على قبضتها مُحْكَمَةً على رسن بري وراحت تهَدْهِدُها بصوتها.

«تبدو مخيفة»، قال علي وهو يرى بري تخبط وتلبط، فيما وقف على بُعد ثلاثة أمتار منهما على الأقل. «إنّها متحمّسة. هذا كلّ ما في الأمر»، قالت هَيا بنبرة واثقة. «تعال.»

مَشَيا على الدرب المفضية إلى فناء البولو، وحوافر المهرة ترتدّ عن الأرض وكأنّ تحتها جمْرًا، ذنبها عالٍ ورقبتها مقوّسة. تقدّمت هَيا ببري إلى مساحة من الفناء مغطّاة بتربة ناعمة وأوقَفَتْها إلى جانب المقاعد الخشبيّة.

«ماذا ستفعلين؟»، سألها علي.

في الحقيقة، لم يكن لدى هَيا أدنى فكرة عن طريقة ترويض الخيول. كانت الخطّة تقضي بأن تروِّضَ بري في الحلبة المسيَّجة في الحُمَّر، حيث بإمكان سانتي وسيّاسه مساعدتها. لكنّ فرانسيس أفشلت تلك الخطّة لتجِد هَيا نفسها في فناء البولو الشاسع المفتوح من جميع الجهات، تحاول ترويض مهرتها وحدها.

«سأركب على ظهرها»، ردّت هَيا. شعرت بقشعريرة تسري في بدنها. «تعال وساعِدْني على تثبيتها.»

تناول علي الرسن بيديه الاثنتين وتمسّك ببري كما لو أنّه يُحاول إرساء سفينة، فيما صعدت هَيا على أحد المقاعد الخشبيّة. حاولت أن تحقّق التوازن وهي تهمّ بالقفز. شعرت بأنّ المشهد غير مكتمل. هناك شيء ما ناقص، فأين مراسم الاحتفال بهذه اللحظة التاريخية؟ أين الخطاب الطنّان مثلًا، أو على الأقلّ قرع الطبول؟ فهي ستمتطي بري أخيرًا، فرسها التي ربّتها منذ كانت مهرة عمرها ثلاثة أيّام. هما على وشك أن تتحّدا أخيرًا، روحان في روح. أخذت هَيا نَفَسًا عميقًا ورمَت بنفسها مثل قطّة، بقفزة سريعة، على ظهر بري. أحسّت

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

المهرة بوزنٍ مفاجئ يحطّ على ظهرها وهو شيء لم تختبره من قبل، فتشنّجت عضلاتها.

«هـذه أنـا، بـري»، قالت لها هَيا، لعلّ المهرة تهدأ عند سماع صوتها. «لا عليك...» لكنّ بري بدأت تشبّ مُحاوِلةً طَرْحَها أرضًا.

كانت المهرة ترفس بقوّة وبسرعة، تثب على قوائمها الأربع معًا، ثمّ تغطّ، تحت هَيا، وهي تنكش التربة. أخذت تتلوّى في الجوّ وهي ترتفع، ففَقَدَتْ هَيا توازنها وبدأت تنزلق. الرفسة الثالثة كانت هي الحاسمة، قذفتها في الجوّ فطارت، ثمّ ارتطمت بالأرض بقوّة إلى درجة انقطع معها نَفَسُها. لم يحصل لها ذلَك من قبل. إنّه إحساس مريع. أخـذت تنتفض وترتعش وهـي تحاول مـلء رئتيها بالهواء مجدّدًا. ركعت على الأرض وهي تلهث كسمكة سُحبَت من الماء. ركض علي صوبها وسألها إن كانت بخير، لكنّها عجزت عن الردّ. الصدمة أبكتها، وها إنّ نشيجها يخنقها أكثر بعد.

«هَيا؟» توسّعت حَدَقَتا علي. «هل أنت بخير؟ هَيا؟»

نفضت هَيا التراب عن بنطال الفروسيّة. لمَ لا تتوقّف يداها عن الارتعاش؟ لم يكن من المفترض أن يحدث شيءٌ من هذا...

«لقد طرحتكِ أرضًا بعنف كما في لعبة الروديو»، قال علي.

مسحت هَيا الدموع عن عينيها. تلك الدموع الطفوليّة الكريهة! كانت تعتقد أنّها فارسة حقيقيّة، لكنّها بدأت تشكّ في ذلك، فها هي مطروحة على الأرض تبكي كطفلة صغيرة.

«أنا بخير»، قالت لعلي، رغم أنّها لا تزال تحت تأثير الصدمة. أدركت تمامًا ما عليها القيام به الآن، عليها أن تحاول مجدّدًا.

«هَيا...»

استدارت هَيا نحو أخيها والغضب يملؤها. «ماذا تريد؟»

أشار علي إلى أعلى التلّة، نحو رجال ينحدرون من إسطبلات البولو مسرعين، ويتّجهون نحوهما مباشرة. كانوا ستّة حراس، من بينهم ذلك الحارس الذي تحدّثت معه عند البوّابة والذي رافقهما حتى الإسطبلات. كان الحراس يتقدّمون نحوهما وكأنّهم ينوون على شيء. في وسط المجموعة، رأت والدها، الملك، وأقصى ملامح الجدّيّة تعلو وجهه.

«بابا هنا»، قال علي.

في طريق العودة إلى الندوة، لم يبدُ والدها، على عكس ما كانت تتوقّع، غاضبًا.

«لا»، قال لهَيا. «أنا أشعر بالخيبة.»

الخيبة. تلك الكلمة طعنت هَيا في الصميم.

«تركْتِ المنزل من دون مرافقة ومن دون أن تخبري أحدًا»، قال لها ثمّ أكمل: «وركبت فرسًا غير مروّضة وحدك...»

«... لكنّي لم أكن وحدي»، قالت هَيا. «علي كان معي. وكلّ هذا بسبب فرانسيس! لقد منعتني من رؤية بري...»

«هَيا»، قال والدها. «هل تعرفين لماذا عوقبْتِ حين وضعت أخاكِ في مصعد الخدمة؟»

«لأنّكم أمسكْتم بي»، قالت هَيا.

هزّ الملك رأسه نفيًا. «عوقبت لأنّ ما قمت به كان خطيرًا. كان بوسع علي أن يتأذّى. واليوم، حين قفزت من سلّم النجاة وتركت المنزل من دون حرّاسك الشخصيّين، عرّضت نفسك للخطر.»

قالت هَيا بإصرار: «لقد مَلَلت وجود الحرّاس الدائم معي، وتتبّعَهم لي أينَما ذهبت. أنا قادرة على الاعتناء بنفسي.»

«هَيا، أنت فتاة جامحة، وهذه ميزة. ولكن أرجوك ألا تكوني ساذجة. أنت ابنة ملك وفرد من قبيلة الهاشميّين الملكيّة في الأردن. حين تخالفين الأوامر وتتسلّلين من المنزل وحدك فأنت تخاطرين بحياتك وبحياة أخيك أيضًا. ماذا أفعل إذا اختُطفتِ، أو إذا وقع ما هو أسوأ بعد، لا سمح الله؟»

أخذ الملك يد ابنته بين يديه. «أنت وعلي أغلى هديّتين تركتهما والدتكما لي قبل رحيلها. سأقوم بكلّ ما يلزم لأحافظ عليكما. هل تفهمين؟»

تَغَرْغَرَتْ عينا هَيا بالدموع عند ذكر ماما. لم تقصد أبدًا أن تضايق والدها، ليس هكذا.

«نعم، بابا»، قالت هَيا، وهي تشعر بوطأة كلماته. ثم أضافت: «أرجوك ألا تعاقب حارس البوّابة بسبب ما حدث. أنا المخطئة.»

حلّ الصمت في السيّارة، ثمّ قال الملك متنهّدًا: «لا أحد سيُعاقَب. سأطلب من سانتي إعادة نقل المهرة إلى الحُمَّر. بحسب ما رأيته من تهريجك اليوم، أفضّل أن يكون موجودًا لمساعدتك من الآن فصاعدًا. من المفترض أن تدجّني فرسًا، لا أن تحطّمي رأسك!».

قفز قلب هَيا من مكانه. «هل أستطيع حقًّا الذهاب إلى هناك؟ إلى الحُمَّر؟ هل أستطيع ترويضها؟»

«إذا حاولْتِ الخروج مرّة أخرى من دون حارس شخصيّ ستعاقَبين لشهرين»، قال الملك، «لكن نعم، سأدعُكِ تذهبين إلى الإسطبلات لترويض المهرة.»

*

حين وصلت هَيا إلى الحُمَّر في اليوم التالي، كان سانتي بانتظارها في مكتبه العابق بالموسيقى وبرائحة القهوة بحبوب الهال.

«أخبرني والدك أنّك حاولت امتطاءها وحدك»، قال سانتي.

«طرحَتْني أرضًا»، أخبرته هَيا. «اعتقدت أنّها لن تمانع، لكنّها كانت في غاية الجموح وتصرّفت كما لو أنّها لا تعرفني.»

أطرق سانتي قليلًا ثمّ قال: «تيتش، تعالي وقِفي خلفي».

ارتبكت هَيا لكنّها قامت بما طُلِبَ منها.

«هل تَرين تلك الكرسيّ التي بجانبك مباشرة؟»، سأل سانتي. «إصعدي عليها.»

صعدت هَيا على الكرسيّ. «الآن»، قال سانتي وهو ينحني أمامها، «إقفزي على ظهري». لقد جنّ سانتي! لكنّها نفّذت ما طلبه منها. قفزت عن الكرسي وحطّت على ظهره.

«الآن»، قال سانتي، «اعتبريني بري، وضَعي نفسك في مكاني. أنا لا أراك. لا أعرف أنّ مَن يعتلي ظهري هو أنتِ، صديقتي هَيا. كلّ ما أعرفه هو أنّ أحدًا ما انقضّ عليّ. قد يكون ذلك أسد الجبال، لأنّ هذه هي بالذات الطريقة التي ينقضّ بها الأسد الضخم على فريسته. لذلك، أتوقّع أن تنشبي مخالبك وتنهشي جسدي في أيّة لحظة. إذًا، كيف أتخلّص منك؟»

فجأة، شعرت هَيا بمدى طيْشها وأجابت: «ستطرحني أرضًا».

قام سانتي، وانزلقت هَيا عن ظهره. «لا تشعري بالإحباط تيتش»، قال لها. «المهرة تحبّك كثيرًا، لكنّ الحبّ لن يمنعها من الانقياد لغريزتها. حين قفزتِ على ظهرها في فناء البولو فاجأتِها، فقامت بالشيء الوحيد الذي بإمكانها القيام به لحماية نفسها.»

فكّرت هَيا في بري، وكيف كانت لا تزال ترتجف من الخوف بعد أن طرحتها أرضًا. «الحقّ عليّ»، قالت، «لقد أفزعتها».

«لا عليك»، قال سانتي بحزم. «أصبح ذلك من الماضي الآن. دعينا نبدأ من الصفر.» ثمّ ابتسم لهَيا وأضاف: «أوّلًا، يجب أن تعتاد الشكيمة بين فكّيها، وبعدها حزام السرج حول بطنها، ثمّ السرج فوق ظهرها. وفي النهاية، الفارس».

«كم من الوقت سيستغرق ذلك؟»، سألت هَيا.

«تيتش، في عمليّة ترويض الخيل، الصبر هو المفتاح»، ردّ سانتي. «ليستغرق ذلك ما يستغرقه.»

*

في باحات الحُمَّر، رفع السائس يوسف يده ملوّحًا لها بالتحيّة. «هَيا، لقد عدتِ!»، قال مبتسمًا. «أكيد أنّك هنا لتساعديني على تنظيف المرابط، صحّ؟»

«ليس اليوم يا يوسف»، أجابته وهي تردّ له الابتسامة.

كان سانتي قد أعاد بري إلى مربطها القديم شمال الباحة الأولى. حين وصلت هَيا إلى المربط، رأت سايسًا مع المهرة، ينظّف التبن الرطب ويضعه في عربة يد. لم يكن يفوقها سنًّا بكثير. بنيته نحيفة، شعره أسود وعيناه رماديّتان. حين رأى هَيا تطلّ من خلف باب الإسطبل، اتّسعت عيناه وكأنّه طريدة لمحت للتوّ صقرًا.

«مرحبا، أنا هَيا.»

بدا الولد مصدومًا. ارتبكَ وهو يحاول أن ينحنيَ لتحيّتها.

«أعرف، سموّكِ.»

«هل استقرّت بري وكلّ شيء تمام؟»

«بري؟»، قال الولد وقد بدا مرعوبًا.

«هذه هي الكنية التي أطلقها عليها»، قالت هَيا وهي تنظر نحو المهرة خلفه.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«آه نعم، بنت الريح تأقلمت في المكان، سموّك.»

«ومنذ متى أنت تعمل هنا؟»، سألت هَيا الولد.

«منذ شهر»، قال، «أقصد، منذ شهر سموّك».

«كم عمرك؟»

«أربعة عشر عامًا، سموّك.»

«وما اسمك؟»

«زين، سموّك.»

«حسنًا، زين، دعنا نتّفق على شيء. لستَ مضطرًّا لقول سموّك في كلّ جملة.»

«نعم، سموّك. أقصد لا، سموّك. أقصد نعم!» كان زين مرتبكًا إلى درجة أنّه شعر بحملٍ ينزاح عنه عند دخول سانتي الذي أتى لاصطحاب بري إلى حلبة التدريب.

«السائس الجديد غريب»، قالت هَيا لسانتي ما إن أصبحا وحدهما مع بري. «أعتقد أنّه لا يحبّني.»

«زين؟»، قال سانتي مبتسمًا. «هو يشعر بالهيبة فقط لا غير.»

«لماذا؟»

«لأنّه لم يسبق له أن قابَل ابنة ملك.»

*

توقّعت هَيا أن يدخل سانتي معها إلى حلبة التدريب، ولكن، عوضًا من ذلك، اتّكأ على السياج واكتفى بتقديم الإرشادات لها من بعيد.

اليوم ستتعلّم بري أن تضع اللجام. المهرة معتادة على الرسن، لكنّ اللجام جديد عليها. أزلقت هَيا اللجام على رأس بري ومرّرته فوق خطمها، فأزاحت المهرة رأسها.

«لا عليكِ»، قال سانتي. «حاولي أن تحيطي خطمها بإحدى ذراعيك وأنت تمرّرينه.»

حاولت هَيا فتح زاويتَيْ فم بري التي ثبّتت رأسها أخيرًا. بعد عدّة محاولات، توصّلت إلى فتح فم المهرة بما يكفي لتزلق الشكيمة بين فكّيها. لفّت هَيا الطوق بينما كانت بري تلوك وتحكّ متحسّسة قطعة المعدن في فمها.

«هذا طبيعيّ جدًا، إستجابتها جيّدة»، طمأن سانتي هَيا.

بعد عدّة دقائق، نزعت هَيا اللجام وحاولت وضعه مجدّدًا. هذه المرّة، تقبّلت المهرة الشكيمة من دون متاعب تُذكَر. «هذا جيّد جدًّا»، قال سانتي. «انزعيه مجدّدًا ثمّ ردّيها إلى مربطها، هذا كلّ شيء لليوم.»

تفاجأت هَيا. لم يمضِ عليهما نصف ساعة في حلبة التدريب. «الحصان يروَّض من دون معارك»، قال سانتي، «بهدوء وبرويّة. أعيديها إلى المربط وأعطيها بعض الطعام. دعيها تشعر أنّها تُكافَأ لأنّها كانت مطيعة.»

*

في اليوم التالي في حلبة التدريب، وَضَعا اللجام مجدّدًا. ظلّت بري تلوك المعدن، لكنّها كانت هادئة إلى حدٍّ ما. برأي سانتي، أصبحت جاهزة لبطّانيّة السرج. «لا تنسي أنّ كلّ ما يثقل ظهرها هو أسد بالنسبة إليها»، ذكّرها سانتي. «دعيها تشعر بالأمان. مرّغي البطّانيّة بظهرها لترى أنّها لن تؤذِيَها.»

بدايةً، تشنّجت عضلات بري، لكنّ هَيا ظلّت هادئة، وواظبت على تدليك كتفَيِ الفرس ورقبتها بقطعة القماش، إلى أن هدأت، حتّى إنّها لم تحرّك ساكنًا حين بسطت هَيا البطّانيّة على ظهرها.

«جيّد جدًّا.» كان سانتي مُتّكئًا على سياج حلبة التدريب يراقبهما.

«دلّعيها قليلًا ثمّ أعيديها إلى الإسطبلات.»

في اليوم التالي، كرّرا الروتين ذاته. فيما كانت بري تمشي بهدوء وبطّانيّة السرج على ظهرها، توقّعت هَيا أن يعلن سانتي انتهاء الحصّة، إلّا أنّه فاجأها قائلًا: «أعتقد أنّها أصبحت جاهزة للسرج».

السرج إنكليزيّ، قديم جدًّا ومصنوع من الجلد البنّيّ القاسي، وثقيل إلى حدٍّ ما. رفعته هَيا بصعوبة بالغة لتضعه على ظهر بري. حين شعرت بالثقل على ظهرها، تهاوت بري إلى الأمام وكأنّها ستنهار على ركبتيها، بينما ظهرت على وجهها علامات الانزعاج، وأصدرت بعض الكرير من حنجرتها. أبقت هَيا يدها على عنق المهرة وظلّت تحادثها حتّى تطمئنّ. ثمّ، برفق، مدّت يدها تحت

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

بطن بري وأمسكت بطرف حزام السرج، ورفعته على مهل، وربطته بطرفه الآخر.

«ضيّقي الطوق حلقةً واحدة بعد، اجعليه أكثر إحكامًا حتّى لا ينزلق»، نصحها سانتي. «أوكـي، الآن اعقدي اللجام على رقبتها وأفلتيها.»

اعتقدت بري أنّ بوسعها التخلّص من السرج إذا ما ركضت، فاندفعت إلى الأمام بسرعة، لكنّ السرج ظلّ في مكانه. هزّت رأسها وقامت بشبّة فاترة، محاولةً التخلّص من الحيوان الغريب. باءت كلّ محاولاتها بالفشل فرضخت وأخذت تُهروِل في الحلبة. «أرأيت كيف إنّها تختبر الحدود أوّلًا ثمّ تتأقلم؟»، قال سانتي لهَيا. «هي ذكيّة، حتّى بالنسبة إلى خيل عربي.»

«هل أفكّ السرج وأعيدها إلى مربطها الآن؟»، سألت هَيا.

«كلّا»، قال سانتي هازًّا رأسه بالنفي. «أعتقد أنّ عليك امتطاءها اليوم. أنظري كم هي هادئة. إنّها جاهزة.»

جاء السيّاس الآخـرون للتفرّج على سانتي وهَيا. بالإضافة إلى يوسف، كان هناك راضـي، السائس الهزيل، وعطا، البدويّ الذي تقوّست ساقاه لكثرة ما قضى من حياته فوق السرج. اتّكأوا جميعًا على السياج مع السائس الجديد زين.

كان من المفترض أن تشعر هَيا بالتوتّر، وكلّ هذه العيون منصبّة عليها. لكنّ الغريب هو أنّ ذلك لم يحدث، إذ ما إن دخلت الحلبة،

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

حتّى اختفى العالم كلّه من أمامها. لم يعُد هناك سواهما هي والفرس. تقدّمت بري من هَيا ودفنت رأسها في صدر الفتاة وكأنّها تقول لها: «الحمد لله أنّك هنا! هناك شيء ما عالق على ظهري...».

همست هَيا ببعض الكلمات في أذن بري وهي تلفّ حولها وتربّتُها لتشعر المهرة بلمستها. ثمّ رفعت ذراعها على السرج وقفزت، متّكئة ببعض ثقلها على ظهر بري. بقيت هكذا لوهلة، ثمّ حطّت مجدّدًا على الأرض برفق. بدت بري سعيدة نوعًا ما، فأعادت هَيا الكرّة، ولكنْ، هذه المرّة، استلقت على السرج تمامًا بكلّ ثقلها. كان جسدها يغطّي السرج وكأنّه كيس من البذور طُرح بعنفٍ على ظهر بغل.

أدارت بري رأسها لتشمّ هَيا وكأنّها تقول لها «هاي! ماذا تفعلين هنا؟». ملأ الفضول عينيها بينما داعَبَتْ بفمها شعرَ هَيا الطويل الداكن.

«أعتقد أنّ بإمكاني الآن محاولة امتطائها جالسة»، قالت هَيا. «ما رأيك؟»

«أنتِ أكثر شخص يعرفها»، قال سانتي. «ثقي بغريزتك.»

إذا كانت بري غير جاهزة بعد لتلك الخطوة، ستتوتّر ما إن تركب هَيا على ظهرها وستطرحها أرضًا كما فعلت في فناء البولو، لينتهيَ الأمر بهَيا مرميّة على أرض حلبة التدريب، فيذهب كلّ تعبها خلال الأسابيع الماضية سدًى.

«ما رأيك، بري؟»، تَمْتَمَتْ. «هل أنت جاهزة؟»

مدّت هَيا ذراعيْها، وأمسكت طرفَي اللجام بيديها، قبل أن تلكز الفرس بنعومة برجلها اليمنى وتطوّحها بمهارة فوق ردفَيْ بري. وها هي ذي، فوق، على السرج، تمتطي فرسها.

لم تتململ بري. هذه المرّة، اختلف الأمر. فوق ظهر بري، أحسّت هَيا بما يستحيل على أيّ فارس يمتطي فرسًا غير مروّضة الإحساس به: الأمان.

كانت بري تتشمّم قدم هَيا في الرِكاب كما لو أنّها تقول لها: «والآن ماذا تفعلين فوق ظهري؟»

ربّتت هَيا عنق بري. «لن أؤذيَك»، طمأنت المهرة. «سنذهب في جولة قصيرة، يا بري، بضع خطوات فقط، لا أكثر ولا أقلّ.»

في البدء، كانت المهرة متشنّجة، وكأنّها تحبس أنفاسها، ولكن بعد دورة واحدة حول الحلبة، بدت وكأنّها بالكاد تشعر بوجود فارس فوق ظهرها. وكلّما لامست ساقا هَيا جنبيْها، تجاوبت المهرة فورًا وخبّت إلى الأمام، برأسٍ مرفوعٍ وأذنين منتصبتين، وذنب مرفوع وكأنّه يرفرف خلفها.

سارت هَيا على إيقاع بري، ومن ثمّ، حين شعرت بأنّ المهرة جاهزة، غرقت في السرج تمامًا، وبقلب خافق، طَقْطَقَتْ بلسانها، فانطلقت بري تجري.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

جري بري رقيق وخفيف كالهواء. أغمضت هَيا عينيها، وهي تشعر بالخطوات تحتها كالموج.

يعيش الفرسان حياتهم وهم يحلمون بترويض فرس. هَيا قامت بذلك، وحدها، وهي لا تزال في الحادية عشرة من عمرها. هي أوّل مَن يعتلي هذه الفرس وهي الوحيدة التي اعتلَتها. لقد روّضت الريح.

*

«بابا!» ركضت هَيا عبر أبواب الندوة، ووجهها متورّد من الحماسة. لم تعد تطيق الانتظار. تريد أن تخبر والدها.

كان قلبها يرفرف من السعادة وهي تعبر الرواق تحت صُوَر الملوك. لَمَحَتْ علي يتقدّم في اتّجاهها، فابتسمت.

«علي! لقد فعلتُها! روّضتُ بري. أين بابا؟»

«بابا في الغرفة الزرقاء»، قال علي.

ثمّ انتبهت لتعابير وجهه. «ما الأمر؟ هل حصل شيء ما؟»

«سمعتُ بابا يتحدّث مع فرانسيس.»

«عن ماذا؟ علي؟ قل لي!»

«سيرسلونك بعيدًا!» كان صوت علي يرتجف ووجهه مبلَّلًا بالدموع.

«هَيا، ستذهبين إلى مدرسة داخليّة.»

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الفصل الثاني عشر

الغربة

«كلّ هذا لأنّني حشرت علي في مصعد الخدمة؟»، قالت هَيا وهي تحاول حبس دموعها.

«أكيد لا، هَيا»، أجابها والدها.

«إذًا لأنّ فرانسيس أخبرَتْك أنّني حاولت أن أتزحلق على درابزين الدرج؟»، سألته هَيا وهي تنشج. «لم أكن لأتأذّى أصلًا، فقد وضعت الخوذة على رأسي يومها.»

«في الحقيقة»، قال والدها، «لم أكن أعرف شيئًا عن تلك الحادثة بالذات.» أخذ هَيا بين ذراعيه. «هذا ليس عقابًا على خطأ ارتكبتِه. لقد سبق وتحدّثنا عن ذلك، والآن، حان الوقت. أنتِ في الحادية عشرة من عمرك، ومستقبلك أمامك. مسؤوليّتي هي أن أحضّرك بأفضل طريقة ممكنة لمواجهة هذا المستقبل. وأفضل تعليم قد تحصلين عليه هو ذلك الذي يقدّمونه في إنكلترا.»

ذلك هو التقليد المُتَّبَع. بابا ارتاد مدرسة «هارّو أند ساندهورست». ماما تلّقت تعليمها في لندن. الآن، حان دور هَيا لتحصيل العلم في الخارج.

«أرجوك بابا»، قالت هَيا متوسّلة. «سأسمع كلمة فرانسيس. سأدرس بجهد وأنجز فروضي جميعها. أريد أن أبقى هنا معك ومع علي.»

«أنا أيضًا أريدك أن تظلّي معي»، قال الملك. «لكنّني لا أستطيع أن أبقيَكِ هنا. عليّ القيام بواجبي. فرانسيس تقول إنّك تبلين حسنًا في دروسك، لكنّك تحتاجين إلى مدرّسين متخصّصين في العلوم والرياضيّات واللغات. لقد تجاوزْتِ الحادية عشرة من عمرك ونتائجك الدراسية ممتازة. يجب أن تشعري بالفخر لأنّه تمّ قبولك في بادمينتون، فهي مدرسة عالية المستوى.»

«وماذا عن بري؟»، سألت هَيا وسط نشيجها المستمرّ.

«قسم الفروسيّة في بادمينتون ممتاز.»

انتعشت هَيا فجأة. «إذًا أستطيع أن آخذها معي؟»

«كلّا»، قال الملك. «لكِنْ، لديهم هناك خيول أخرى.»

«لا أريد خيولًا أخرى»، قالت هَيا. «لا أريد أن أذهب.»

*

تفتح المدرسة الداخلية أبوابها في سبتمبر، ما يعني أنّه لم يتبقَّ لهَيا سوى ثلاثة أشهر في الندوة. أخذت تتشبّث بالأيّام، محاوِلةً إبقاءها متوهِّجة كالشمعة بنارٍ لا تنطفئ. لكنّ الزمن يمضي بسرعة، والوقت يمرّ ولا تستطيع إيقافه. أصبحت تقضي كلّ دقيقة تتوفّر لها مع بري. ما إن تطلق فرانسيس سراحها بعد الدروس، حتّى تقصد الإسطبلات مباشرة.

في معظم الأيّام، يكون زين هناك، في مربط بري. قالت له مئة مرّة إنّها تستطيع تنظيف المربط بنفسها، لكنّه يصرّ على إتمام ذلك قبل وصولها. وينظّف بري أيضًا، فتبرق فَرْوة الفرس بلمعة لم ترَ هَيا مثلها من قبل.

«ماذا تفعل لتجعلها تلمع هكذا؟»، سألته، فأطلعها زين بحياء على حيلته: خصلة صنعها من القشّ. «تستخدمينها هكذا»، قال، وهو يدلّك المهرة بحركات دائريّة سريعة.

«مَن علّمك أن تصنع هذه الخصل؟»

«والدي، سموّك. لقد علّمني كلّ شيء عن الخيول. قال لي مرّة إنّ الشركسيّ يولَد فارسًا. نحن فرسان بالفطرة.»

«هل لدى والدك خيول؟»

«والدي مات عندما كنت في السابعة من عمري»، قال زين بصوت ضعيف، خافت، بالكاد تمكّنت هَيا من سماعه. «لقد قُتل في أيلول الأسود.»

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

تردّد صدى حزنه ألمًا حادًّا في معدتها. «أنا آسفة جدًّا»، قالت. «أكيد أنّك تشتاق إليه كثيرًا.»

أخذ زين نَفَسًا عميقًا. وحين تكلّم مجدّدًا، كان صوته قد عاد قويًّا. «تقول والدتي إنّه كان ليفخر بي كثيرًا لو عاش ليَراني أعمل في إسطبلات الملك. أنا أقيم معها ومع أختَيّ، وما أجنيه من راتبي هو ما يُعيلنا جميعًا.»

فتّش في جيب بنطاله الخلفيّ وانتشل منه محفظة جلديّة رثّة. فَتَحَها وأطلع هَيا على صورة في داخلها.

«هذه والدتي وهاتان أختاي»، قال زين. «هما في المدرسة الآن. كانتا طفلتين حين توفّي والدي...»

نظرت هَيا إلى الصورة. «والدتك جميلة جدًّا»، قالت لزين. وتلقائيًّا، بدأت تتحدّث عن والدتها هي أيضًا. «صُوَر أمّي تملأ القصر. بابا يحكي لي القصص عنها. أفكّر فيها طوال الوقت، ولكن مع ذلك... لا أستطيع أن أتذكّرها، على الأقلّ ليس بشكل واضح.»

تلك كانت المرّة الأولى التي تعترف هَيا بذلك لنفسها، إضافةً إلى قول ذلك بصوت عالٍ. ما إن فعلت، حتّى بدا لها وكأنّ بعض الحِمْل قد انزاح عن صدرها.

«أنا أذكر والدي»، قال زين. «لا أعرف إن كان ذلك أفضل أم أسوأ.» نَظَرَ إلى هَيا وعيناه الرماديّتان غارقتان في حزن الخسارة: «لم أتخيّل أن تكوني هكذا.»

«أن أكون كيف؟»

«هكذا... إنسانة عاديّة.»

مدّت هَيا يدها وربّتت خطمَ بري. «لِذا أعشق هذا المكان. الخيول لا تأبه لكَوْني أميرة. ولا شيء يمنع سانتي ويوسف من إعطائي مكنسة لأنظّف الباحة.»

*

الآن وقد عادت إلى الحُمَّر، لم تَعُدْ هَيا مضطرّة إلى تحمّل دروس مسز غودار. أصبح سانتي يرافقها كلّ يوم إلى الحلبة لمساعدتها على ترويض بري.

«على بري أن تتقبّل الشكيمة، وأن تتصرّف كفرسٍ مروَّضة عن حقّ»، شرح سانتي لهَيا. «يجب أن تصل إلى مرحلة التجاوب مع أقلّ لمسة.»

هذا ليس سهلًا مع فرس مثل بري. صحيح أنّها فرس ملتزمة وذكيّة، لكنّها أيضًا تفتقر تمامًا إلى الخبرة. على هَيا أن تلقّنها كلّ شيء من الصفر. شرح لها سانتي كيف تستخدم ساقَيها لدفع المهرة ليس فقط إلى الأمام ولكن يُمْنَةً ويُسْرَةً أيضًا. كذلك، علّمها كيف تضبط إيقاع بري. بإشارة صغيرة، كنقرة خفيفة من كعبها، أو بشَدّةٍ ناعمة على اللجام، أصبحت بري تنطلق أو تتوقّف تمامًا عن الحركة. أحيانًا، تتصرّف بري ببعض الجحود. حين تُربكها إشارات

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

هَيا، تشبّ معترضةً وكأنّها تقول: «حقيقةً، لا أفهم ما تريدينه منّي بالضبط!».

«أترين كيف تعبّر لك عمّا تشعر به؟»، يقول سانتي حين تقوم بري بتلك الحركة.

«بري لا تتصرّف بشقاوة، إنّها تخاطبك. كوني دائمًا واضحة معها لتفهم ما تريدينه. الأمر يتعلّق بتطوير لغة مشتركة بينكما. هكذا تُروَّض الخيل.»

«ترويض» هَيا يقترب أيضًا. الفصل الجديد في بادمينتون على وشك أن يبدأ.

«لا أريد أن أذهب»، قالت لزين.

كانا ينظّفان بري معًا، وخرجت الكلمات من فم هَيا قبل أن تستطيع إيقافها.

«إذًا، لا تذهبي»، قال زين. «إبقي هنا. التحقي بمدرستي. ستحبّينها.»

تنهّدت هَيا. «الموضوع ليس بهذه البساطة. والدي تلقّى تعليمه في إنكلترا وماما أيضًا. هذا هو التقليد وعليّ أن أحترمه. هذا واجبي.»

مدّت يدها وربّتت خطمَ بري. فكرة ابتعادها عن فرسها لا تُحتَمل.

«ألا تتمنّين أحيانًا أن تتحرّري من الواجب؟»، سألها زين.

«ماذا تقصد؟»

«يعني، هل تتمنّين لو أنّك لم تكوني أميرة؟»

فاجأها سؤال زين. «أبـدًا!»، أجابت وهي تهزّ رأسها. «عائلتي هي التي أستمدّ منها قوّتي. والدي ووالدتي علّماني معنى أن أشعر بالحبّ الحقيقيّ وبالإخلاص تجاه وطني وشعبه. الخيول ليست مَهرَبي. أصلًا أنا لا أحتاج إلى الهروب. الخيول هي الشيء الذي أُعبِّر من خلاله عن نفسي. حين أركب الخيل، أكون أنا.»

كان زين يحدّق إليها وهي تتكلّم، فشعرت فجأة ببعض الحَرَج وخفضت نظرها في اتجاه أصابع قدميها. «أنا أتكلّم كثيرًا. ناولْني الشوكة ودعْني أساعدك على تنظيف المرابط.»

بري لا تعلم أنّ هَيا راحلة. وكيف لها أن تعلم؟ لكنّها تشعر بأنّ شيئًا ما سيتغيّر. ما إن تصل هَيا إلى المربط، تستقبلها بالحَمْحَمَة والصهيل. تبدو وكأنّها على حافّة البكاء، وكأنّها تعرف أنّ هذه قد تكون المرّة الأخيرة التي تراها فيها.

«غدًا أسافر إلى إنكلترا»، قالت هَيا لزين، «وأريد منك خدمة».

«طبعًا، أيّتها الأميرة هَيا. أنا تحت أمرك.»

«أريدك أن تهتمّ ببري وأن ترعاها. أريدك أن تكون الوحيد الذي يمتطيها في غيابي. أريـدك أن تكون سائسها وأن تعتنيَ بها وأن تكتب لي وتطمْئِنَني عنها.»

«لا تشغلي بالك من هذه الناحية.»

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«أنا أعني ذلك بجدّيَّة، زين، عليك أن تعدَني.» وعضّت هَيا على شفتها محاوِلةً كَبْتَ دموعها. «عِدْني أنّك ستهتمّ بها وكأنّها فرسك. إذا وقع لها مكروه...»

«ستكون بخير»، قال زين. «سأحميها وأهتمّ بها إلى حين عودتك، أيّتها الأميرة. أعدك بذلك.»

*

عدّلت هَيا ياقتها القاسية فوق بلوزتها، وتصارعت مع عقدة ربطة العنق المدرسيّة. لم تكن معتادة على ارتداء الزيّ المدرسيّ، والربطة ستخنقها. ثمّ انحنت وشدّت جواربها الطويلة حتّى الركبة والتي ظلّت تنزلق حتّى كاحلها.

في الحديقة، تحلّقت فتيات يرتدين سترات ويضعن قبعات من القشّ في مجموعات. كنّ يتهامسن ويتصرّفن بتحفّظ، مدّعيات أنّهنّ لم يلاحظن وصول الفتاة الجديدة. وكيف بإمكان أحد الادعاء بأنّه لم يلاحظ وصول سيّارتَي الليموزين الضخمتين بزجاجهما الداكن واللتين تحملان علمَيْ بريطانيا والأردن؟

«هل أنتِ جاهزة، أيّتها الأميرة؟» كان الرجل الجالس إلى جانبها ببزّته الكحليّة يتحضّر لفتح الباب فيما هَيا تعبث بربطة عنقها.

هزّت رأسها بتوتّر، فتحدّث عبر الجهاز اللاسلكيّ مع السيّارة الأخرى أمامه قائلًا: «سندخل الآن».

فتح الباب فنزلت هَيا، محاطةً بحارسَيْن، سَبَقَهما ثالثٌ وقف في وسط الطريق بانتظارهم. عبرت الممشى وهي تحاول الابتسام وتجاهُل نظرات الفتيات المتفحّصة. لم يكن يكفيها حارسها القديم الذي يتبعها كظلّها في القصر، حتّى تقرّر الحكومة البريطانيّة الآن، بعدما وصلت إلى إنكلترا، أن تعيّن لها ليس شخصًا واحدًا بل ثلاثة ليتناوبوا على حراستها. أليس هذا كثيرًا بعض الشيء على فتاة ترغب في أن تتأقلم في مكان جديد وفي أن تكون فتاة عاديّة؟

مبنى المدرسة الأساسي هو قصر مهيب يعلو جدرانَهُ نباتٌ ليلكيٌّ متعرّشٌ، وتحرس الممشى المفضي إلى بوّابته الأساسية منحوتةٌ ضخمةٌ على شكل إجاصة. كلّ هذا إنكليزيّ جدًّا، تمامًا مثل ذلك الرجل الذي يرتدي كنزة من صوف التويد ويقف عند الدرج بانتظارها.

«صباح الخير، هَيا.» استوقَفَتْها تحيّة المدير الذي تَعَمَّدَ عدم ذكر لقبها الملكيّ، في حين كان مطلوبًا منها أن تنادِيَهُ بمستر غولد.

«لقد تحادثْنا مطوّلًا مع مربّيتك»، قال مستر غولد. «أصرّت على أنّك فتاة عاديّة وعلى أنّنا يجب أن نعاملك على هذا الأساس.»

هل كان ذلك حقًّا ما قالته فرانسيس؟

أم إنّها قالت بين السطور: «الأميرة هَيا طفلة مدلّلة. أحرص على تحجيمها، وإلّا سيكون لديك عفريتة كبيرة»؟

ممّا لا شّك فيه أنّ المدير كان يبذل جهدًا كبيرًا خلال جولتهما، وهو يسرد عليها رزمة القوانين والقواعد، ثمّ يتلو عليها درسًا حول

منع التجوّل والعواقب التي قد تلحق بمَن يحاول تجاوز الأسوار من دون إذن. هنا، بدأت هَيا تتساءل إن كانت تلك مدرسة أم سجنًا.

وجود الحرّاس زاد الطين بلّة، إذ أخذ هؤلاء يتصرّفون كما لو أنّ هناك بالفعل مجرمين متربّصين خلف السور العملاق أو في غرفة تغيير الملابس المُلْحَقة بقاعة الرياضة.

«ستنزلين في إحدى غرف المهجع مع اثنتي عشرة فتاة»، قال مستر غولد. «لقد وفّرنا أيضًا لفريق الأمن الخاصّ بِكِ غرفةً في جناح آخر.»

من الخارج، بَدَتْ مدرسة بادمينتون مهيبة وقاتمة، ولكن في الداخل، فوجِئَت هَيا حين رأت الأروقة وغرف الصفوف مطليّةً بلون أصفر مشرق يتخلّله شريط أزرق. بعد أن استعرض كلّ القواعد أمام هَيا من دون أن تصدر عنها أيّ إشارة احتجاج، ارتاح مستر غولد قليلًا حتّى إنّه أطلق بعض النكات، باللاتينيّة طبعًا، وهو يُطلع هَيا على صفوف العلوم، والرياضيّات واللغات. كادت الجولة أن تنتهِيَ ولم يلمحوا حصانًا واحدًا بعد. عندها فقط، قالت هَيا: «هل نستطيع أن نرى الإسطبلات، لو سمحْتَ؟»

«آه»، قال مستر غولد. «قيل لنا إنّك فارسة من الطراز الأوّل. أنا متأكّد من أنّك ستحبّين دروسنا الأسبوعيّة هنا في بادمينتون.»

كانت الإسطبلات تقع خلف المدرسة مباشرة. وعندما عرّفوها إلى مدرّب متورّد الخدّين يرتدي سترة من صوف التويد، شعرت

بأنّه سيكون هناك مسز غودار جديدة في حياتها. أمّا بالنسبة إلى الأحصنة نفسها، فهي مخلوقات غاية في الغرابة! ضخمة وبطونها كبيرة، تبدو الدبّاباتان هيكليْن عظميَّيْن أمامها! بعضها سمين إلى درجة أنّ هَيا تساءلت إن كانت ساقاها طويلتين بما فيه الكفاية لتحيطا ببطنها. عيونها كعيون الظبْيَة، وتبدو دائخة ونعسانة، عكس بري وخيول الأردن العربيّة الممشوقة السيقان والمتنبّهة دائمًا.

بَدَتْ غريبة، تمامًا كما بدت هَيا في مهجعها، بين تلك الشقراوات بعيونهنّ الزرقاء وسيقانِهِنَّ الممشوقة.

لم يسبق لهَيا أن عقدت الصداقات مع بناتٍ من جيلِها.

الآن، في غرفة المنامة الواسعة، رأَتْ نفسها فجأةً محاطةً باثنتَيْ عشرة منهنّ. رغم ذلك، لم تشعر يومًا بالوحدة كما شعرت بها في تلك اللحظة. كنّ يلهون بانسجام. جلسْنَ على أسرّتهنّ يتضاحكْنَ ويتهامسْنَ ويجدلْنَ شعور بعضهنّ بعضًا. لم يخطر على بال أيٍّ منهنّ أن توجّه الحديث إلى الأميرة.

شغلت هَيا نفسها بتوضيب أغراضها وتعليق زيّها المدرسيّ في الخزانة. تناولَتْ دول، رفيقة عمرها، من شنطتها وأسنَدَتْها إلى المخدّة في سريرها. ثمّ سحبت كتبها وسرحت بنظرها على المرجة الخضراء المشذّبة خلف النافذة. فكّرت في بابا وعلي. ماذا تُراهما يفعلان الآن في الندوة؟ حين فكّرت في بري، شعرت بوخزة حادّة في قلبها. لقد ودّعت المهرة قبل أن ترحل، لكنّ بري لن تفهم لماذا لم

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

تأتِ هَيا لزيارتها في اليوم التالي ولا في ذلك الذي تلاه. ستعتقد أنّ هَيا تخلّت عنها. وهذا آخر ما قد تفعله هَيا.

كلّ شيء غريب في بادمينتون. ذلك المساء، في غرفة الطعام، سألت هَيا الطبّاخة عن اسم الطبَق الذي تقدّمه، فوجّهت المرأة إليها نظرة احتقار وكأنّها معتوهة. «هذه نقانق: نقانق وهريس. ما الأمر؟ ألم تري نقانق من قبل؟»

جلست هَيا تتناول طعامها وحدها، محاوِلَةً تفادي التقاء نظرتها بنظرات الفتيات الأخريات. حدّقت إلى طَبَقِها وابتلعت ما فيه من طعام، كلّ لقمة بغصّة، إلّا أنّها عجزت عن تناول النقانق وأبعدتها إلى طرف الطبق. فهي تكره اللحم. وبمناسبة الحديث عن اللحم، الأمر الوحيد الذي بالتأكيد لن تشتاق إليه هو وجبات الطعام المنحوسة مع فرانسيس.

كانت فرانسيس تعرف تمامًا لماذا تكره هَيا اللحم الأحمر، لكنّها كانت، رغم ذلك، تسكب لها قطع اللحم الكبيرة أو تلك الصغيرة، وتمنعها من مغادرة الطاولة قبل تناولها. وإذا ما رفضت هَيا، كانت تعيد اللحم إلى الثلّاجة، ثمّ تقدّمه إليها مجدّدًا في اليوم التالي، وعند كلّ وجبة عشاء، إلى أن يصبح عتيقًا وقاسيًا كالنعل. أحيانًا، عندما كانت هَيا تصرّ على عدم تناول اللحم، كانت فرانسيس تُرسلها إلى غرفتها كعقابٍ لها، غير مُدرِكة أنّ زهير، أو أحد العمّال في المطبخ، سيخالف أوامرها ويهرّب لهَيا الطعام.

لا بدّ أنّ فرانسيس تطير من الفرح الآن. لعلّ هذا ما كانت تتمنّاه طوال الوقت في سرّها: هَيا بعيدة من العين، بعيدة من الدرب.

بعد العشاء، اتّصل بابا بها، وافيًا بوعده. لم يكن مسموحًا لها شغل التلفون لمدّة طويلة، فالأنوار ستُطفَأ عمّا قريب. أرادت أن تبكِيَ على الخطّ وأن تصرخ بأعلى صوتها أنّها تكره هذا المكان وأن ترجوَهُ ليُعيدَها إلى المنزل. لكنّها، بالطبع، لم تفعل شيئًا من هذا. فهي تدرك أنّ ذلك سيحزنه وهي لا تريده أن يقلق عليها. «كلّ شيء تمام»، قالت له، «كلّ شيء تمام». شعر والدها بنبرة القلق في صوتها فطَمْأَنَها أنّه ما إن تبدأ الدروس ستتأقلم وستعتاد على الجوّ وستُنشِئ صداقات. ولكن، حين تناول علي منه السمّاعة وأخبرها كم إنّه مشتاق إليها، لم تستطع أن تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء.

الحنين يقتلها. تشتاق إلى القصر وإلى بابا وإلى علي. وبري... كم تشتاق إلى بري!

أغلقت الخطّ وعادت إلى سريرها. في حياتها لم تَنَمْ في الغرفة نفسها مع أحد عشر غريبًا. وكيف لأحد أن ينام والغرفة تضجّ بالهمسات والأحاديث؟ كانت الرئيسة تتفقّدهنّ من وقت إلى آخر وتطلب منهنّ أن يصمتْنَ، ولكن ما إن تُدير ظهرها حتّى يبدأْنَ بالثرثرة من جديد. مرّ دهرٌ قبل أن يحلّ الصمت تمامًا في الغرفة. لقد غفت جميع الفتيات. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل حين قامت الرئيسة بجولتها الأخيرة، فتجرّأت هَيا على مغادرة سريرها مجدّدًا.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

جلسَتْ على الأرض بجانب السرير. فتحَتْ قفل شنطتها بهدوء، وانتشلَتْ منها علبة الكنز. كلّ شيء فيها لا يزال على حاله. مارسَتْ روتينها المألوف، وهي تتحسّس الأشياء في عتمة المهجع، وتتناول كلّ قطعة بطريقة منهجيّة لتضعها جانبًا، مستعرضةً محتويات العلبة وكأنّها موظّف الأرشيف في متحفٍ ما. ها هي نظّارات ماما الشمسيّة، أشرطة الكاسيت، والورود المجفّفة. حين تناولت ضفيرة الشعر الأسود كالفحم التي قصّتها من ذنب بري، شعرت بوجعٍ يمزّق قلبها.

أخيرًا، تناولت صورة لها ولماما، بالأسود والأبيض، مفتّتة الأطراف. منعتها العتمة الشديدة من رؤية تفاصيلها. الدموع أيضًا شوّشَت نظرها. قبّلت هَيا الصورة، ثمّ وضعتها ثانية في العلبة مع باقي محتويات الكنز. صعدت إلى السرير مجدّدًا وهي تعانق دول. بكت قليلًا، بهدوء حتّى لا يسمعها أحد. تبلّلت مخدّتها بالدموع، وتسلّلت رطوبة باردة إلى خدّها وهي تغرق في النوم.

الفصل الثالث عشر

السنة الأولى في بادمينتون

حاولت هَيا أن تتفادى النظر في عيون التلميذات المقيمات الأُخْريات. وضعت في صحنها بعض البيض المخفوق وتناولت قطعة من الخبز، ثمّ توجّهت نحو طاولة فارغة. أحسّت بحرَجٍ شديد لجلوسها هكذا، وحيدة، إلّا أنّ خجلها منعها من محاولة الانضمام إليهنّ. لذا ركّزت على طعامها بشدّة، وانكبّت على الصينيّة أمامها محاولةً تجاهل كلّ ما يحيط بها. ركّزت إلى درجة أنّها لم تلحظ فورًا تلك الفتاة الواقفة إلى جانبها.

«مكانَكِ، ما كنت لأتناول هذا الشيء.»

التفتَتْ هَيا نحو الصوت لترى إحدى شقراوات المهجع.

«عفوًا؟»، قالت هَيا.

ألْقَتِ الشقراء نظرة ذات مغزى على صديقاتها الجالسات إلى الطاولة الأخرى. كُنّ أربعًا، متحلّقات حول طاولة واحدة، يُطلقْنَ ضحكات مكتومة ويحدّقن إلى هَيا.

«أتحدّث عن هذا البيض»، قالت الشقراء. «لا عليكِ. جميع الفتيات الجديدات يقعْنَ في هذا الفخّ. مع الوقت، ستكتشفين بعض الأشياء، ومنها هذه: إيّاك والبيض المخفوق هنا، فطَعْمُه كالنعال. الشطارة في تجنّبه. أمّا كيف تقومين بذلك؟ فأمر بسيط. تناولي حصّتين من النقانق بدلًا منه. طبعًا، ذلك لن يعجب الطبّاخين. سيرمقونك بتلك النظرة المؤنّبة. تجاهليها، فقط ابتسمي ببراءة. نصيحة أخرى بعد: خذي قطعة خبز إضافية.»

ثمّ سحبت الشقراء كرسيًا وجلست إلى الطاولة بجانب هَيا.

«اسمي كلير بوث»، قالت. «وأنتِ... جلالتك؟»

«والدي هو جلالته»، أجابت هَيا. «أنا الأميرة هَيا.»

«واو!»، قالت كلير بوث. «الأميرة هَيا.» صاحت وهي تكرّر العبارة متلذّذة بوقعها، ثمّ التفتَت إلى الخلف ورمقت صديقاتها اللواتي كنّ يحدّقن وكأنهنّ لا يصدّقن أعينهنّ.

«جميعهنّ خائفات من الاقتراب منك والتحدّث معك»، قالت. «يعتقدن أنّك مغرورة لأنّك أميرة، لكنّك لست كذلك، صحيح؟»

عبست هَيا. هي لا تعرف بالتحديد معنى كلمة مغرورة. أكيد أنّها صفة غير لطيفة.

«هل تعيشين في قصر؟»، سألت كلير.

«نعم، لكنّه مثل منزل في الحقيقة»، أجابت هَيا.

«أكيد أنّه كبير جدًّا!»، قالت كلير. «هل لديكم الكثير من الخدم؟ نحن لدينا مدبّرة منزل تأتي مرّتين في الأسبوع. طبعًا حين كنت صغيرة كان لديّ مربّية، ولدينا جنائنيّ يأتي من حين إلى آخر، ولكن ليس لدينا خدم ولا حشم ولا شيء آخر فخم كهذا. والدي طبيب جرّاح. لسنا فاحشي الثراء مثل بعض الفتيات هنا. هل يملك والدك الكثير من آبار النفط؟»

هزّت هَيا رأسها. «لا نفط في الأردن.»

«إذًا، مناجم ألماس!»، قالت كلير بوث بحماسة. كان واضحًا أنّ الشقراء لا تريد أن تسمع سوى ما يتلاءم مع السيناريو الخياليّ الساحر الذي وضعته في رأسها. نظرت نحو حارس هَيا الشخصيّ الواقف عند باب قاعة الطعام يراقبها بحذر. لوّحت له بيدها. «هل يرافقك الحرّاس الشخصيُّون أينما ذهبْتِ؟ ماذا يفعلون حين تدخلين إلى الحمّام؟ الأرجح أنّهم ينتظرون خارجًا. هل سيأتون معك إلى المدرسة كلّ يوم؟ هل يُنجِزون لك فروضك؟»

«والدي يفرض عليّ المرافِقين»، قالت هَيا. في حياتها لم تلتقِ أحدًا يتحدّث بهذه السرعة! «في الأردن، نقضي أنا وأخي وقتنا محاوِلين التهرّب منهم.»

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

«ليْتَني كنْتُ أميرة!»، قالت كلير وهي تُطلق تنهيدة عميقة. «أكيد أنّك تعيشين حياةً رائعة، وتتسكّعين مع أمراء ساحرين يُغرقونك بالهدايا ويركبون اليخوت الفخمة، ولا بدّ أنّك قابلتِ الكثير من المشاهير في تلك الحفلات الباذخة التي يقيمونها جنوب فرنسا!»

هزّت هَيا رأسها نفيًا: «لا شيء من كلّ هذا».

«وهل تضعين تاجك حين تكونين في المنزل؟»

«كلّا!»، قالت هَيا وهي تضحك من فكرة تسكّعها بالتاج حول إسطبلات الحُمّر.

«يا حسرة! لو كان عندي تاج لوضعْتُه في كلّ الأوقات!»، أعلنت كلير بحماسة.

«مع أنّ شعري غير ملائم للتاج... أفكّر في قصّه لأنّه مجعّد ويظلّ منفوشًا. كم كنت أتمنّى لو أنّ شعري مثل شعرك! أين تقصّينه؟ أمّي تصطحبني إلى لندن، إلى حلّاقٍ في نايتسبريدج. هو حلّاق شهير يقصده الجميع من دون استثناء...»

لم تكتفِ كلير بالجلسة الصباحيّة. عند الغداء، عادت وجلست مع هَيا. أمّا عند العشاء، فدعَتْها للانضمام إلى الطاولة التي تجلس إليها شلّتها. لم تتحدّث الصديقات كثيرًا، كنّ أكثر هدوءًا وأقلّ ثرثرة من كلير، لكنّهنّ بدَوْنَ لطيفات. استمعْنَ بتلهّف إلى حديثها عن الحياة في الأردن، باستثناء واحدة منهنّ. شقراء طويلة، شعرها قصير

وأنفها يشبه الزحلوقة. بدت ستيفاني وكأنّها على وشك أن تموت من الضجر. بالكاد كانت تبتسم، فيما جلست تتفحّص هَيا من أعلى رأسها إلى أخمص قدمَيْها، تمامًا كما اعتادت فرانسيس أن تفعل.

في تلك الليلة، بعد العشاء، كانت هَيا تعبر المرجة وحيدةً في طريقها إلى المهجع. أمامها مباشرة، كانت ستيفاني تسير مع صديقة لها. سمعَتْها هَيا تقول للفتاة: «تناولنا العشاء معها. هي أميرة حقيقيّة. مغرورة بشكل فظيع، لا تتحدّث سوى عن نفسها. ظلّت لساعتين تخبرنا كم إنّها تحبّ ركوب الخيل، وكيف إنّ الخيل هنا جميعها سمينة، لا تليق بها». ثمّ، وبهمْسة خافتة، أضافت: «يقول والدي إنّ ملوك وأمراء العرب معتادون أن تكون طلباتهم أوامر. يعتقدون أنّه، بسبب أموالهم الطائلة، يكفي أن يطقطقوا بأصابعهم حتّى ينحنِيَ الجميع أمامهم. جميعهم هكذا. يُقال إنّ والدها، الملك، قد وهب المدرسة مكتبة جديدة. لهذا السبب تمّ قبولها...».

شعرت هَيا بغضب فظيع. هذا ليس صحيحًا! حتّى حين تحدّثَت عن الخيل، لم تقصد الإساءة، كانت فقط تخبرهنّ أنّ الخيل هنا لا تشبه تلك التي في ديارها! أرادت أن تركض صوب ستيفاني وتشرح لها، الآن وهنا، لكنّ ذلك لن يكون مُجْدِيًا... حثّت خطاها عبر المرجة محاوِلةً حبس الدموع التي تجمّعت في عينيها.

في بادمينتون، اكتشفت هَيا أنّ الحنين مثل الحزن. لا يهدأ، لا ينطفئ، ولا يفارقك. هو دائمًا هنا. وعليك، حتّى تستمرّ في الحياة

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

وتحقّق بعض السعادة، أن تعقد هدنة مع قلبك. كانت تعتقد أنّها ستجد عزاءها في إسطبلات المدرسة. لكنّ صوت الخيول ورائحتها أيقظا أكثر فأكثر شوقها إلى الحُمَّر، والتدريبات المملّة التي تلقّتها زادت الأمور سوءًا بعد. عليها أن تصرف ذهنها عن الخيول وأن تجرّب شيئًا جديدًا.

«هل مارسْتِ الهوكي من قبل؟»، سألتها كلير. هناك اختبارات الأسبوع المقبل. سأشترك فيها. لِمَ لا تأتين معي؟»

«شرط أن نكون في الفريق ذاته»، قالت هَيا. «لن ألعب ضدّك وأنتِ تحملين عصًا. سيشكّل ذلك خطرًا على الجميع.»

«لا تقلقي، سأكون منشغلة في الحديث كالعادة. لن يكون عندي وقت لأصيب أيّ أحد بأيّ شيء»، أجابت كلير بمرح.

لاحقًا، سيتّضح أنّ هَيا هي الخطيرة. فهي رياضيّة بالفطْرة، وسرعان ما ستصبح نجمة بادمينتون في الهوكي. هي ماهرة في كرة الشبكة أيضًا، وفي كرة المضرب، وفي السباحة وفي الجمباز. إذا كان لا مفرّ من المدرسة الداخليّة، فلتبذلْ كلّ ما في وسعها ليفتخر والدها بها.

«كم أنت مجتهدة. تحصدين أفضل العلامات في جميع الموادّ»، قالت كلير وهي تطلق تنهيدة.

«لم أحصل على العلامة الأعلى في الرياضيّات»، اعترضت هَيا. «كما أنّني سأتعرّض للطرد من الجوقة إذا ضُبطنا مرّة بعد ونحن نثرثر.»

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«لَيتَهم يطردوننا نحن الاثنتين!»، قالت كلير. «في جميع الأحوال، ليس خطؤنا إن كانت الحصّة مُميتة من الضجر. صدّقيني، لو لم تكوني هنا، لكنْتُ نمْتُ خلالها.»

أصبحت الشقراوات اللواتي تهيّبَتْهُنَّ هَيا ذات يوم صديقاتِها. حتّى المشكلة مع ستيفاني تبخّرت بعد الرحلة التي قام بها الصفّ إلى لندن. كان من المفترض أن تكون تلك الرحلة لأهداف جغرافيّة، لكنّها تحوّلت إلى جولة سياحيّة. بعد الظهر، زارت الفتيات قصر باكينغهام. وقَفْنَ أمام البوّابات. وفيما كُنّ يتفرّجن على القصر المهيب، اقتربت هَيا من ستيفاني وهمست في أذنها: «على فكرة، وَعَدَني والدي أن يشترِيَ لي هذا المكان. سوف نهدم جميع المباني التي ترينها ونحوّل الحدائق إلى مضمار شاسع لأَحْصنتي».

تغيّر لون ستيفاني، اتّسعت حَدَقَتاها فيما فَغَرَتْ فاها بذهول. لكنّ هَيا حافظت على جدّية تعابيرها... للحظات، قبل أن تنفجر في نوبة من الضحك. لقد خاطرت بإلقائها تلك المزحة. ولكن، ما إن بدأت ستيفاني تضحك بدورها، حتّى أدركت هَيا أنّ ذلك الجفاء بينهما قد ولّى إلى غير رجعة.

كانت رسائل بابا وعلي يوميّة، إلّا أنّ رسائل علي كانت كلّها متشابهة. فهو يعدّ الأيام التي تفصلهما عن عطلة منتصف الفصل الذي لم يَكَدْ يبدأ.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«عزيزتي هَيا،
34 يومًا حتّى تعودي إلى المنزل.
أحبّك.
علي.»

«عزيزتي هَيا،
24 يومًا حتى تعودي إلى المنزل.
أحبك.
علي.»

كان نهار الاثنين هو يومها المفضَّل، فهو اليوم الذي تحصل فيه على ثلاث رسائل من بابا وثلاث من علي، بعد أن تكون قد تراكمت خلال عطلة نهاية الأسبوع. وذات صباح، وجدت هَيا رسالة إضافيّة، مكتوبة بخطّ لم تَرَه من قبل. فتحت الظرف وبدأت تجول بعينيها على الكتابة المخربشة. إنّها من زين.

«سموّ الأميرة هَيا،
أمّا بعد،
أتمنّى أن تكون الأمور بخير في مدرستك الجديدة. أعرف أنّني وعدْتُكِ أن أكتب لك لأخبرك بكلّ جديد، لكنّني حقيقة لست جيّدًا في موضوع الكتابة هذا. أتمنّى أن تتمكّني من قراءة هذه الكلمات واعذريني إذا كانت رسالتي محشوّة بالأخطاء.

بنت الريح لم تكن في حال جيّدة منذ رحلتِ. في البدء، حين توقّفَت عن تناول الطعام، اعتقدنا أنّها مصابة بفيروس، لكنّ البيطريّ قال إنّ صحّتها ممتازة. هي تُراوح باب مربطها ليلًا نهارًا محَمْحِمةً، ويوسف يقول إنّها مكتئبة. سانتي يقول إنّ السبب هو أنّ دماءها عربيّة، فذلك يجعل الحصان وفيًّا. وبري عربيّة أصيلة، مخلصة لسيّد واحد فقط: أنتِ.

أُخبرك بذلك لأنّني وعدْتُك أن أكتب لك، لكن أرجوك ألّا تقلقي. لقد عادت بري الآن لتناول الطعام وأنا أطعمها بيدي حتى أتأكّد من أنّها تناولت وجبتها كاملة. أصلًا أكتب لك هذه الرسالة وأنا جالس على التبن في مربطها، وحين أخبرتها أنّني أكتب لكِ بدا عليها الابتهاج. حتّى إنّها تشمّمت الرسالة. أعتقد أنها وقّعتها بقُبلة. إنّها تنتظر يوم عودتك بخير إن شاء الله. إلى حينها، ليحفظْكِ الله ويَحْمِكِ.

خادمك المخلص (وصديقك)

زين.»

كانت يدا هَيا ترتعشان وهي تقرأ الرسالة في قاعة الطعام. طوال الفترة الماضية، كانت تشتاق إلى بري، ولم يخطر يومًا في بالها أنّ المهرة أيضًا قد تكون مشتاقة إليها. تمنّت بشدّة لو أنّها في المنزل الآن.

طَوَتْ رسالة زين ووضعَتْها في جيب سترتها. أخذت نَفَسًا عميقًا محاوِلةً السيطرة على أعصابها. لا وقت للحزن الآن. إنّها الثامنة والنصف. لقد تأخّرت على صفّ الرياضيّات.

في الصفّ، لم تستطع هَيا التركيز على الأسئلة في دفتر التمارين. كلّ ما كان يشغل بالها هو بري. شعرت بالعجز وهي عالقة هنا. تجاهلت تمارين الرياضيّات وبدأت تكتب. استعملت الصفحات الخلفيّة في كتابها، وراحت تخربش بعنف وبشكل محموم. حين رنّ الجرس، كانت قد انتهت من كتابة رسالتها. شرحت لزين كلّ ما يجب أن يعرفه عن بري. أخبرَتْهُ بكلّ الأسرار، مثلًا كيف إنّ المهرة تحبّ أن تُدلَّك على ردفها. «عندما تدلّكها، لا تخَفْ إذا حرّكَت قوائمها الخلفيّة وكأنّها توشك على رفْسِك. هي تحاول فقط أن تخبرك أنّها تريد منك تمسيد ذيلها أيضًا. آه، نعم، وبالنسبة إلى الحلوى، إذا كان الطقس حارًا، أطعِمْها آيس كريم، هي تعشقها، وهي تعرف كيف تتناولها من البسكوتة بأناقة مثل آنسة محترمة. آه، نعم! إنّها تعشق حبوب النعناع أيضًا! لقد علّمتها أن تهزّ برأسها طلبًا لها. وأيضًا، إذا رأيتها تتجوّل في مربطها، فذلك يعني أنّها ضجرانة. اصطحِبْها إلى الحرج ودعْها تعدو. لم يتسنَّ لي أن أقوم بذلك معها سوى مرّاتٍ قليلة قبل أن أرحل، لكنّها كانت أوقاتًا رائعة. بري تعشق العَدْو...»

طوال الأسبوع التالي، ظلّت هَيا تتفقّد علبة البريد بهَوَسٍ لشدّة توقها إلى الأخبار. حين وصلت رسالة زين أخيرًا، مزّقت هَيا الظرف

وقلبها يدقّ بعنف. ما إن بدأت بالقراءة حتّى تَغَرْغَرَتْ عيناها بالدموع. لكنّها لم تكُن دموع حزن بل دموع فرح.

«لقد قُمْتُ بكلّ ما طلبْتِهِ منّي في رسالتك. حين اصطحبْتُها إلى الحرج راحت تحكّ اللجام فتركتُها تفشّ خلقها وتعدو كما قلتِ. عَدَوْنا ثلاثة أميال تقريبًا قبل أن تشعر ببعض التعب وتخفّف إيقاعها إلى خَبَب. في طريق عودتنا، كانت كأنّها مهرة أخرى، ومن تلك اللحظة ارتفعت معنويّاتها. لا يمكنكِ أن تتخيّلي كم كنتُ سعيدًا حين أكمَلَتْ طعامها كلّه بعدما عُدْنا.»

لا تزال هَيا تشتاق إلى بري، إلّا أنّها أصبحت الآن مطمئنّة، فالمهرة لم تعد مكتئبة. حتّى حنين هَيا إلى المنزل بدأ يخبو ويهدأ، لكنّها لا تزال تحلم باللحظة التي ستعود فيها إلى الأردن، لتعدُوَ على فرسها في الأحراج. فقط لو كان بوسعها أن تعدُوَ هكذا في إنكلترا! لكنّ الأمل ضعيف من هذه الناحية. على الأقلّ، ذلك ما اعتقدته هَيا حتّى الآن.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

الفصل الرابع عشر

تشالنجر

«حبيبي بابا، لقد حلّ الفصل الدراسيّ الثاني. أكاد لا أصدّق. ليتني عدْتُ إلى المنزل لقضاء الإجازة بدل بقائي هنا في المدرسة للمشاركة في مباراة الهوكي. لقد حزْتُ، هذا الأسبوع، علامةَ 98 على مئة في امتحان آخر الفصل في مادّة اللّغة الانكليزيّة، وأنا أحظى بعلامات عالية في جميع المـوادّ. نعم، جميعها، حتّى الرياضيّات. أرجو أن تخبر فرانسيس بذلك!

بدأ الصقيع في إنكلترا والمطر يتساقط باستمرار. تلحَّفَت الخيول ببطانيّاتها، وقد شذّبوها أيضًا بجزّ فروتها وتقليمها بأشكال زخرفيّة، تاركينَ بعض الشَعر ليُدفِئَ ظهر الحصان.

خيول المدرسة، وهي أحصنة قزمة من نوع البوني، كسولة. عليك أن ترفسها وترفسها حتّى تتحرّك. من الطبيعيّ أن تكون بطيئة بهذا الشكل حين لا يسمح المدرّبون للتلامذة بامتطائها

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

سوى للقيام برقصات الرباعيّة الاستعراضيّة حول الحلبة. بالكاد يسمحون لنا من وقت إلى آخر ببعض القفز!! أعرف أنّ تلك قد تبدو فكرة مجنونة، لكنّني أفكّر في التخلّي عن الفروسيّة تمامًا لما تبقّى من العام. هل أخبرتك أنّه تمّ اختياري قائدة لفريق الهوكي التابع للمدرسة؟

آه، تذكّرت. عندي أيضًا أخبار سارّة لعلي. والد إحدى الفتيات هنا يعمل في مجال الفوتبول وله علاقة ما بفريق مانشيستر يونايتد. وعدَتني باصطحابنا، عندما يأتي علي لزيارتي في الفصل المقبل، للقاء اللاعبين في الفريق ولمشاهدة إحدى مبارياته. قلْ لعلي إنّني أشتاق إليه. لا أطيق انتظارًا لعودتي إلى المنزل. أشتاق إلى الجميع. أحبّك كثيرًا، بابا.

إبنتك، هَيا.»

*

أيّام الآحاد، يُسمَح لتلامذة بادمينتون باصطحاب خيولهم خارج الميدان، والتجوّل بها على الدروب الريفيّة المحيطة بالمدرسة. تستغلّ الفتيات تلك النزهة كعُذْرٍ ليخرجْنَ من المدرسة من دون إشراف، فيُسارعْنَ نحو أسواق البلدة. غالبًا ما ترى هَيا خيولهنّ المسكينة ضجرة من الجمود في مكانها، وهي مربوطة إلى الحاجز الحديد قرب المرجة الخضراء في ساحة البلدة، حيث تقف الفتيات وهنّ يتضاحكْنَ بغنج ودلال مع فتيانٍ من المدرسة المحليّة القريبة.

في إحدى تلك النزهات، كانت هَيا تجول على ظهر تامبست، وهو فحلٌ برّيّ من الأحصنة القزمة، بنّيّ اللون، يتحدّث عنه المدرّبون في بادمينتون بصفته ضدّ الرصاص، فيما تعتبره هَيا نصف ميّت. كانت تفكّر كيف أنّها، على هذا الإيقاع، ستحتاج إلى قرنٍ من الزمن حتّى تصل إلى البلدة، عندما لمحت فارسَيْن يعْدُوان في الحقل المجاور.

كان الفارس المتقدّم يمتطي حصانًا صيّادًا ضخمًا كُمَيْتًا، وينطلق بجرأة مستحثًّا الحصان كما يفعل فرسان السباق. خلفه تمامًا، فارس آخر على حصان كستنائيّ مميّز وأنيق. كانا أبعد من أن تراهما هَيا بوضوح، لكنّهما بَدَوا من دون شكّ محترفَين. تفاجأَتْ بهما وهما يقتربان من بوّابة خشبيّة تفصل بين حقلين من دون أن يخفّفا سرعة حصانيْهما. ثمّ أدركت، بذهول، أنّهما سيقفزان عنها! الحصان الصيّاد الكميت كان أوّل مَن قام بالقفزة، وتبِعَهُ الكستنائيّ. كانتا قفزتين رائعتين! قاما بهما ثمّ استأنفا العدْوَ.

«لِمَ لا نستطيع نحن القيام بذلك؟»، هَمَسَتْ لتامبست وهي تربّت عنقَه البنّيّ الكثيفَ الشَّعْر.

ثمّ أكملَت طريقها نحو البلدة. كانت خارجة من محلّ الحلوى حين سمعَتْ الطرطقة المتقطّعة لحدوات حديدٍ على الرصيف. التفتَت لترى الحصانين الكستنائيّ والكميت، اللذين قفزا عن البوّابة بين الحقول، ينعطفان عند الزاوية. الفارسان اللذان تخيّلتهما هَيا بالغيْن ومحترفيْن لم يكونا سوى فتاتين من عمرها! هي متأكّدة

أنّها لم تلتقِهما في بادمينتون من قبل. كان حصاناهما يتصبّبان عرقًا ولا يزالان يلهثان من العدْوِ، فيما أرخت الفتاتان الرسَنَيْن، وهما لا تزالان على متن حصانيْهما تتحادثان. بدا أنّهما متّجهتان نحو المقهى المحاذي للمرجة الخضراء في ساحة البلدة. من دون تفكير، اغتنمت هَيا الفرصة وركضت في اتجاههما.

«مرحبا»، قالت لاهثة.

كانت الفتاة التي تعتلي الحصان الضخم فائقة الجمال، شعرها أشقر طويل مجدول في ضفيرة سميكة. كَبَحَتْ حصانها، فتوقّف. «مرحبا»، قالت وهي تبتسم بحرارة. نظرَت إلى خوذة هَيا وسروال الفروسيّة الذي ترتديه ثمّ إلى تامبست المربوط إلى حاجز الحديد قرب المرجة الخضراء. «هل هذا حصانك؟»

«كلّا»، قالت هَيا. «ليس تمامًا. هو مُلك المدرسة.»

«إذًا»، قالت الفتاة. «أنت ترتادين بادمينتون؟»

«صحيح»، قالت هَيا. شعرت ببعض الخجل، لكنّها عالجت ذلك سريعًا بنَفَس عميق. «رأيتكما عند الحقول وأنا في طريقي إلى هنا. أنا أعشق القفز. لكنّنا لا نمارس القفز كثيرًا في المدرسة، في الحقيقة، لا نقفز أبدًا... كما أنّ خيول المدرسة غير معدّة لذلك أصلًا.»

«عليك أن تنضمّي إلينا، وتأخذي دروسًا معنا»، قالت الفتاة الشقراء. «نحن نرتاد شبرلاند كوبس. ليس بعيدًا من هنا. لدينا، لوسيندا وأنا، حصانان هناك. آل رامسي هم مَن يديرون المكان،

ولديهم أحصنة رائعة أيضًا للتعليم. هذا إذا كنت فعلًا تودّين ممارسة الفروسية بشكل جدّي.»

حاولت هَيا أن تتمالك نفسها وألّا تصرخ بأعلى صوتها «نعم، أرجوك، خذيني معك!». بدا اسم رامسي مألوفًا لها. وكأنّها سمعَتْهُ من قبل، في الأردن.

«إسمي جميما»، قالت الفتاة الشقراء، «وهذه لوسيندا...»

إلّا أنّ لوسيندا لم تُحيِّ هَيا. كانت مشغولة بمراقبة رجلٍ يضع نظّارات سوداء ويحوم حول تامبست.

«هل لاحظْتِ ذلك الرجل المريب الذي يقف بجانب حصانك؟» ،سألت لوسيندا. «هل هو أحد أساتذتك؟»

«لا»، قالت هَيا، «إنّه حارسي الشخصي».

*

في طريق العودة، بدأت حماسة هَيا التي اتّقدت بعد لقاء الفتاتين، تَتَضاءَل. أكيد أنّ المدرسة لن ترحّب بتلقّيها دروس الفروسيّة في شبرلاند كوبس في حين أنّ لديها قسم التدريب الخاصّ بها. كيف ستقنعهم في السماح لها بالذهاب؟

كانت هَيا لا تزال تقلّب الفكرة في رأسها في صباح اليوم التالي حين وصل البريد. هناك رسالة من بابا. قرأَتْ بفضول كبير المقاطع الأولى التي يسرد والدها فيها أخبارًا عن الحياة في الندوة. لكنّ عينيها اتّسعتا حين وصلت إلى المقطع الرابع من الرسالة.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

«تحادثْتُ مع سانتي بعد أن استلمْتُ رسالتك الأخيرة، وذكّرني أنّ لديه معارف في إنكلترا زارونا مرّة هنا في الأردن. آل رامسي، ريتشارد ومارجوري رامسي. هما يديران إسطبلًا للمحترفين قد يكون ممتازًا لك. لقد اتّصل سانتي بهما واتفقنا مع المدرسة على أن تحضري الدروس هناك بعد انتهاء صفوفك وفي عطل نهاية الأسبوع. اسم الإسطبل هو شبرلاند كوبس، وهو قريب جدًّا من مدرستك...»

لم تصدّق هَيا عينيها. إنّه المكان ذاته الذي حدّثتها عنه الفتاتان!

في عطلة الأسبوع التالية، وضعت هَيا سروال الفروسيّة وأوصلها حرّاسها إلى فناء شبرلاند كوبس.

كان ريتشارد رامسي منشغلًا بإعطاء درس حين وصلت، فانتظرَتْهُ في مكتبه. جلست تتأمّل ميداليّات من مسابقات «حصان العام» و«بطولة ويندسور الملكية» و«بطولة الأولمبيا»، معلّقة على الجدران، حين سمعت وقع حوافر في ممرّ الإسطبل، وأصواتًا مألوفة.

«هذه أنت! أهلًا أهلًا...»، قالت جيميما بمرح ما إن ظهرت هَيا من باب المكتب. «أخبرنا مستر رامسي أنّ فتاة جديدة ستنضمّ إلى صفّنا لكنّني لم أتخيّل أن تكوني أنتِ!»

خلفُها، ظهر رجل طويل القامة يضع سروال فروسيّة لونه بيج وجاكيت فروسيّة، ويجرّ حصانًا رماديّ اللون. «هل تلاقيتنّ من قبل؟»، سأل مستر رامسي متفاجئًا. «حسنًا، هذا يسهّل الأمور. باستطاعتنا، إذًا، تجاوز مرحلة التعريف والترحيب والبدء فورًا.»

توبي هو اسم الحصان الرماديّ الذي كان مستر رامسي يقوده لتمتطيَهُ هَيا. «هو متمرّس في قفز الحواجز»، قال مستر رامسي، وهم يتّجهون نحو الميدان.

«هاي توبي»، قالت هَيا وهي تتناول الرسن متأمّلة عينَيْ الفحل الرماديّ. رأت فيهما جموحًا ووداعة في الوقت نفسه. أحبّته فورًا.

كان ميدان آل رامسي مجهّزًا بالعوارض والحواجز والقضبان المطليّة ومقسّمًا إلى مسارات كما في التلفزيون، في «مسابقة حصان العام»، مع أصص النبات في الزوايا وكلّ ما إلى هنالك. كانت خبرة هَيا الوحيدة في القفز هي تلك التي اكتسبَتْها على ظهر الدبّابة. طبعًا لن تخبر جميما ولوسيندا بذلك. كم بَدَتا أنيقتين وهما تمتطيان حصانين مختلفين عن المرّة الفائتة. ثقتُهما على ظهر قافِزي الحواجز في المضمار لا تقلّ عن الثقة التي لمستها هَيا لديهما وهما تمتطيان الصيّادين في الحقول.

«جهّزْنَ الركاب على المستوى اللازم للقفز»، قال مستر رامسي. لم تكن هَيا قد سمعت حتّى بوجود ذلك الشيء قبل الآن، لكنّها تدبّرت أمرها. أمسكت الركاب وأوثقَتْهُ في ثقب أعلى والتحقت بلوسيندا وجميما. كم من الصعب مجاراة تلك الفتاتين حتّى في الخبب!

حين بدأ مستر رامسي بإلقاء توجيهاته عليهما، بدا لهَيا وكأنّه يتحدّث باللغة الصينيّة. «حصانك يتكّئ كثيرًا على قوائمه الأماميّة، جميما، اكبحيه قليلًا! هذا أفضل. ليستعِن أكثر بقوائمه الخلفيّة، لوسيندا. المزيد من الأرجل والأقلّ من الأيدي! جيّد...»

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

خلال ربع الساعة الأولى، لم يقفزن أبدًا. خبخبْنَ وجريْنَ وتدرّبْنَ على تحسين وضعيّتهنّ فوق السرج. علّمها مستر رامسي كيف تمتطي: عليها أن تنحني فوق الركاب وأن تبقي جسمها مائلًا عن الوضع الرأسي بنسبة درجتين. ثمّ علّمها كيف تمدّ اللجام كجسرٍ فوق عنق توبي، وتُبقي يديها في وضعيّة مستعدّة ولكن من غير أن تشدّهما لكي لا تجرح فم الحصان عندما يجتازان الحواجز.

«عظيم إذًا!»، قال مهلّلًا. «تبدين مرتاحة فوق السرج. من الواضح أنّ لديك قدرة فطريّة على التوازن. لِمَ لا تلحقين بالفتاتين وتقومين بقفزتين: واحدة عن القضبان الحمراء والبيضاء، والثانية عن الألواح الخشبية الزرقاء والبيضاء، لنرى كيف ستجري الأمور؟»

انطلقت لوسيندا وجميما بثقة أمامها على صهوة حصانيْهما، وحاولت هَيا بكلّ طاقتها أن تواكبهما. في المرّتين، كانت قفزة توبي واسعة، ارتفع خلالها عن الأرض قبل الحاجز بمسافة كبيرة. كانت هَيا متأكّدة من أنّ مستر رامسي تمكّن في المرّتين من رؤية السماء بين ساقيْها والسرج، رغم أنّها لم تقع عن صهوة الحصان. لحسن الحظّ، لم يوبّخها كما كانت مسز غودار لتفعل.

«تُعجبني الطريقة التي تتركين فيها توبي على راحته وتُطلقين له العنان»، قال. «لديك يدان قويّتان. علينا فقط أن نعمل قليلًا على هاتين الساقين.»

فيما راح يخفّض الحواجز، أخذ مستر رامسي يحدّث الفتيات عن أهمّية ربلة الساق. «على ذلك القسم الأدنى من الساق ألّا يفارق جسم الحصان في أيّ مرحلة من مراحل القفز. تأكّدْنَ من وضعيّة القسم الأدنى من الساق، ركّزْنَ عجيزاتكنّ واجلسن.»

«تمام!»، قال، وهو يخفّض مستوى الحواجز للقفزة الأخيرة في المضمار. «هلا تجرّبين وحدك هذه المرّة لو سمحْتِ، أميرة هَيا؟»

حين انتهت هَيا من القفز على القضبان المنخفضة، أعاد مستر رامسي رفْعَها إلى مستواها الطبيعيّ كي تقفز الفتاتان، ووقفت هَيا جانبًا تتفرّج عليهما وهما تؤدّيان القفزات العالية. تأمّلتهما وهما تخَبْخِبان بحصانيْهما وتهرولان وتقفزان بهما في توقيتات ممتازة، فأدركت أكثر فأكثر أنّهما ماهرتان وأنّ مستواها ضعيف، على الأقلّ في الوقت الحالي. شعرت برغبة شديدة في أن ترتقي إلى مستواهما.

ورغم أنّ لوسيندا وجميما لاحَظَتا أنّهما أكثر براعةً من هَيا في فنون الفروسيّة، لم تَتَباهيا أمامها بذلك. بعد الدروس، كنّ يتسكّعْنَ معًا في الإسطبلات لمساعدة آل رامسي على تنظيف المرابط وإطعام الخيول.

«احكي لنا عن الخيول العربية في الإسطبلات الملكيّة»، قالت جميما. «أتخيّلها رائعة!»

وَجَدَتْ هَيا نفسها تخبرهما كلّ شيء عن بري وعن إسطبلات الحُمَّر.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

انضمام هَيا إلى فريق آل رامسي حفّزها على تنمية قدراتها. بَرَزَتْ مهاراتها واضحة في القفز والوثب، وسرعان ما تمكّنت من اجتياز الحواجز ذاتها التي تجتازها لوسيندا وجميما. كانت تكتشف أنّ إتقان القفز لا يتعلّق فقط بوضعيّة الامتطاء، وبطريقة سَوْق الجياد عند الحواجز، وبالتحلّي بالشجاعة والإقدام. كانت تتعلّم كيف تتوغّل في اتجاه الحاجز، وتُقَيّم المسافة جيّدًا لتدعَ الحصان يشبّ في اللحظة المناسبة.

في البدء، كانت هَيا ترى حاجز الكافاليتو برجًا ضخمًا. لكن سرعان ما أصبحت قفزتها تصل إلى ثمانين سنتمترًا، ثمّ مترٍ، ثمّ مترٍ وعشرة سنتمترات. حين بلغت مترًا وعشرين سنتمترًا، اعتبر مستر رامسي أنّ هذا العلوّ «كثير على توبي». جعلها تجرّب عدّة خيول وثّابة قبل أن تستقرّ على فكتوريوس، وهو حصان عنيد، من أحصنة الفئة الأولى في السباقات. فورًا، نشأ رابطٌ بين هَيا وفكتوريوس، وظلّ علوّ القفزة يزداد.

*

ذات يوم، وصلت هَيا إلى الباحة فاستقبلَتْها جميما وهي تلوّح بورقة في يدها. «لقد تمّ قبولنا»، قالت لها. «هناك بطولة محليّة في القفز ستجري خلال عطلة نهاية الأسبوع المقبلة. ستشاركين في ثلاث مسابقات منها على ظهر فكتوريوس!»

صحيح أنّه مجرّد سباق محلّيّ في الريف الإنكليزيّ، لكنْ، بالنسبة إلى هَيا، كان بأهمّيّة التنافس على الجائزة الكبرى في بطولة الأولمبيا. كانت في غاية التوتّر عشيّة السباق. أصابها الأَرَق، فأخذت تتلهّى بإعادة توضيب محتويات علبة الكنز. كانت على وشك أن تضع العلبة جانبًا حين غيّرت رأيها وفتحتها مجدّدًا. تناولت منها خصلة الشعر التي قصّتها من ذنب بري. «ستكونين تعويذتي لجلب الحظّ يوم غد»، همست وهي تضع الخصلة في جيب جاكيت الفروسيّة.

لم تكن هذه المباراة الأولى التي تخوضها جميما ولوسيندا. هدوء أعصابهما وهما تحضّران حصانيْهما ساعَدَ هَيا على الاسترخاء بدورها. حمّلن الأحصنة في عربة آل رامسي وتراصّت الفتيات الثلاث في المقعد الخلفيّ، وانطلق الجميع إلى السباق.

حين وصلن، عند السابعة، كان هناك بعض الفرسان يتجوّلون في المضمار. اليوم، سيقفزْنَ على علوّ متر وعشرة سنتمترات في حلبة تبدو أصغر من تلك التي يتدرَّبْنَ فيها. مع ذلك، عندما وقفت خلف الحواجز التي تكاد تقاربها طولًا، شعرت هَيا بتشنّج حادّ في معدتها. لمحَت أيضًا مجموعة القضبان الحديد الملوّنة التي يسمّيها مستر رامسي «فزّاعة الفارس» لشدّة ما هي كبيرة وعريضة.

«برأيي، ستكون المشكلة في القفزة المضاعفة. ستضطرّان إلى القيام بخطوة واسعة جدًّا وإلا ستوقِعان القضيب الخلفيّ»، قالت جميما وهي تقيّم المسافات بين الحواجز مع الفتاتين الأخريَيْن.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

وقفت هَيا في وسط المضمار ورسمت بإصبعها في الهواء مسارًا، محاوِلةً وضع تصوّر لترتيب قفزاتها. عساها لا تنسى هذا الترتيب، كم سيكون محرجًا أن تُستبعَد لارتكابها خطأً سخيفًا كهذا.

انتظَرَتْ في حلبة الإحماء وهي تتفرّج على الفرسان الآخرين يتبارون. كان أداء جميما ولوسيندا جيّدًا، لكنّ البوّابة البيضاء والقضبان الملوّنة أثبتت صعوبتها فسُجّلَت على كلٍّ من الفتاتين أربعة أخطاء.

قبل أن تدخل الحلبة مباشرة، امتطت هَيا فكتوريوس وقفزت به مرّتين فوق حواجز التدريب. اجتاز الفحل القضبان بمهارة أمدّتها بموجة عارمة من الثقة. حين نادوا باسمها ودخلت الحلبة، نسيت توتّرها وانصبّ كلّ تركيزها فجأة على الحواجز فقط. ما إن رنّ الجرس حتّى انطلقت تعدو بجسارة بين الرايات، لتقفز القفزة الأولى بحزم وتصميم، تمامًا كما علّمها مستر رامسي. ازدادت قوّة فكتوريوس عند الحاجز التالي، فكبحَتْهُ قليلًا قبل أن تنطلق مجدّدًا، ليقوما بقفزة واسعة المدى.

فيما كانت على ظهر فكتوريوس، ومع تدفّق الأدرينالين في شرايينها، تبخّر خوف هَيا من أن تنسى المسار.

في منتصف كلّ قفزة، وقبل أن يحطّا على الأرض مجدّدًا، كانت تدير الحصان، تمهيدًا للقفزة التالية. عانَدَها فكتوريوس قليلًا وهما يهمّان بالقيام بالقفزة المضاعفة، لكنّ هَيا كانت تثق بالفحل وبأنّه

سيُحسن ترتيب خطوته، فتركت له الحرّيّة وقامت بالركلة. لحسن الحظّ، فكتوريوس حصان ذكيّ. ورغم أنّه بدأ بالقفزة باكرًا جدًّا، تمكّن من توسيع خطوته. بعدها، شدّت هَيا على اللجام بقوّة وهي تقوده لاجتياز الحاجز الأخير، فقفز الحصان بسهولة. لقد اجتازا كلّ الحواجز بنجاح!

ربح فكتوريوس وهَيا ثلاث جوائز في المسابقات الثلاث: جائزة عن المرتبة الأولى وجائزتين عن المرتبة الثالثة. في طريق العودة، لم تستطع هَيا إبعاد نظرها، ولو للحظة، عن ميداليّاتها. جميما ولوسيندا أيضًا استحقّتا ميداليات. عندما وصلن إلى الاسطبلات، وضعت الفتيات الميداليات على أعناق أحصنتهنّ والتقطْنَ صورًا معها. أعادت هَيا فكتوريوس إلى مربطه بعد أن ضمّته مودّعةً. في تلك الليلة، منحته كميّة إضافيّة من الطعام.

«ييييييي، دعيني أرى!»، قالت كلير بوث وهي تنتزع الميداليات عن هَيا فور وصولها إلى المهجع.

«الصفراء هي الأحلى»، قالت كلير. «سأحاول أن أربح مثلها.»

«لكنّ الحمراء هي التي تحوزينها عن المرتبة الأولى!»، قالت هَيا محاوِلةً أن تشرح لها. «أنتِ تتصرّفين مثل شخصٍ يفضّل الميدالية البرونزيّة على الذهبيّة.»

«لا يهمّني»، أصرّت كلير. «الصفراء أجمل.»

فكّرت هَيا أن تضع الميداليّات في علبة الكنز، ثم غيّرت رأيها وعلّقتها فوق سريرها، بين صور كانت قد انتزعَتْها من المجلّات وألصقتها على الحائط.

*

أحيانًا، كانت مواعيد البطولات تتضارب مع الواجبات المدرسيّة، فتضطرّ هَيا إلى السهر طويلًا حتّى تكتب فرض التاريخ أو تُنجز فرض الرياضيّات. لكن، رغم أنّها كانت تقضي أوقاتًا طويلة في ميدان آل رامسي، أصبحت تشارك أكثر فأكثر في الحياة المدرسيّة. فما أن تُنهيَ فروضها حتى تخرج وتتسكّع في غرفة الجلوس التابعة للمهجع، مع الفتيات الأخريات في صفّها.

كان المدير يُصرّ على أن يشاهدْنَ نشرة الأخبار يوميًّا، وليس فقط البرامج الموسيقيّة، لأنّه من المهمّ أن يطّلعن على ما يحصل في العالم. كانت هَيا تشاهد صور الحرب في الخليج وتستمع إلى مذيع الـ «بي.بي.سي» وهو يعلّق عليها بنبرته الجدّيّة، فتشعر أكثر فأكثر بالمسافة الشاسعة بين إنكلترا والعالم العربيّ. ومع أنّها استقرّت في محيطها الجديد، كانت لا تزال تفتقد بابا وعلي وبري كلّ يوم، وكان الكنز لا يزال في الدرج الأعلى من الطاولة المحاذية لسريرها. تفتحه كلّ ليلة وتتأمّل صورة ماما بالأبيض والأسود. لا تزال تشعر بالغربة، بأنّها بعيدة من أهلها ووطنها، وبعيدة من منزلها.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بعد ظهر أحد الأيام، فيما كانتا في طريقهما نحو المهجع، سألت كلير هَيا إن كانت ستنضمّ إلى الفتيات الأخريات لمتابعة النقل المباشر على التلفزيون لإطلاق المكوك الفضائيّ «تشالنجر». كان ذلك الحدث الأهمّ الذي ملأ صفحات الجرائد خلال الأسابيع القليلة الماضية. تشالنجر ليس المكوك الأوّل الذي تُرسله الـ «نـازا» إلى الفضاء، لكنّها المرّة الأولى التي سيكون فيها على متنه أشخاص عاديّون ينضمّون إلى فريق روّاد الفضاء في الرحلة. شاهدت هَيا حوارات أُجريَت معهم، ورَأَتْ بينهم امرأة بشعر طويل داكن تشبه مربّيتها القديمة غرايس.

في غرفة الجلوس، تحلّقت الفتيات حول التلفاز. تمدّدت هَيا وكلير على الأرض، أمام الشاشة مباشرة، وقد أسْنَدَتا ظهريْهما إلى وسائد.

«أخفضا رأسيْكما»، صاحت بهما إحدى الفتيات من الخلف، «لا نستطيع رؤية الشاشة».

كان روّاد الفضاء يمشون ببدلاتهم، حاملين الخوذات تحت إبطهم، وهم يغادرون المؤتمر الصحافيّ ويتحضّرون لركوب السفينة الفضائيّة. ثمّ انتقلت الكاميرات إلى مدرّج مركز كينيدي للفضاء في فلوريدا. كان الطقس باردًا والمتفرّجون يرتدون كنزات صوفيّة ومعاطف وأوشحة، ويحملون مناظير فيما عيونهم المترقّبة مسَمّرة على المركبة، الجاثمة فوق منصّة الصواريخ العملاقة. خيّم جوّ من

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الإثارة على الجمهور. وحين لوّح لهم روّاد الفضاد بأياديهم مودّعين وهم في طريقهم لصعود المركبة، عَلَتِ الهتافات. الطاقم جاهز للانطلاق.

على الأرض في غرفة الجلوس، كانت هَيا تتّكئ بذقنها على الوسادة وهي تتفرّج على المركبة وقد دارت محرّكاتها وأخذ البخار يَغْبُقُ حولها.

«باقٍ إحدى وعشرون ثانية على الإقلاع. المحرّكات بدأت بالعمل...» خَشْخَشَ صوت المذيع على التلفاز. «10-9-8-7-6 لقد دار المحرّك الأساسي. 4-3-2-1 إنّها تقلع! انظروا إليها تقلع! لقد انطلقت الرحلة الفضائيّة رقم 25!»

حمى المتفرّجون على المدرّجات أعينهم بينما اندفعت المركبة نحو السماء الباردة الصافية الزرقاء. في غرفة الجلوس في بادمينتون، تعالى هتاف الفتيات المتحلّقات حول التلفزيون.

«واو!»، صاحت كلير وهي تتأمّل الخطّ الأبيض الذي ارْتَسَمَ في السماء. «يا ليْتَني معهم!»

على شاشة التلفزيون، ظهر روّاد الفضاء وهم يتحدّثون إلى غرفة المراقبة: «بدأت المحرّكات بتخفيف سرعتها... العلوّ 4.3 ميل بحري...».

فجأة تبعثر خطّ الغيوم الأبيض الناعم الذي كان يشقّ السماء، وانفجر كرةً من البخار. وكأنّ الغيمة نفسها تشظّت، مُطلِقةً شُعَيْرات

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

من الريش الأبيض في كلّ اتجاه. تطايَرَت الشرارات من الغيوم وظَهَرَ سيْلٌ أسود مرعب، كذنبٍ يصل كرة نارٍ ملتهبة بالأرض. خرج صوت المذيع مطَمئنًا: «يبدو أنّ بعض المحرّكات قد انفجرت وانفصلت عن جانب المركبة...».

خَفَتَتِ الهتافات في غرفة الجلوس. لم تبدُ تلك مجرّد محرّكات من جانب المركبة، ورغم الهدوء الذي بدا على صوت المذيع في التلفزيون، كان من الواضح أنّ هناك خطبًا ما. ثمّ سُمعَ صوت آخر، هذه المرّة من غرفة المراقبة في النازا: «من الواضح أنّ عطلًا جسيمًا قد طَرَأ».

كانت هَيا تحاول استيعاب ما يحدث وهي تتأمّل الصورة المثبّتة على الحشود في مدرَّج مركز كينيدي للفضاء. كانت عيونهم شاخصةً بارتباك وذهول في السماء، بينما سيطر عليهم صمت مُطْبَق. فقد انفجرت المركبة الفضائيّة للتوّ، بعد إقلاعها بقليل، وأمام أنظار العالم بأسره. المركبة التي كان من المفترض بها أن تنقل 7 رجال ونساء إلى خارج حدود الجوّ، قد نَقَلَتْهُمْ، عوضًا عن ذلك، إلى حمّامٍ من النار فَتَكَ بهم على علوّ تسعة أميال بحريّة عن الأرض.

في غرفة الجلوس، كانت فتيات بادمينتون يحدّقن إلى التلفزيون غير مصدّقات، بينما تنقل الكاميرا غيمة الدخان التي نتجت من الانفجار والتي لا تزال عالقة في الجوّ. ولكن، على الأرض في غرفة الجلوس، لم تعد كلير تنظر إلى التلفزيون.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«هَيا!»، صرخت كلير وهي تحدّق إلى صديقتها. «هَيا، ما الأمر؟ هل أنت بخير؟»

الألم كائن حيّ. يتربّص بك، وهو يقبض على قلبك بيده القاتمة، يَتَحَيَّنُ الفرصة، ويقرِضُك. لثَماني سنوات، لازَمَ الألم قلب هَيا. الآن، ها هو يُحكم قبضته. ثمّة مركبة تنفجر على بعد آلاف الأميال من الأرض. كانت هَيا تراقبها وهي تسقط، فترى وجه أمّها... لمعة البرق... ثمّ صرخات الرعب أثناء سقوط طائرة الهلكوبتر.

«هَيا؟»

تحلَّقَتِ الفتيات حولها.

«ما بها؟»

«تراجَعْنَ ليصِلَها بعض الهواء!»، صرخت إحداهنّ.

كانت هَيا متكوّمة على الأرض مثل كرة، تشهق، وجسدها ينتفض، بينما يأتي نَفَسُها على شكل لُهاثٍ سريع ومتقطّع. الألم يخنقها ويشدّ قبضته عليها وكأنّه، هذه المرّة، لا ينوي الإفلات.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الفصل الخامس عشر

العودة

كانت هَيا منهَكَة، تعجز عن التفكير بوضوح، والغرفة تعوم أمام عينيها الزائغتين. كانت مستلقية على سريرها في غرفة المهجع، ووالدها إلى جانبها يمسّد شعرها.

«بابا...»، قالت وهي تشهق بصوت مخنوق. «أنا آسفة...»

«ششششش!»، قال الملك. «لا تقلقي، هَيا. كلّ شيء سيكون على ما يرام. سآخذك إلى المنزل.»

في المطار، توجّهت السيّارات الرسميّة السوداء التي تحمل علم الأردن الملوّن بالأحمر والأبيض والأسود والأخضر نحو الطائرة الملكيّة الجاثمة على المدرج.

«لا أريد ركوب الطائرة»، تَمْتَمَتْ هَيا لوالدها فيما كان يحملها بين ذراعيه ويصعد بها سلّم الطائرة. إلّا أنّها استسلمت، فالطبيب كان قد أعطاها مهدّئًا. بالكاد تتذكّر تلك الرحلة. في مرحلة ما منها،

نظرت من النافذة متأمّلةً زرقة البحر الأبيض المتوسّط الممتدّ تحتها، وفكّرت في مسألة الوقوع من السماء. تشبّثَتْ بذراعيْها الاثنتين بدول، وسرَحَت بنظرها خارج النافذة بعينين ناعستين مخدَّرتين.

حين استيقظت مجدّدًا، كان والدها جالسًا على طرف سريرها. كانت في المنزل، في قصر الندوة. شعرت وكأنّها دوروثي في فيلم «ساحر أوز» حين تستيقظ لتجد نفسها في كنساس.

«أنتِ تحتاجين إلى الراحة»، قال والدها. «عاوِدي النوم. غدًا تتحسّن حالتك إن شاء الله.»

في اليوم التالي، استيقظَتْ هَيا على أَلَم حادٍّ في رأسها وعلى صوت خبط يضجّ في أذنيها. دج دج دج! إنّه علي يركل الكرة على جدار غرفتها.

«ماذا تفعل؟»، صاحت هَيا بتذمّر.

«صباح الخيرات!»، قال علي مبتسمًا، ثمّ أضاف: «تبدين في حالٍ مزرية».

«هذا من لطفك.»

«أنت نائمة منذ دهر. بابا ذهب إلى الديوان الملكيّ. غادر منذ نصف ساعة. وفرانسيس نبّهتني بأن أبقى بعيدًا وألّا أوقظك»، قال علي وهو يلتقط الكرة. «أتلعبين معي بمجموعة سيّاراتي الكهربائية الجديدة؟ سأسمح لك باختيار السيّارة التي تريدينها، في ما عدا الفضّيّة... أريدها لي...»

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«أمير علي!»، صرخت فرانسيس، الواقفة عند باب غرفة هَيا.

«اتّفقنا على أن تَدَعَ الأميرة تنام»، أضافت وهي تقتحم الغرفة طاردةً علي بعيدًا من سرير هَيا.

«لا»، قالت هَيا، وهي تُنزل ساقيْها من طرف السرير. «لا عليكِ، فرانسيس. كنت سأستيقظ في جميع الأحوال. أريد أن أذهب إلى الإسطبلات.»

«هذا غير وارد على الإطلاق»، قالت فرانسيس بحزم. «أوصى الطبيب بأن تقضيَ النهار في السرير.»

«لن أقضيَ النهار مستلْقِيَةً هنا»، قالت هَيا. «يجب أن أرى بري.»

«قال الطبيب إنّ عليكِ أن ترتاحي»، ردّت فرانسيس وهي ترفع ساقَيْ هَيا وتُعيدهما إلى السرير، ثمّ ترتّب بحركات سريعة البطّانيّة فوقهما وتغطّي هَيا.

«إذًا، سأتحدّث مع الطبيب بنفسي...»، قالت هَيا.

«لا تكوني سخيفة!»، قالت فرانسيس.

«...وإلّا سأتّصل بوالدي في الديوان الملكيّ وأتحدّث معه بهذا الشأن»، أكملت هَيا.

هل قَطَعَتْ هَيا كل تلك المسافة ووَصَلَت إلى المنزل، إلى بري، لتحتجزها مربّيتها في غرفتها؟

حين وصل الطبيب، كانت هَيا قد استحمّت وتناولت فطورها وارتدتِ بنطال الفروسيّة.

«تقول الأميرة إنّها تشعر بتحسّن كبير. لن يضرّها القيام بمشوارٍ صغيرٍ إلى الإسطبلات»، قال الطبيب لفرانسيس. «الهواء المنعش سيكون مفيدًا لها.»

ما إن خرج الطبيب وفرانسيس من الغرفة حتّى انهارت هَيا على السرير. كانت خائفة من أن تُصابَ بإغماءة أمامهما. فيما كانت تنزل السلّم، تمسّكت بالدرابزين حتى لا تقع، إمعانًا منها في إخفاء ضعفها عن فرانسيس. لا شيء سيمنعها من رؤية بري.

*

«تيتش!» انفرجَتْ أساريرُ سانتي عندما رآها تدخل عليه في مكتبه. «سمعت أنّك عُدْتِ، لكن لم أتوقّع أن تأتِيَ اليوم لرؤيتنا!»

ابتسمت هَيا لسانتي ابتسامة شاحبة. صحيح أنّها شعرت ببعض التحسّن وهي في طريقها إلى الإسطبلات، وكأنّ الضباب الذي ملأ رأسها طوال الأيّام القليلة الماضية قد بدأ ينقشع، إلّا أنّها ما زالت تشعر بأنّها ضعيفة. «كيف حال بري؟»، سألَتْهُ.

«تعالي واكتشفي بنفسك»، قال سانتي، ثمّ نظر إلى ساعته. «الأرجح أن يكون زين قد أخْرَجَها الآن إلى باحة التمارين لتحرّك ساقيْها قليلًا. أمهليني لحظة فقط لأرتّب أموري وسآتي معك...»

قام سانتي عن كرسيّه. كانا يهمّان بالخروج من المكتب حين دخل من الباب رجل ببنطال فروسيّةٍ وقميصٍ كاكيّ اللون. لم يدقّ

على الباب أوّلًا، بل دخل مباشرة. بردّ فعل سريع، تأهّب حارس هَيا الشخصيّ، هبّ واقفًا وتقدّم سادًّا عليه الطريق.

«أوووووه!»، قال الرجل وقد تجمّد في مكانه، بينما ظهرت تعابير هازئة على وجهه. ثمّ رفع يديه بإشارة الاستسلام قائلًا: «ما هذا، يا سانتي؟ هل أصبح لديك حارس شخصيّ الآن؟ لم أكن أعرف أنّك رجل مهمّ!»

أشار سانتي للحارس بالتنحّي جانبًا، وقال: «إنّه مع الأميرة».

استدار الرجل نحو هَيا. «اعذريني سموّكِ، لم أكن أعلم أنّك هنا. أنا الكولونيل بشير، رئيس شرطة الخيّالة والخادم المخلص لجلالة الملك حسين.»

«أعرف»، قالت هَيا، «سَبَقَ ورأيتُكَ تركب الخيل. أنتَ فارس ماهر».

كانت قد شاهدت الكولونيل خلال مشاركاته العديدة في بطولات الكأس الملكيّة، ضدّ اسطبلات الحُمَّر. شرطة الخيّالة مشهورة بتاريخها الطويل من الانتصارات في تلك المناسبة المهمّة. ففي جميع دورات الكأس الملكيّة التي حضَرَتْها هَيا، لم يخسر بشير مرّةً واحدة. شعّ وجه بشير فخرًا أمام إطراء هَيا وقال: «أتمنّى أن تشرّفينا بحضورك هذا العام أيضًا لِتَرينا ونحن نفوز مرّة جديدة بالكأس الملكيّة. سيكون هذا الفوز الحادي عشر المتتالي لفريقي».

«العاشر!»، صحّح له سانتي عابسًا.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

ابتسم بشير. «العاشر، حقًا؟ قلّما يهمّ...»

بدا التوتّر على سانتي وهو يتناول المفاتيح عن طاولة مكتبه. «كنّا نستعدّ للذهاب»، قال لبشير. «دعنا نتحدّث في الخارج.»

كانت هَيا تُدرك مدى استياء سانتي من خساراته المتتالية أمام بشير. تمامًا كما تُدرك أنّه لم يكن الوحيد الذي يشعر بذلك. ففي كلّ عام، كانت تلاحظ الخيبة على وجه الملك وهي جالسة في جانبه في المقصورة الملكيّة، بعد أن يُعلَن فوز بشير وفريقه. طبعًا، كان والدها يقوم دومًا بالواجب، فيتلو خطابًا على شرفهم ويرفع علم شرطة الخيّالة الذهبيّ على السارية قرب المقصورة الملكيّة. لكن هَيا كانت تلمس حزنه في كلّ مرّة.

في أحد الأعوام، بعد أن تسلّم بشير الكأس مرّة جديدة، سألت هَيا والدها لماذا يعنيه الموضوع إلى هذه الدرجة. ففي النهاية، الفريقان تابعان للمملكة والفريقان يتباريان على شرفه. استدار الملك يومها نحو أبنائه وواجَهَهُمْ بابتسامة غامضة قائلًا: «حتّى الملوك والملكات لديهم فريق مفضّل في السرّ».

«صحيح هَيا!»، صرخ علي يومها موافقًا. «لقد سمعت شائعة تقول إنّ الملكة إليزابيث تدعم الأرسنال!»

برأي هَيا، يعود شَغَفُ والدها بالحُمَّر إلى شغفه بخيوله. فالخيول العربيّة في الإسطبلات الملكيّة تتمتّع بدماء بدويّة أصيلة، تعود إلى قرون خَلَتْ، إلى «الأفراس الخمس». تلك الخيول هي التجسيد

الحيّ للإرث الأردنـيّ، ووالدها ناضل كثيرًا للحفاظ على سلالتها النقيّة. إنّ وَلَعَه بها هو سبب تمنّيه عودة الحُمَّر إلى أمجاده. كما أنّ بشير شخص مزعج نوعًا ما. مَن قد لا يتمنّى أن يهزمه؟

«أنا هنا لأناقش تفاصيل بطولة هذا العام»، قال بشير وهو يلوّح بملفّ مليء بالأوراق.

«سيكون عليك تأجيل ذلك، بشير»، قال سانتي. «عليّ الآن اصطحاب الأميرة لرؤية فرسها. عُدْ لاحقًا لنتكلّم.»

«سموّك، لديك فرس؟»، سأل بشير مبتسمًا. «كم هذا جميل!»

«أحلم بالمشاركة في بطولة الكأس الملكيّة للفروسية في يوم من الأيّام»، قالت هَيا. تطلّب الأمر منها الكثير من الشجاعة لتعترف بذلك أمام فارس ماهر كبشير، لكنّها حين رأت التعبير الذي ارتسم على وجهه بعد أن قالت جملتها، تمنّت لو أنّها لم تنطق بأيّ حرف.

«الخيول للرجال»، قال بشير مقطّبًا حاجبيه. «لا يجوز أن تشارك الفتيات في بطولات. وبرأيي لا يجوز أن تمارس بنات العائلات المهذّبات الفروسيّة من الأساس.»

«الأميرة هَيا فارسة بارعة يا بشير»، قال سانتي. «ومن مصلحتك ألّا تسيء إليها في حضوري ثانيةً.»

بدا على الكولونيل بشير الارتباك. «لم أقصد أيّ إساءة»، قال بإصرار. «سموّك، أتطلّع لرؤيتك خلال الدورة المقبلة في المقصورة الملكيّة. وهذه المرّة، سيشرّفنا أن نهدِيَ فوزنا إليك!»

سارع سانتي بالردّ: «مهلًا بشير، أنت لم تَفُزْ بعد. في جميع الأحوال، مهما كان ما تريده منّي، علينا تأجيل الحديث بيننا. فأنا مشغول الآن».

*

بَدَتْ إسطبلات الحُمَّر لهَيا أصغر ممّا كانت عليه قبل رحيلها. عند سماع وقْع أقدامها وهي تتقدّم في الباحة، مدّت الخيول رقابها من فوق أبواب المرابط لتحيّيَها. في العادة، لم تكن هَيا لترضى بتجاوزها من دون أن تربّتَها، أو أن تطعمَها شيئًا حلوًا، لكنّ الأمر مختلف اليوم. هي هنا لرؤية حصان معيّنٍ لا غير.

تقع باحة التدريب الترابيّة بعيدًا، على أطراف المبنى. انعطفت نحوها. للوهلة الأولى، بَدَتْ لها فارغة. ثمّ، في آخر الباحة، في ظلّ الشجرة الوحيدة في المكان، رأت الفرس.

«بري؟»

عند سماعها صوت هَيا، التفَتَت الفرس بأذنين منتصبتين.

ردًّا على هَيا، أصدرت صهيلًا اخترق نسمة الصباح واندفعت مهرولةً في اتجاه فارستها التي ركضت بدورها نحوها، عبر الباحة، بعد أن قفزت عن السياج.

كانت بري تطير... كانت تعْدو كالبرق. بدَتْ وكأنّها ستسحق هَيا عندما تصل إليها! كانا على وشك الاصطدام حين شدّت الفرس بقوّة على قوائمها وانزلقت قليلًا قبل أن تجمد في مكانها، والغبار

لا يزال يتطاير تحت حوافرها، ثمّ رفعت رأسها عاليًا وشقّ صهيلها المحموم الهواء.

من دون تفكير، ارتمت هَيا على الفرس. طوّقت عنق بري بذراعيها، وهي تحتضنها بكلّ ما أوتيَت من قوّة، والفرس تُحَمْحِمُ وتتقافز. ثمّ بدأت بري تمرّغ خطمها بغنج على صدر هَيا، وكأنّها توبّخها على غيابها طوال الأشهر الماضية وتقول لها «أين كنت؟ لقد قلقْتُ جدًا عليك!»

دَفَنَتْ هَيا وجهها في عُرف بري لتُخفِيَ دموعها. لا تريد أن يراها سانتي، لكنّها عجزت عن السيطرة على نفسها. لم تكن دموع حزن، بل دموع فرح وارتياح. الآن تستطيع القول إنّها عادت إلى المنزل.

ظلّت هكذا لوقت طويل، تضمّ بري بشدّة، وتتنشّق تلك الرائحة المحبّبة. أخيرًا، تراجعت قليلًا، وعندها فقط، ألْقَتْ نظرة متفحّصة على فرسها الكستنائيّة. «لقد أصبحتِ هزيلة»، قالت لها. «عليك أن تري تلك الخيول البدينة حيث كنت. حجم كلّ واحدة منها كحجم اثنتين منك.»

رغم ذلك، بدت بري بصحّة جيّدة. فَرْوتها ناعمة، لمّاعة، حمراء وذَيْلها وعُرْفها الأسودان كثيفان، وقد التحقت الأجزاء الأخرى من جسمها بتلك السيقان الطويلة والنحيلة. ولكن، رغم ذلك النحول، كان واضحًا أنّه خلال الأشهر التي غابَتها هَيا، لم تَعُدْ بري تلك المهرة الصغيرة. أصبحت فرسًا حقيقيّة ناضجة.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

حاولت هَيا أن تدور حول بري، متمعّنة بكلّ تفاصيلها، لكنّ الأمر لم يكن سهلًا. فبري لم تكن تهدأ. لم تثبت في مكان، بل كانت تدور مع هَيا، تلاحقها وهي تنخزها وتلكزها بخَطْمها، وكأنّها لا تريدها أن تبتعد عن أنظارها ولو لثانية.

ثمّ جاء زين.

«أهلًا بكِ في ديارنا!»، قال واضعًا سطل العلف جانبًا قبل أن يتقدّم لتحيّتها.

«الحمدُ لله على سلامتك، سموّ الأميرة»، قال. «نوّرتِ المكان.»

ابتسمت هَيا. «عِشْتَ وسَلِمْت، يا زين. وشكرًا جزيلًا لاهتمامك الرائع ببري أثناء غيابي.»

«أعرف أنّها نحيلة بعض الشيء»، قال زين. «لكن، أكيد أنّ وزنها سيزداد الآن بعد أن عدْتِ.»

غَرَسَتْ بري أنفها بإصرار في صدر هَيا وكأنّها تؤكّد على كلامه، فضحكت هَيا وسألت الفرس: «إذًا، هل نبدأ فورًا بإطعامك؟»

صاح زين متعجّبًا: «ألا تريدين امتطاءها؟ العدّة جاهزة بانتظارك.»

«لا أعتقد أنّ الأميرة مستعدّة لذلك بعد»، قال سانتي بنبرة يشوبها القلق.

«بإمكاننا الذهاب إلى الغابة»، قال زين. «سآتي معك إذا أردتِ.»

هزّت هَيا رأسها بوهن. «حسنًا.»

ابتسم زين. «لنسلك المسار الجديد. فيه ممرّ رائع للعَدْو.»

يبدو العدْوُ قرارًا طَموحًا لفتاة بالكاد تستطيع أن تقف على رجليها، فهَيا تشعر بدوار ولا تزال ضعيفة. كانت يداها ترتجفان، وتعجز عن السيطرة عليهما وهي ترفع السرج عن السياج.

«دعيني أساعدك على هذا.» شعرَت بساعدَي يوسف القويّتين وهما تتناولان السرج منها وترميانه على ظهر بري.

«شكرًا يوسف»، قالت هَيا.

«هل عدت إلى المنزل إذًا؟ انتهت الدراسة؟»، سألها يوسف.

«نعم، ها أنا هنا»، أكّدت له. لم تخبره طبعًا أنّه لا يزال هناك ثلاثة أسابيع على انتهاء الفصل. أمام هَيا شهران على الأقلّ قبل أن تعود إلى بادمينتون، هذا إن عادت أصلًا.

«رأيت ذلك المحتال بشير يتحدّث إلى سانتي قبل قليل.» أحكم يوسف حزام السرج. «ماذا كان يريد؟»

«أتى لمناقشة بعض الأمور حول الكأس الملكيّة»، قالت هَيا. ثمّ أضافت: «لا أعتقد أنّه يروق لسانتي كثيرًا.»

«ها!»، غَمْغَمَ يوسف موافقًا. «ذلك الكولونيل مصاب بجنون العظمة. إنّه يدفع سانتي إلى الغضب.»

«لديه ثقة مطلقة بأنّه سينال الكأس الملكيّة مجدّدًا.»

هزّ يوسف رأسه موافقًا. «عند إطلاق هذه البطولة، كان عدد الأعضاء متساويًا بين الفريقين، ثمّ زاد عدد الخيّالة في الشرطة

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

الملكيّة. أصبحوا يفوقوننا عددًا. مقابل كلّ واحد فينا هناك عشرة منهم، لكنّ ذلك لا يمنع بشير من التبجّح بانتصاراته.»

«وما رأي سانتي في كلّ ذلك؟»

«سانتي يدّعي أنّه لا يبالي»، قال يوسف، «لكنّه في الحقيقة يتمنّى لو يُهزَم بشير. فهو يريد للملك أن يفتخر بأنّ اسطبلاته الملكيّة تضمّ أفضل خيول المملكة وأشجع فرسانها».

ثبّت يوسف بري بينما كانت هَيا تمتطيها، وحين أفلت اللجام كانت الفرس في قمّة حماستها. ظلّت تُنَطْنِطُ وترقص طوال الطريق من الباحة حتّى المدخل حيث كان زين في انتظارهما على ظهر فحل كبير كستنائيّ اسمه كلوديوس. ملأ وقع أصوات الحصانين وهما يخبخبان بتناغم، ويطرطقان بحدوتيهما على الإسفلت، صدرَ هَيا بهجةً. ها هي تعود إلى الحُمَّر، المكان الأحبّ إلى قلبها، ورغم شعورها الفظيع بالتعب، كانت تحلّق فرحًا وهي على ظهر فرسها من جديد.

«كم يبعد هذا المسار الذي تحدّثتَ عنه؟»، سألت زين وهي تحاول إخفاء نبرة القلق في صوتها.

«حوالى ساعتين»، ردّ زين. «ربما ساعة ونصف الساعة إذا ما اجتزنا مجمَل المسافة عدوًا.»

تشكّ هَيا في أن تصمد لساعة ونصف الساعة. لكنّها أحسّت ببري تحتها، رشيقة، تتجاوب مع أقلّ لمسة، فاعتَرَتْها ثقة مُطْلَقة

بفرسها. إذا تعبت، ستعتني بها بري وتعيدها إلى المنزل. طالما أنّها على ظهر فرسها الكستنائيّة، هي في أمان.

اتّجها نحو الغابة سالكيْن طرقًا وعرة بين أشجار الزيتون، وسألها زين عن المدرسة الداخليّة. أخبرَتْهُ عن الخيول البدينة في بادمينتون، وعن آل رامسي الذين تعلّمت قفز الحواجز على أيديهم. أخبرَتْهُ أيضًا عن البطولات التي شاركت فيها على ظهر فكتوريوس، لكنّها لم تأتِ على ذكر الأوسمة والميداليّات التي علَّقَتْها فوق سريرها في المخدع. «علينا أن نبنيَ ميدانًا لقفز الحواجز»، قالت لزين. «أريد أن أدرّب بري جيّدًا، كما علّمني آل رامسي.»

«هل بإمكانك إعطائي بعض الدروس في القفز؟»، تمنّى عليها زين. «ليس لدينا وثّابون بارعون في الفريق لخوْض بطولة الكأس الملكيّة. كما أنّ تلك قد تكون مهارةً إضافيّةً نحتاج إلى اكتسابها».

«هل لدينا فرصة للفوز؟»، سألته هَيا.

«الوضع غير ميؤوس منه»، أجاب زين. «هناك خمس مسابقات في البطولة: العرض العسكريّ، التقاط الأوتاد، الصيد بالصقور، قفز الحواجز، والجمباز على الخيل. يتمتّع فريق بشير بفوز مضمون في العرض العسكريّ، فهم يدرّبون خيولهم يوميًا على السير المتناغم. ولكنْ، في التقاط الأوتاد، فرساننا يضاهون فرسانهم سرعةً.»

«وماذا عن المباريات الأخرى؟»، سألت هَيا.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«أنا بارع في الجمباز»، أجابها زين. «مع بعض التدريب، قد نربح هذه المسابقة. لكن أعتقد أنّ بشير سيربح في قفز الحواجز وفي الصيد بالصقور. لذلك، الأمر غير مبشّر تمامًا.»

اتّسع المسار في طريق العودة ومرّا بدرب متعرّجة بعض الشيء تغطّي تربتها إبَر الصنوبر. هنا، عَدَوا بحصانيْهما واستطاعت هَيا أن تشعر بخطوات بري القويّة تحتها. ارتخت قَدَما هَيا من شدّة تعبها. بالكاد كانت تتمكّن من إبقاء قَبْضَتِها مُحْكَمة حول اللجام كلّما انطلقت بري بحماسة.

«هل نستطيع أن نمشِيَ بهما مشيًا لبعض الوقت؟»، سألت زين.

«طبعًا»، قال، «هل أنت بخير؟»

«أنا بخير»، قالت هَيا بإصرار.

فيما خفّف الحصانان سرعتَهما، كانت هَيا شاردة الذهن، تفكّر في بشير والكأس وفريق الحُمَّر.

«وماذا لو أشارك في البطولة إلى جانبكم؟»، قالت فجأة. «الفريق ضعيف في قفز الحواجز وهذه نقطة قوّتي.»

«تريدين المشاركة فعلًا؟» صُدمَ زين بدايةً، ثمّ تبيّن من ملامح وجهها الجَدّية أنّها تعني ما تقول.

«إذا قرّرتِ المشاركة، عليك أن تتباري في المسابقات الخمس وليس في واحدة منها فقط.»

«أنا رياضيّة ماهرة، الأولى في مدرستي»، قالت هَيا. «ما يعني أنّ تعلّم الجمباز على الخيل لن يكون صعبًا عليّ. أما التقاط الأوتاد، فلطالما تابعْتُ مبارياته. أنا متأكّدة أنّ بإمكاني تعلّمه أيضًا.»

ابتسم زين مندهشًا أمام إصرارها. «عليك إذًا أن تتحدّثي إلى سانتي. قولي له إنّك تودّين المشاركة.»

التقَطَ لجام حصانه. «الطريق سيتّسع فور اجتيازنا هذا المنعطف. هل أنت جاهزة للعَدْو؟»

عندما وصلا إلى الإسطبلات، كان الدوار قد تَمَلَّك هَيا التي بالكاد استطاعت الحفاظ على توازنها فوق السرج. كادت تنهار وهي تنزل عنه، فهبّ زين لمساعدتها. عندما لَمَحَ شحوب بَشَرَتها، والعرق الذي يسبق الإغماءة متصبّبًا فوق حاجبيها، نادى يوسف.

«أرجوكِ، اجلسي هنا»، قال يوسف وهو يساعدها على الاستلقاء فوق كومة من التبن محاذية للجدار. «لا تتحرّكي، سموّك. راضي سيَفُكّ السرج عن بري ويُعيدها إلى مربطها.»

«أستطيع القيام بذلك بنفسي»، قالت هَيا بإصرار. لكنّها عجزت عن الوقوف، وحين أرسل سانتي بطلب سيارة تقلّها إلى المنزل، لم تجادل.

ما إن عادت إلى قصر الندوة حتى أرسلتها فرانسيس فورًا إلى سريرها بعد أن رأت شحوب وجهها والهالات السوداء المرتَسِمة تحت عينيها.

«سأطلب أن يُرسَل عشاؤك إلى الغرفة، أميرة هَيا»، قالت فرانسيس. لكنّها لم تتوانَ عن إضافة «كنت متأكّدة أنّ وضعك الصحّيّ لا يسمح لك بأن تركضي فورًا إلى الإسطبلات.»

«لست مريضة»، قالت هَيا معترضةً.

«إذًا، لِمَ سافر والدك إلى إنكلترا لإعادتك إلى المنزل؟»

*

عند المساء، أرسل لها اسماعيل، كبير الطهاة، عشاءها بمصعد الخدمة. رفعت هَيا الغطاء الفضّيّ عن الصينيّة، ورأت أطباقها المفضّلة معروضة أمامها: تبولة، حمّص، مقلوبة، منسف، وتارت تفاح بالقرفة. كانت تضع آخر لقمة من تارت التفاح في فمها حين دخل والدها إلى الغرفة.

«عظيم! أرى أنّك استعَدْتِ شهيّتك»، قال الملك وهو يجلس على طرف سريرها. «أخبرَتْني فرانسيس أنك تحامَلْتِ على نفسك اليوم. لم يكن يجدر بك الذهاب إلى الإسطبلات. أنتِ تحتاجين إلى المزيد من الراحة في المنزل.»

«كان من الضروريّ أن أرى بري»، قالت هَيا.

«ولَو كان...»، قال والدها، «عليك أوّلًا أن تستَجْمِعي قوّتك».

«بري هي قوّتي»، أجابت هَيا. «عندما كان يشتدّ حنيني إلى المنزل، كنت أغلق عينيّ وأدّعي أنني لست في إنكلترا، بل في الأردن، أنا وهي معًا، وحدنا، نَعْدو في الصحراء إلى ما لا نهاية.»

لم يأتِ والدها بعد ذلك على ذكر ما حدث في المدرسة الداخلية. كما لم يتطرّق إلى موضوع إعادتها إلى هناك مع بدء العام الدراسيّ الجديد. وهَيا تدرك أنّه، عاجلًا أم آجلًا، سيكون عليها أن تعود، لكن ما يهمّ الآن هو أنّها في المنزل، مع بابا وعلي وبري.

«بري!»، صرخت وهي تقفز من السرير والقلق بادٍ عليها. «عليّ أن أتّصل بالإسطبلات. نسيت أن أطعمها...»

«إهدئي»، قال والدها. «اتّصل بي سانتي وطلب منّي أن أخبرك أنّ بري أكلت كلّ عشائها اليوم.»

«يجب ألّا تأكل كثيرًا»، قالت هَيا بقلق. «إذا أكلت كثيرًا، ستصاب بالمغص...»

«أعتقد أنّ سانتي لديه خبرة كافية في إطعام الأحصنة، ألا توافقينني الرأي؟»، قال والدها وهو يبتسم. خفضت هَيا نظرها نحو البطّانيّة، وهي تخجل من أن تلتقي عيناها عينيه.

«ما الأمر؟»، سأل الملك ابنته.

«كنت أفكّر في عيد ميلادي السادس. حين أهديْتَني بري. هل تذكر؟»

«أكيد، أذكر.»

«كانت صغيرة جدًا»، قالت هَيا. «يتيمة ليس لديها أحد للاعتناء بها، ووحيدة جدًّا. حين أخبرْتَني أنّها أصبحت لي، شعرت برهبة شديدة.»

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«لكنّك رفعتِ التحدّي»، قال والدها. «المهرة عاشت، بفضلك.»

«هذا ما اعتقدته في حينها أيضًا»، ردّت هَيا، «لكنّ هذا غير صحيح، أليس كذلك؟»

امتلأت عيناها بالدموع. «لقد سلّمتني تلك المهرة التي تعتمد كلّيًا عليّ. وللمرّة الأولى، لم أفكّر في ماما، أو في مدى حزني. كنت أفكّر فقط في بري.»

«أحيانًا، يكون الاهتمام بكائن آخر أفضل وسيلة نمتلكها لتخطّي حزننا.»

أمسَك والدها بيدها. «كنت تائهة، هَيا. كان لديك من الألم ما يجعل الوصول إليك مستحيلًا على أيٍّ منّا. ولكنْ، من اللحظة التي رأيْتِ فيها تلك المهرة، انفتح قلبك مجدّدًا، وعُدْتِ إليّ.»

بصوت مرتعش، قالت له هَيا: «لطالما اعتقدت أنّني الأقوى، وأنّني أنا مَن يهتمّ بها. لكنّني أُدرك الآن أنّ العكس هو الصحيح».

انهمرت الدموع على خدَّيْ هَيا، فمسحَتْها بظهر كفّها.

«لَسْتُ أنا مَن أنقذ بري»، قالت، «بل هي مَن أنقذَتْني».

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

الفصل السادس عشر

تعلُّم الطيران

منذ عودة هَيا إلى الأردن والجميع يعاملونها كما لو أنّها وَرْدَة هشّة. يتمنّون لو يغلّفونها بالشّاش ويبقونها في غرفتها. المكان الوحيد الذي تشعر فيه بالراحة هو الإسطبلات. فهنا لا يبالغون في الاعتناء بها. سانتي هو الذي يفهمها، يعرف أنّها فارسة حقيقية وليست مجرّد فتاة صغيرة ضعيفة. على الأقلّ، هذا ما اعتقدَته حتى الآن.

«اسمعيني جيّدًا، تيتش»، قال سانتي. «التنافس على الكأس الملكيّة لا يلائم فتيات في الثانية عشرة من عمرهنّ! لا يخوضه إلّا البالغون من الرجال.»

«أنا فارسة ماهرة»، قالت هَيا مدافِعَةً عن نفسها.

«ربّما»، قال سانتي. «لكنّك في النهاية فتاة. وفي تاريخ الكأس الملكيّة كلّه لم تشارك فتاة.»

«وإن يكُن... لا شيء يمنعني من أن أكون أوّل فتاة تقوم بذلك»، ردّت هَيا.

«تيتش، لو كان الأمر يعود إليّ، لكنت سمحت لك بالمشاركة، ولكن هناك قوانين...»

«غير صحيح»، قالت هَيا. «هناك تقاليد، وهذا مختلف. أحيانًا، تكون التقاليد جيّدة ويجب اتّباعها، ولكن أحيانًا، الواقع يتطوّر ويتبدّل وعلينا أن نجاريَه. لِمَ يُمنَع على الفتاة أن تكون فارسة، تسير جنبًا إلى جنب مع الرجال، إذا كان لديها ما يكفي من المهارة لتقوم بذلك؟»

ارتبك سانتي أمام تحليلها المنطقي. «هذه مسابقة في غاية الجدّيّة، سموّك. وفي غاية الخطورة أيضًا...»

«خوض هذه البطولة هو حلمي منذ الطفولة»، قالت هَيا. «القَدَر أعادني إلى هنا، وفي داخلي شيءٌ يُنبئني أنّ الوقت قد حان.»

«ليس القَدَر ما أعادك إلى المنزل بل المرض والإعْياء»، قال سانتي بحزم. «يكفي أنّني تحمّلت عظة فرانسيس بعد تلك الدوخة التي انتابَتْك. أنتِ الآن في فترة نقاهة، لا في دورة تدريب على الفروسيّة. ثمّ، ماذا لو أُصِبْتِ؟ لا يمكنني أن أتخيّل ذلك حتّى!»

«لكنّ القرار يعود لي في النهاية، أليس كذلك؟»، قالت هَيا.

«كلّا»، أجاب سانتي. «القرار يعود لي أنا، هَيا، وقد اتَّخذْتُه. لن تشاركي في بطولة الكأس الملكيّة.»

*

في لحظات الحزن أو الغضب، صهوة الخيل هي الملجأ. هَيا تعرف أنّ لا أحد بإمكانه انتشالها من حزنها... إلّا بري. كانت تعتمد على زين أيضًا، لكنّها بدأت الآن تُعيد النظر في ذلك.

«رفض سانتي لم يفاجِئْني»، قال لها وهما يتمشّيان بين الهضاب.

«هل توافقه الرأي؟»، قالت هَيا.

«لم أقُل ذلك»، عارضَها زين. «لكنّ طلبك خارج عن المألوف. سانتي يعرفك مذ كنت طفلة. لا يُدرك أنّك كبرت، وأنّك جاهزة للقيام بهذه الخطوة.»

«وأنت، هل تعتقد أني جاهزة؟»، سألت هَيا.

«ليس بعد، سموّك»، قال زين، «لكنّك ستكونين جاهزة، بعد أن نقوم ببعض التدريبات».

«وما الفائدة من التدريب؟ ألَم تسمع؟ قلْتُ لك سانتي لن يسمح لي بالمشاركة.»

«هل ستستسلمين إذًا؟»، قال زين. «غريب، المدرسة الداخليّة غيّرَتْكِ فعلًا. هَيا القديمة التي أعرفها ما كانت لتستسلم بهذه السهولة.»

«مضحك جدًّا»، ردّت هَيا مكشّرة.

لكنّ زين لم يكن يمزح. «تعلّمينني قفز الحواجز»، قال، «وأنا أعلّمك الجمباز على الخيل. ما رأيك؟»

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

نظرت هَيا إليه. ثمّ جمعت سيورَ لِجام بري بكفّها. «هيّا بنا. أترى قطعة الخشب على الأرض هناك؟ سأعطيك درسك الأوّل في قفز الحواجز.»

قَضَيَا طوال فترة بعد الظهر في البحث عن حواجز طبيعيّة في الغابة. استخدمَتْ هَيا كلّ ما اكتسبَتْهُ من خبرة في باحات آل رامسي لكي تشرح لزين كيف يقترب بالحصان من الحاجز وكيف يُقَيّم الخطوات ومسافة القفزة.

في هذه الأثناء، كانت بري أيضًا تتعلّم. هي وثّابة بالفطرة، لكنّها لم تحظَ بفرصة للتدرّب قبل الآن. في المرحلة الأولى، اكتفَتْ هَيا بتدريبها على الحواجز الصغيرة.

«حجم الحاجز ليس هو المهمّ»، قالت هَيا لزين. «على الحصان أن يتعلّم أوّلًا كيف يحافظ على توازنه ويتقدّم بثَبات.»

ما إن أَتْقَنا القفز على الحواجز السهلة في الغابة، حتّى نقلت هَيا التدريبات إلى الحلبة وبدآ باستخدام القضبان الملوّنة، بعد أن جهّزا مجموعة متنوّعة من الحواجز: مزدَوجة، ثمّ ثلاثيّة. كانا يمرّنان الحصانين في شبكات خطوط متصالبة لتنمية ردّ الفعل السريع لديهما ولتطوير لياقتهما. لم يلاحظ زين أنّ الحواجز كانت تعلو تدريجيًّا. وذات يوم، بعد قيامه بإحدى القفزات على ظهر كلوديوس، قالت له هَيا: «هل ترى ذلك الحاجز الذي قفزت عنه للتوّ؟ إنّه حاجز يبلغ ارتفاعه مترًا وعشرين سنتمترًا».

قسّما أيام التدريب بين القفز على الحواجز والجمباز على الخيل.

بدآ بالمبادئ الأساسيّة. «الإيقاع هو المهمّ، سموّك»، قال زين لهَيا. «عدّي دائمًا الخطوات في رأسك.»

كان زين يعْدو على ظهر كلوديوس إلى جانبها. واحد، اثنان، ثلاثة. تخطّاها بمسافة قصيرة. انحنَتْ هَيا قليلًا إلى الأمام وكأنّها لاعبة جمباز على وشك أن تتشَقْلَبَ على حصيرة. مدّت يديها، فأمسك زين بهما ورفَعَها عاليًا. وبحركة واحدة رشيقة، حطّت هَيا على ظهر كلوديوس. ها هي تركب خلفه. كانت وثْبةً رائعةً!

تفاجأ زين. «أنت تتعلّمين بسرعة»، قال لها. كانت هَيا قد تدرّبت طوال السنوات الماضية على الحصيرة، وعلى الحصان الخشبيّ، وعلى جهاز الحلَق، وعلى المتوازي، إلى أن أصبحت هذه الحركات الرياضيّة طبيعيّة وعاديّة بالنسبة إليها. رغم ذلك، عندما حاولت للمرة الأولى القيام بقفزة خلفيّة عن ظهر بري، جفلت الفرس تحتها فحطّت هَيا بعنف على الأرض.

«ما بها ذراعُك؟»، سأَلَتْها فرانسيس صباح اليوم التالي خلال الفطور. فقد انتبهت أنّ الأميرة تئنّ من الألم وهي تحمل الإبريق الزجاجيّ الثقيل لتصبّ لنفسها بعض العصير.

«لا شيء، أنا بخير»، قالت هَيا بإصرار. لو أنّ هَيا رفعت أكمام قميصها، لكانت فرانسيس رأت تلك الكدمة الخضراء والبنفسجيّة الممتدّة من مَفْصَلِها حتّى كوعها.

بهدف إخماد شكوك فرانسيس، قَضَتْ هَيا النهار في المنزل. أصلًا، كانت ذراعها تؤلمها إلى درجة تمنعها من القيام بأيّ تدريب، كما أنّ عليها إنجاز الفروض التي أُرسِلَت لها من المدرسة. تلقّت هَيا مع تلك الفروض بطاقة من زميلاتها. على البطاقة صورة قطّة مخلبها مضمّد، وجملة تقول: الحمدلله على السلامة، وقلب رَسَمَتْهُ كلير وكَتَبَتْ داخله عبارة: «اشتقنا إليك»، ووقّعَتْه جميع الفتيات. تلقّت هَيا أيضًا رسالة من جميما، تُطْلِعها فيها على آخر أخبار شبرلاند كوبس وتسألها إن كانت ستعود قبل انتهاء الفصل الدراسيّ.

ردًّا على جميما، كتبت هَيا: «أنا أتمرّن لخوض بطولة هنا في الأردن. بطولة الكأس الملكيّة...».

*

طوال الشهر الذي مضى، كان زين وهَيا يتمرّنان، وكان سانتي يراقبهما من بعيد. ثمّ، ذات يوم، نزل إلى الحلبة ترافقه أورسولا. كانت هَيا قد ركّزت جهودها خلال الفترة الماضية على تمارين الجمباز مع بري. وبما أنّ الفرس أثبتَتْ جدارتها في سرعة التعلّم، كانت هَيا ترفع القضبان شيئًا فشيئًا لعدّة سنتمترات إضافيّة في كلّ مرّة، إلى أن أصبحت الفرس جاهزة أخيرًا لخوض سباق حقيقيّ.

في ذلك اليوم الذي نزل فيه سانتي وأورسولا إلى الحلبة، كانت هَيا قد جهّزتها بسبعة حواجز، جميعها بطول متر وعشرين سنتمترًا. بينما كانت تعْدو نحو الحاجز الأوّل، كَبَحَتْ بري قليلًا، ثمّ أعطتْها

إشارة الانطلاق بطَرْطَقَةٍ من لسانها وبتَرْبيتة من كاحليْها. تجاوبت بري وانتصبت أذناها وقفزت عن الحاجز الأوّل... ثمّ عن الحواجز الأخرى. كانت جميع القفزات ناجحة، واختُتمَت الجولة من دون أن يهتزّ حاجز أو قضيب. تصاعَدَ التصفيق فيما اقتربت هَيا من أورسولا وسانتي تاركةً بري تستريح بعد أن أَرْخَتْ ألْجِمتها.

«جيّد جدًّا!»، قال لها سانتي منبهرًا. «هذه الفرس تقفز أفضل من والدتها بعد. لقد درّبتِها جيدًا.»

«جيدٌ بما يكفي لتشارك في بطولة الكأس الملكيّة؟»، سألته هَيا.

عبس سانتي. «كنت أعتقد أنّنا انتهيْنا من مناقشة هذا الموضوع.»

«أيّ موضوع؟»، سألت أورسولا.

«تيتش تريد أن تشارك في بطولة الكأس الملكيّة»، أجاب سانتي. «لكنّني أوضحْتُ لها أنّها لا تزال صغيرة على ذلك.»

نظرت أورسولا نحوه. «سانتي! لا رجل في فريقك يستطيع القيام بما قامت به هَيا في الحلبة للتوّ.»

«بل إنّ قفزهم لا بأس به»، دَمْدَمَ سانتي.

هزّت أورسولا رأسها قائلة: «أنت تكابر».

«وماذا لو سمحْتُ لها بالمشاركة وأُصيبَت؟ ماذا سأفعل حينئذ؟»

تنهّدت أورسولا. «هَيا لم تعد في السادسة من عمرها، سانتي. دعها تعيش حياتها. لن تستطيع حمايتها إلى الأبد. إذا كانت ترغب في المشاركة، فلتُشارك، لم لا؟»

شعرت هَيا بأنّ هذه فرصتها فقالت: «أرجوك سانتي. لن أخذلك. كنت أقفز فوق مستويات أعلى بعد، في إنكلترا. لقد سبق وخُضْتُ بطولات مهمّة».

«هذه ليست واحدة من البطولات النظيفة التي اعتدتِ خوضها هناك»، أجاب سانتي. «ثمّ إنّ هناك عدّة مسابقات فيها. خذي مثلًا التقاط الأوتاد والجمباز على الخيل. وماذا عن الصيد بالصقور؟ حتّى الآن، ليس في الفريق مَن هو مؤهّل لخوض هذه المسابقة.»

«أنا وزين نتمرّن على الجمباز»، قالت هَيا بثقة. «وسأشارك في مباراة الصيد بالصقور أيضًا.»

بَدَتِ المفاجأة على سانتي. «وهل لديك صقر؟»

«في الحقيقة، ليس بعد»، قالت هَيا، «لكنّني سأحصل على واحد قريبًا جدًّا». كان قلبها يخفق بشدّة.

تنهّد سانتي. «حتّى لو وافقْتُ أنا، سيكون من المستحيل أن تشاركي. بشير سيعترض.»

«أشكّ في ذلك»، قالت هَيا. «هل تتخيّل كيف سيبدو لو حاول منعي من المشاركة؟ سيبدو وكأنّه مرعوب من أن تغلبه فتاة لدرجة أنّه يشكي أمره للحكّام!»

ضحك سانتي وقال: «أنتِ على حقّ. كم أتمنّى أن أرى تعابير وجهه فيما تدخلين الميدان لمنافسته هو ورجاله.»

«أرجوك سانتي»، قالت هَيا. «كلّ ما أريده هو مساعدتك على استرجاع الكأس الملكيّة للحمّر.»

«هل تدركين ما تورّطين نفسك فيه؟»، سألها سانتي بنبرة بالغة الجدّيّة. «هذه بطولة عنيفة، لا قوانين تحكمها، كلّ شيء فيها مُباح. هذه معركة بكلّ معنى الكلمة، وبشير لديه جيش.»

«وسانتي لديه أنا وبري»، قالت له هَيا.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفصل السابع عشر

الحُرّ

في اليوم التالي، كانوا يتناولون الفطور في الغرفة الزرقاء، وكان الملك يقرأ جريدة حين دفعت هَيا صحنها جانبًا، واستَجْمَعَت شجاعتها لتسأله:

«بابا، هل بإمكاني الحصول على صقر؟»

«للطبخ؟»، سألها علي ضاحكًا.

رَمَقَتْه قائلة: «لا... للتدريب».

وضع الملك الجريدة من يده. «من أين نَبَعَتْ فجأة هذه الفكرة؟ ففي آخر مرّة ذهبنا للصيد معًا، كنتِ تدافعين عن الفريسة.»

«لقد غيّرت رأيي»، قالت هَيا. «أرجوك أن تأتِيَ لي بصقر! سأُطعِمُه وأعتني به وأدرّبه بنفسي.»

«تربية الصقور ليست سهلة»، قال والدها. «فهي تحتاج إلى الكثير من المهارة والالتزام.»

«لقد اعتنَيْتُ ببري جيّدًا»، قالت هَيا. «أرجوك، بابا؟»

«سأتحدّث مع المسؤول عن تدريب الصقور في مجموعة الإسطبلات الملكيّة»، قال الملك، «وسنرى ما يمكننا فعله بهذا الشأن.»

بعد يومين، وصل إلى الندوة رجل طويل القامة يرتدي عباءة بيضاء ويحمل بيده قفصًا مغطّى بقطعة قماش بيضاء.

«هذا هو؟»، سألت هَيا وهي تحاول أن تَسْتَرِقَ النظر تحت القماش. أومأ والدها برأسه. «أتودّين التعرّف إليه؟»

لحقت هَيا وعلي بوالدهما إلى المكتب، وَوَضَعَ مدرّب الصقور القفص على الوتد بجانب النافذة. أمسك بطرف قطعة القماش وسحَبَها، فوقعت على الأرض كاشفةً عن الطائر.

كان طائرًا صغيرًا. أصغر بكثير ممّا كانت هَيا تتخيّل، تقريبًا بنصف حجم أخبار، صقر والدها. طوله أقلّ من ثلاثين سنتمترًا بقليل، وريشه مرقّط وباهت، وقد تساقط معظمه زُقعًا، وكأنّه قد خاض للتوّ معركةً عنيفة مع قطّ شرس.

«لِمَ هو أصلع في بعض الأماكن؟»، أشار علي.

«ريشه يطرح»، قال مدرّب الصقور. «فهو لا يزال طفلًا، يبدّل ريشه الآن لأنّه في طور النضوج.»

مقارنةً مع أخبار، بدا الطائر شاحبًا. «هل بإمكانه التقاط أشياء؟»، سألت هَيا بقلق.

«إنّه صقر من نوع الحُرّ»، ردّ المدرّب، «وهو طير مرغوبٌ جدًّا، صيّاد ماهر، مناسب جدًّا للصيد في الصحراء، ومناسب جدًّا لك كمبتدئة».

شعرت هَيا بالامتنان في سرّها. على الأقلّ، حصلت على صقر، مهما كان نوعه. صحيح أنّه لا يُطابق تمامًا ما كانت تتوقّعه إلا أنّها لن ترفض الهديّة طبعًا. «سأسمّيه سَما»، قالت. فقد لاحظت أنّه يحبّ الشرود في السماء بعينيه العنبريّتين، وكأنّه غارق في التفكير والتأمّل.

تقدّم المدرّب من القفص. فتح بابه ووضع على رأس سَما برقعًا جلديًا، برز أنف الطائر من تحته. ربط الأحزمة الجلديّة ليُحكِم البرقع، ثمّ علّق قدمَي الطائر برباط جلديّ.

«لا ترفعي البرقع عن عينيه في البداية»، قال المدرّب ناصحًا هَيا.

مدّ يده المغطّاة بالقفّاز الجلديّ نحو بطن الحرّ ونخزه، فأطاعه الطائر وقفز على قبضته التي سحبها ببطء شديد من القفص والحرّ لا يزال رابضًا عليها. ثبّت الطائر مخالبه بقوّة غارسًا إيّاها في القُفّاز الجلديّ.

ناول المدرب هَيا قفّازًا صغيرًا. «هاكِ، ضعي هذا.»

حين نخزت هَيا الطائر على بطنه، قفز سَما بطاعة أيضًا من قبضة المدرّب إلى قبضتها.

يا له من إحساس غريب! حاولت أن تحافظ على كوعها مثنيًّا وعلى ساعدها بزاوية مستقيمة حتى تثبّت وقفته، لكنّ الطائر تَمَلْمَلَ واستدار.

«ما أثقله!»، قالت هَيا بتوتّر. لن تتمكّن من الصمود طويلًا في هذه الوضعيّة.

«سوف تعتادين ذلك»، قال لها المدرّب. «دعيه برفقتك قدر الإمكان خلال الأيّام المقبلة لكي يعرف أنّك، من الآن وصاعدًا، سيّدته الجديدة.»

حاولت هَيا أن تحافظ على ثبات يدها، لكنّ سَما كان يتأرجح ويهَزْهِز. يحرّك رأسه يمنةً ويسرةً وكأنّه يحاول العثور على شيء لا يمكنه رؤيته.

«جلالتكم»، قال المدرّب، «لقد أحضرت معي طائرًا آخر اليوم في حال رغبتم الاستعانة به في رحلة الصيد المقبلة. إنّه في الخارج، في القفص. هل تودّون رؤيته؟»

نظر الملك نحو هَيا. «هل ستتدبّرين أمرك حتّى نعود؟ لن نتأخّر.»

«نعم بابا»، قالت هَيا بنبرة ملؤها الثقة.

في المكتب، انتظرت هَيا عودة والدها والمدرّب وهي تمدّ ذراعًا متصلّبة. تأمّل علي الحُرّ. ثم لوّح بيده أمام الرأس الصغير المغطّى.

«هو لا يستطيع رؤيتك»، قالت هَيا.

«أكيد أنّه يُعاني من إحساسه بالعمى»، قال علي. «ما رأيك لو ننزع البرقع عن عينيه؟»

«أوكي، انزعْه»، قالت هَيا. ثبّتت يدها قدْر ما استطاعت بينما راح علي يفكّ أربطة البرقع الجلديّة ليسحبه بحذر عن رأس الحرّ الناعم.

في اللحظة التي انزاح فيها البرقع عن عينيه، أطلق الحرّ صرخة تصمّ الآذان وقفز طائرًا عن قبضة هَيا. لسوء حظّه، ارتطم بالنافذة التي تفصل بينه وبين السماء، وسقط على الأرض.

بعد ذلك بلحظات، عاد المدرّب فصُدم لرؤية الطائر مرميًّا على الأرض.

«هل مات؟»، سألت هَيا من دون أن تجرؤ على لمسه.

«هو دائخ فقط»، أجاب المدرّب وهو يلمّ الصقر عن الأرض. «الحمد لله أنّ سَما صغير. لو أنّه أخبار لكان كَسَرَ النافذة وحلّق بعيدًا!»

وضعوا سَما في قفصه مجدّدًا ليرتاح.

«متى سيصبح بإمكاني إرساله ليلتقط طُعمًا؟»، سألت هَيا المدرّب وهو في طريقه للمغادرة.

«لا يزال الوقت مبكرًا على ذلك»، قال. «ستدركين وحدك متى أصبح جاهزًا.»

لم يطرح الوقت أيّة مشكلة في عمليّة ترويض بري. لكنْ، في حالة الصقر، لن يكون بوسعها الانتظار لأشهر. اسْتَرَقَت النظر خلف قطعة القماش، إلى داخل القفص. «عليك أن تتعاون معي لننجز بسرعة ما علينا إنجازه»، قالت له. ففي حالتهما، لا مجال لإضاعة الوقت.

*

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

في تلك الليلة، حاولت هَيا أن تتناول عشاءها وسَما جاثم على قبضتها.

«لا أحد يحمل معه طائرًا إلى غرفة الطعام!»، قالت فرانسيس.

«عليّ أن أحمله معي أينما ذهبت»، ردّت هَيا بإصرار.

«ذلك يتنافى مع قواعد الصحّة العامة أصلًا!»، قالت فرانسيس، قبل أن تلمح آثار الخدوش المتشابكة على ذراع هَيا.

«وما هذا أيضًا؟ ما الذي حلّ بذراعك؟»

«لا شيء»، أجابت هَيا. «إنّها مجرّد خدوش.»

«يا إلهي! أيّتها الفتاة، هذه جراح مفتوحة»، قالت فرانسيس. «هل الطائر هو ما تسبّب بذلك؟»

«ليست غلطته»، ردّت هَيا. «كنت أضع القفّاز، لكنّه لا يمتدّ على طول ذراعي. عندما نزعت البرقع عن رأسه، حاول الهرب، لكنّه ارْتَبَكَ لأنّ أحزمته كانت لا تزال مربوطة بي.»

هزّت فرانسيس رأسها وهي تكاد لا تصدّق. تنهّدت ثمّ قالت: «كنت أعتقد أنّ المدرسة الداخليّة ستجعل منك فتاة متحضّرة. ولكن لا، ها أنت مجدّدًا، مغطّاة بالجروح، وتأتين إلى العشاء وعلى قبضتك طائر رابض وكأنك بدويّةٌ ما من الصحراء!»

كانت فرانسيس تقصد توبيخها حين قالت تلك الجملة، لكنّ هَيا لم تنزعج، بل على العكس، نسيَت فجأة كلّ الوجع الذي تشعر به واجْتاحَها إحساس عارم بالفخر. فبِضعُ خدوشٍ هي ثمنٌ لا يُذكَر لقاء مشاركتها في بطولة الكأس الملكيّة.

*

الآن وقد وافق سانتي على اشتراكها في البطولة، سوف تتمرّن كلّ صباح مع باقي أعضاء الفريق.

وصلت في الصباح الأوّل إلى الإسطبلات فرأت زين خارجًا من المرابط وهو يجرّ فرسًا عربيّة رماديّة اللون، ناولها أَلْجِمَتَها. لا شكّ في أنّ هناك سوء تفاهم. سألته: «أين فرسي؟ ما الذي يحدث؟»

«أمرني سانتي بتجهيز حيرا لك»، ردّ زين. «يريدك أن تمتطيَها بدل بري.»

لاحظ زين النظرة التي ارتسمت على وجه هَيا. «أأفهم من ذلك أنّك لم تكوني على علم بَقَراره؟»

هزّت هَيا رأسها نفيًا وقالت له: «انتظرْني هنا».

وجدت سانتي في غرفة السوس منغمسًا في ترتيب مجموعة من الألجمة المتشابكة.

«تيتش!» قال، «هل جهّز زين حيرا لك؟ سآتي في الحال لأوضّب الميدان حتّى نتمرّن على التقاط الأوتاد...».

«لن أمتطِيَ حيرا»، قالت هَيا. «أريد بري.»

توقّف سانتي عمّا كان يفعله واستدار نحوها. «هَيا، بري لا تزال في مرحلة التدريب. أمّا حيرا ففرس ممتازة في مجال التقاط الأوتاد. سريعة جدًّا وذات خبرة، هي أسرع فرس لدينا.»

«إذًا، فليمتطِها زين»، قالت هَيا. «لن أركب فرسًا غير فرسي.»

بدا القلق على وجه سانتي، ثمّ قال وهو يختار كلماته بعناية: «تيتش، ليس لدينا الكثير من الوقت. أمامنا فقط بضعة أسابيع للتدريب. عندما سندخل إلى ذلك الإستاد، ستكون المدرّجات مكتظّة بآلاف المتفرّجين. وهذه المباراة تعني لهم الكثير. هل تريدينهم أن يظنّوا أنّ مشاركتك قُبلَت فقط لأنّك ابنة الملك؟».

هزّت هَيا برأسها. «سانتي، أعرف كم هذا مهمّ لشعبي. حين أدخل تلك الحلبة، سأحمل آمالهم معي. كلّ ما أريده هو تحقيق المجد والنصر لوالدي ولإسطبلات الحُمَّر.»

«إذًا، امتطي حيرا!»، ردّ سانتي. «هي فرس مُتمرّسة. لقد سبق لها وأن شاركت في هذه البطولة. أنا متأكّد أنّكما ستنسجمان معًا. بري لا تزال صغيرة السنّ، هناك مخاطرة في امتطائها. قد لا تخذلك، لكنّ ذلك أمر غير مضمون، فهي لم تشارك في بطولات من قبل.»

«أعرف أنّك تحاول فقط أن تحميَني»، قالت هَيا لسانتي، «لكنّني متأكّدة من أنّ الناس، عندما سيرونني في تلك الحلبة، سيدركون أنّني أتبارى بكلّ جوارحي. وسيرونَني أمتطي الحصان الذي ربّيته وروّضته بنفسي. بري فرسي وهي الفرس الوحيدة التي سأمتطيها».

*

كان السيّاس يسرجون خيولهم والسجائر تتدلّى من أفواههم. عبقت نسائم الصباح بالدخان وبأصوات محادثاتهم ولكن، ما إن ظهرت هَيا وهي تجرّ بري حتّى حلّ الصمت عليهم جميعًا.

كان يوسف أوّل مَن حكى: «أخبرنا سانتي أنّك ستشتركين معنا في بطولة الكأس الملكيّة». ثمّ انفرج وجهه عن ابتسامة عريضة. «أهلًا بك بيننا، سموّ الأميرة.»

«آمل أن تكوني ماهرة في قفز الحواجز بالقَدْر الذي يحكي عنه زين، لأنّ راضي عديم النفع في هذا المجال!»، قال عطا.

«بذمّتك!»، قال راضي ملتفتًا صوبه. «أنت أسوأ منّي بعد!»

ثمّ ابتسم لهَيا. «أهلًا بكِ في الفريق.»

امتطى الفُرسان أحصنتهم من غير أن يشدّوا ألجمتها وانطلقوا عبر الممرّ وهم يتناكفون ويضحكون مُسترخين.

كان زين وهَيا آخر الواصلين إلى الحلبة، وكانت بري تخبّ وتنَطِنطُ متأرجحة على الجنبين، وحدوتاها تطرطقان على الإسمنت، فاضطرَّت هَيا إلى أن تشدّ لجامها لتكبحها.

«اهدئي يا بنت»، قالت هَيا في محاولةٍ منها لطمأنة الفرس. بدا صوت هَيا هادئًا رغم الانقباض في معدتها. فانفعالها لا يقلّ عن انفعال بري.

«ماذا حصل لذراعك؟»، سألها زين. كانت ذراعها اليسرى قد تبقّعت عند المستوى الذي يصل إليه القُفّاز صعودًا، فبدت وكأنّها خريطة تحدّد معالمها الخدوش المتوحّشة التي خلّفتها هَجَمات سَما. في ذلك الصباح، كانت هَيا قد نزعت البرقع عن رأس الحُرّ لتطعمه وجبة الفطور، فجنّ جنونه وانقضّ عليها يَهبش ويَزعق.

«لا شيء»، قالت هَيا. «أنا بخير.»

وضع سانتي رماحًا خشبية مرنة في صندوقين. كانت أطراف الرماح غير الحادّة تبرز من كلّ صندوق فيما تواجه أطرافها المسنّنة القعر. ثمّ، في وسط الحلبة، وضع صفًّا من الأوراق الصغيرة على شكل مربّعات لا تفوق مناديل الطاولة حجمًا، ثبّتها بحجارة كي لا تطير.

انقسم السيّاس إلى فريقين يواجه أحدهما الآخر عند طرفَي الحلبة.

«أميرة هَيا!»، صرخ لها يوسف من فوق فرسه الرماديّ الكبير. «تعالي وانضمّي إلى فريقنا.»

اجتازت هَيا الحلبة جَرْيًا على ظهر بري، في اتّجاه يوسف، وكان راضي في الفريق ذاته، فيما انضمّ عطا وزين إلى الفريق الآخر. ثمّ، حتّى يتعادل الفريقان عددًا، التحق سانتي بفريق يوسف.

قاد كلّ فارس فرسه نحو الصندوق والتقط كلٌّ منهم بيده اليمنى رمحًا، بينما أمسك باليسرى اللجام. قادت هَيا بري إلى الأمام. صهلت الفرس عند رؤية الصندوق وتراجعت.

«هيّا، بري.» لكزت هَيا الفرس، لكنّ بري ظلّت تتراقص في مكانها رافضة الاقتراب.

«هاكِ»، قال لها يوسف، «خذي رمحي».

ناول هَيا الرمح وسحب لنفسه رمحًا آخر من الصندوق. حُلَّت المسألة، لكنّ هَيا تذكّرت عرض سانتي حول امتطائها حيرا. نظرت

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

بري نحو الصندوق المليء بالرماح وكأنّه أسد جبليّ يتحضّر لالتهامها. كيف ستتصرّف بري في يوم المسابقة إذا كانت هَيا تعجز حتّى عن جعلها تقوم بهذه الحركة البسيطة خلال التدريب؟

كانت هَيا قد شاهدَتْ مباريات عديدة لالتقاط الأوتاد، لكنّها اليوم تشارك للمرّة الأولى في إحداها. هي إحدى أقدم رياضات الفروسيّة، يتسابق فيها الفرسان ليلتقطوا برماحهم ورقة صغيرة عن الأرض ويعودوا بها إلى خطّ البداية.

جميع الخيول أصبحت جاهزة، وبري ترتجف، كلّ عضلة وكلّ كتلة عصبيّة فيها جاهزة للعَدْو. «تأهّبوا...»، صاح سانتي، ولكنْ، قبل أن يُكمل جملته، كانت بري قد شبّت على قوائمها الخلفيّة. استجابت هَيا بسرعة وألقت بثقلها إلى الأمام متمسّكة بعنق الفرس لتقِيَ نفسها من السقوط. سيطرت على بري وتفادت السقوط عن السرج، لكنّ وجهها اصفرّ هلعًا.

«هل أنت بخير؟»، سألها سانتي.

هزّت هَيا برأسها وشدّت على اللجام. «تأهّبوا...» حاولت بري أن تشبّ مجدّدًا، لكن هَيا كانت جاهزة لها تمامًا هذه المرّة. دارت بها دورة ضيّقة فاستعادت السيطرة عليها.

«انطلقوا!»

انطلقت بري تعدو. كانت حيرا تعدو بموازاتها. الفَرسان سريعتان، تواكب إحداهما الأخرى خطوة بخطوة. كان تنفُّسُ بري

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

يخرج على شكل نخير غاضب، وكانت أذناها ملتصقتيْن برأسها، لكنّ حيرا سبقتها بخطوة واحدة، فوَصل زين إلى الهدف أوّلًا. وجّه ضربة نحو الورقة لكنّه أخطأ الهدف! عندما حان دور هَيا، غرزت رمحها عميقًا في التراب، لكنّها أخطأت بدورها.

قامت هَيا بثلاث محاولات قبل أن تُصيب الورقة أخيرًا، وعندما اجتازت هي وزين خطّ النهاية، وضع سانتي جهاز التوقيت جانبًا وهو يهزّ برأسه.

تقدّم يوسف نحوها وقال: «أنت تحملين الرمح وكأنّه عصا».

«لكنّه عصا بالفعل»، ردّت هَيا.

«كلّا»، قال يوسف. «عليك أن تتخيّلي أنّه امتداد لذراعك. امسكيه هكذا، أرأيتِ؟ الآن، تدلّي عن السرج وتمدّدي لتصلي إلى الورقة وكأنّك تحاولين التقاطها بيدك.»

في المرّة التالية، تخيّلت هَيا أنّ يدها هي التي ستطال الأرض وأنّ أطراف أصابعها هي التي ستلمس الورقة، وعندما رفعت رمحها، اعتراها الفرح حين رأت الورقة الصغيرة البيضاء تخفق في طرفه.

«نجحت!»

منذ تلك اللحظة، أصبح الرمح جزءًا منها ولم تخطئ الهدف يومًا بعد ذلك.

*

كانت هَيا في المطبخ تحبو خلف فرن الغاز حين دخل اسماعيل.

«هل أضعْتِ شيئًا؟»، سألها.

«كلّا»، أجابته هَيا. «أنا أبحث عن مصيدة الفئران.»

كانت قد تفقّدت المصيدة في غرفة المؤونة ووجدتها خالية. أمّا تلك التي سحبتها للتوّ من خلف الفرن فلم تُخيّب أملها. هي مصيدة تلتقط الحيوان ولا تقتله. داخلها، علق فأر رماديّ صغير ينظر حوله بعينين برّاقتين حذرتين. تناولت هَيا الفخّ والكائن الصغير في داخله. تفحّصت الفأر، تأمّلت شواربه الصغيرة، وعينيه الزجاجيّتين الداكنتين، فساورها إحساس طفيف بالذنب لما هي على وشك القيام به. قلبت المصيدة على فوهة الكيس الجلديّ الذي تحمله فسقط الفأر فيه، ثمّ أعادتها إلى مكانها واتّجهت نحو الطابق الأعلى.

تأكّدت من إغلاق الباب بسرعة فور دخولها الغرفة. كانت الستائر منسدلة، بالكاد استطاعت أن تميّز الصقر الرابض على وتده في الظلال.

«سماااا!»

كان وجه سَما مغطّى بالبرقع، لكنّه ما إن سمع صوت هَيا حتّى رفع رأسه. لم تقترب هَيا منه على الفور. فعليها أولًا أن تحضّر نفسها: وضعت القفّازين الجلديَّين، وأخرجت الفأر المتلوّي من الكيس الجلديّ. تمنّت، للمرّة الألف، لو أنّ الحُرّ نباتيّ. أمسكت الفأر بيدها اليسرى واقتربت من الطائر.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«سَما»، قالت وهي ترفع البرقع عن رأسه، «تعال وتناول عشاءك». أبقت يدها على مسافة أبعد بقليل عمّا كانت عليه في المرّة السابقة. خُطوات صغيرة، وتراجُع بسيط مرّة بعد أخرى. هذا ما أوصاها به المدرّب عندما حضر إلى القصر منذ أسبوعين للاطمئنان إلى سير الأمور بين هَيا وسما. توقّعت يومها أنّه سيُثني عليها لما تبذله من جهود في تدريب الطائر. إلّا أنّه لم يفعل، بل تفحّص هَيا، ولاحَظَ فورًا الخدوش على ذراعها اليسرى، ثمّ نظر إلى الحرّ ورآه منحسر الرأس يزعق من على وتده، فهزّ رأسه بخيبة.

«سوف تُفسدين هذا الطائر»، قال لها بحزم. «لِمَ لا يضع برقعه؟»

«أنا... أريد أن يكون سَما سعيدًا»، قالت هَيا. «لا أحبّ أن يظلّ البرقع على وجهه طوال الوقت. أريده أن ينظر إليّ في عينيّ حتّى نصبح صديقين.»

«أفهم تمامًا ما تحاولين القيام به»، قال المدرّب. «لكنّ هذا لن يؤدّيَ إلى النتيجة التي تريدينها. الحِرار طيور بريّة. لا تخضع لك ولا تتّحد معك إلّا إذا حرمتِها من نظرها وأعميْتِها. على طائرك أن يضع البرقع طوال الوقت وخصوصًا حين يكون رابضًا على يدك. هل تحملينه غالبًا؟»

«فقط من وقت إلى آخر»، اعترفت هَيا. «فرانسيس لا تترك لي مجالًا لذلك. أوّلًا لأنّها تعتبر أنّ ذلك خطير، وثانيًا لأنّها تجد الحُرّ مزعجًا.»

عبس مدرّب الصقور وقال: «لو كان لديك جَرو صغير، هل كنت لتتركينه وحيدًا في غرفةٍ مظلمة وهو يعوي وينبح؟ الحرّ مثل الجرو الصغير. على سَما أن يكون رفيقك الدائم». ثمّ نظر إلى الطائر الذي كان لا يزال يصرخ من على وَتَدِه وقال لها: «سأكتب لك قائمة بما عليك فعله». ثمّ أضاف: «عليك الالتزام بتوجيهاتي. ربّما لا يزال هناك فرصة لإنقاذ الموقف.»

منذ تلك الزيارة وهَيا تحاول اتّباع نصيحة المدرّب. تحمل سَما معها أينما ذهبت، وتطعمه بيدها، ليهدأ ويخفّف زعيقه. كان سَما لا يزال يأكل وهو يضع البرقع. منذ يومين، بدأت هَيا تنزعه عن وجهه لتعوّده على تناول الوجبة من دونه. واليوم، ستعلّمه أن يقفز عن وتده ويتقدّم نحو يدها ليأكل.

«هاك، سَما»، قالت بحنان وقد حملت الفأرة بيدها اليسرى بعد أن وضعت القفّاز. «تعال، أحضرت لك وجبتك المفضّلة.»

خَفَقَ سَما بجناحيه وارتفع عن الوتد. كان يطير في الغرفة حين انفتح الباب.

«بحقّ السماء...؟ لِمَ كلّ هذه العتمة هنا؟»

ما إن رأى سَما فرانسيس حتّى أطلق صرخة تصمّ الآذان.

«أغلقي الباب!»، صاحت بها هَيا. «أنت تخيفينه.»

«هو الذي يصرخ في وجهي!»

«إنّه وقت عشائه»، قالت هَيا.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

حدّقت فرانسيس، بارتياب، إلى الشيء المتدلّي من يد هَيا.

«يا إلهي!»، صرخت وهي ترتدّ خوفًا إلى الوراء. «ما هذا؟»

«فأرة»، قالت هَيا. رأت نظرة الاشمئزاز تعلو وجه فرانسيس، فلم تستطع كبح رغبتها في مضايقتها أكثر بعد. دفعت بالفأرة قريبًا منها قائلة: «أنظري، أترينها؟»

قفزت فرانسيس إلى الوراء مرعوبة، لكنّها سرعان ما استعادت السيطرة على نفسها. «غير معقول...»، قالت وهي تهزّ برأسها غير مصدّقة. «لِمَ لا تقتنين ببّغاء بكلّ بساطة، مثل كلّ الفتيات الطبيعيّات؟»

«لأنّ سَما قد يلتهمه»، أشارت لها هَيا.

«ما هذه المهزلة!» كانت فرانسيس تفرقع غضبًا. «من الآن فصاعدًا، الحشرات والزواحف ممنوعة في القصر. وإذا أردتِ إطعام ذلك الطائر، فأطعميه في الخارج، مفهوم؟»

«حاضر، فرانسيس»، أجابت هَيا. فهي لن تتجادل مع المربّية، في حين لم تبقَ سوى بضعة أسابيع عن البطولة. تحمُّل التوبيخ يظلّ أفضل من إثارة حَنَق فرانسيس.

بخلافها، عجز سَما عن ضبط لسانه. ما إن خرجت فرانسيس حتّى أطلق على المربّية صيحة أخيرة. ثمّ، بتصفيقتَين من جناحيه، ارتفع عن وتده وطار ليحطّ على قبضة سيّدته.

الفصل الثامن عشر

حلاقة الدبّ

تملك هَيا صورة لوالدتها التُقطَت لها أيّام كانت بطلة في التزلّج على الماء. كانت ماما دائمًا الأكثر رشاقةً والأخفّ وزنًا في فريقها، لذا، لطالما وقع الخيار عليها لتسلّق قمّة الهَرم البشريّ، والوقوف على أكتاف زملائها العريضة. اليوم، جاء دور هَيا للقيام بذلك، ولكن ليس على سطح المياه، بل فوق ظهر الخيل.

«مستعدّة؟»، سألها يوسف. كانت هَيا تركب خلفه من دون سرج، على ظهر فحله الرماديّ الكبير. ثمّ اقترب راضي منهما وأوْقَفَ حصانه، فعرفت أنّ الوقت حان.

«هوب!» صرخ راضي. بلمْحِ البصَر، هبّ السائسان معًا بحركتين متناسقتين، وبأقدامهما الحافية، ثبّتا توازنهما على ظهرَي حصانيْهما. ثمّ قامت هَيا على مهل فيما الحصان يعدو تحتها، وبدأت تتسلّق. استخدمَتْ وركَ يوسف كحلقة أولى في السلّم البشريّ الذي

تتسلّقه، فثبّتت قدمًا عليه بينما مدّت الأخرى في الفجوة الضيّقة بين الحصانين. كانت كأنّها تسير على الهواء، إلى أن ركّزت نفسَها، لتصبح قدماها واحدة عند يوسف وواحدة عند راضي.

ظلّت تتسلّق إلى أن بلغت كتفَيِ الفارسين، وهي ترفع ذراعيْها عاليًا وكأنّها مؤدّية في السيرك! ركّزت وقْفَتَها لبرهة، ثم راحت تلوّح من مكانها هناك، في قمّة العالم، لجماهير وهميّة. عندها، سمعت صدى تصفيق. التفتت فورًا فرأت علي يتفرّج من بعيد.

«ما رأيك؟»، سألته.

«جميلة، هذه الحركة»، قال علي. «ولكن، أليست ذاتها التي أدّاها بشير العام الماضي؟»

كان الحقّ معه. فقد سبق لفريق بشير أن أدّى الهرم البشريّ.

«إذا كنّا ننوي أن نهزمهم فعلًا، فنحن نحتاج إلى ما هو أفضل بعد»، قال زين.

«هَيا لاعبة جمباز جيّدة»، قال علي. «لِمَ لا تحاولين أن تقفي على يديك، هَيا؟»

«على الحصان؟»، سأل زين.

«طبعًا»، أجاب علي. «إذا كانت تُتقن القيام بتلك الحركة على حصان خشبيّ، فلِمَ لا تقوم بها على ظهر حصان حقيقيّ؟»

قريبًا، سيحين موعد بطولة الكأس الملكيّة للفروسيّة والجمباز على الخيل، مسابقة مصيريّة بالنسبة إليهم. فالبطولة تتضمّن

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

خمس مسابقات، ولِيَفوزوا، عليهم التفوّق في ثلاث منها. العرض العسكريّ هو إحداها، وفوز فريق بشير شبه متوقَّع فيها. أمّا مسابقة التقاط الأوتاد، فستكون حامية جدًّا. حتّى سانتي يعتقد ذلك.

هَيا تعقد الآمال على الفوز في قفز الحواجز. لَيتها فقط تشعر بالثقة ذاتها بالنسبة إلى مسابقة الصيد بالصقور. فسَما طائرٌ لا يُعوَّل عليه. لقد بذلت جهدها لساعات بأكملها وهي تحاول أن تدرّب الصقر، لكنّها لا تزال تربطه بالحبل الطويل ولا تجرؤ على تحريره رغم أنّ أسبوعًا واحدًا فقط يفصلها عن البطولة. ما زالت تخاف، إذا ما أطلقَتْه، أن يختفيَ إلى الأبد.

أمّا سلوك سَما في القصر، فلا يُطاق. كلّما أطعمَته هَيا، يبدأ بالزعيق، مطلِقًا صيْحات تصمّ الأذنين وتُصيب فرانسيس بالهلع فتأتي مهرولةً في كلّ مرّة.

كما أنّ ذراع هَيا لا تزال مليئة بالخدوش. ليست تلك الخدوش القديمة، بل أخرى جديدة تسبّب بها البارحة فقط، حين قرّر أن ينقضّ عليها بدل الانقضاض على الوجبة اللذيذة التي أتَتْ له بها. كلّا، لن يكون بإمكانها الاعتماد على سَما. إذًا، ليس أمامهم سوى الجمباز على الخيل. عليهم أن يفوزوا في تلك المسابقة!

1-2-3. في حلبة الحُمُر، تقدّمت هَيا على ظهر بري، وهي تعدّ الخطوات بصوت عالٍ. كانت تمتطيها من دون سرج، ومن دون

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

خوذة، وهي حافية القدمين وتضع سروالًا قطنيًا قصيرًا وقميصًا، تسهيلًا لحركة الوقوف على اليدين.

كانت ضربات حوافر بري تتزامن مع ضربات قلب هَيا، ثابتة ومنتظمة.

«شاطرة يا بري.» حرّكت هَيا ساقيها وطوّحت بيديها. فعلت ذلك طوال دقيقة حتّى تعتاد بري على حركاتها. على الفرس أن تتعلّم ألّا تتلهّى بأيّ حركة يقوم بها الفارس على ظهرها، وأن تُكمل عَدْوَها مهما حدث.

1-2-3. 1-2-3... كان تركيز هَيا كاملًا. أفلتت اللجام وتركته يتدلّى حول رقبة الفرس، فتحرّرت بري تمامًا إلّا أنّها ظلّت تعدو بالإيقاع نفسه. فَرَدَتْ هَيا ذراعيها من الجهتين كجناحَي الطائرة. 1-2-3. 1-2-3.

«عافاكِ يا بري!»، قالت هَيا مجدّدًا. كانت هَيا تتدرّب على هذه الحركة منذ أسبوع، ولم تشعر بعد بأنّها جاهزة للقيام بالخطوة التالية منها... حتّى اليوم. اليوم هو اليوم المشهود. لم يَعُدْ من الممكن تأجيل ذلك.

1-2-3. عَدَتْ هَيا ببري. أنزلت ذراعيها ووضعتهما أمامها، على كاهل بري. فَرَدَتْ أصابعها لتتمكّن من تحقيق التوازن وركّزت ثقلها على الجزء الأعلى من جسدها. الآن، هي في وضعيّة لاعبة جمباز على وشك أن تؤدّيَ حركتها على الحصان الخشبيّ. لكنّ الحصان

الذي تمتطيه هَيا ليس خشبيًّا هذه المرّة، بل من لحم ودم. 1-2-3.
1-2-3.

هناك جهازٌ لضبط الإيقاع يطنّ في رأسها، ويُحصي الضربات. ثبُتنا؟ لا، ليس بعد. تردّدت هَيا للحظة. ثمّ، وبينما كانت قائمتا الفرس الخلفيتين تخطوان إلى الأمام، قامت بحركتها. استندت بكلّ ثقلها على ذراعَيها المتصلّبَين، حرّكت وركيْها، أبعدت ساقيها عن جانبَي بري ثمّ ضمّت ركبتَيها تحتها، ورفعت جسدها بحركة سريعة. ها هي جاثمة على ظهر الفرس وكأنّها نمر.

نظرت إلى أسفل، فرأت كتفَيِ الفرس تغوصان هبوطًا وصعودًا تحتها، وقوائمها تلهب الأرض لهبًا، فرفعت رأسها فورًا. من الأفضل ألّا تنظر إلى تحت! أبقت رأسها عاليًا، ونظرت أمامها وهي رابضة بصورة غير ثابتة على الأربع فوق ظهر بري. لن تصمد كثيرًا في هذه الوضعيّة، عليها أن تقوم بالحركة التالية.

1-2-3. هذه المرّة، عند الخطوة الثالثة، دفعت هَيا ساقيها نحو الأعلى. شعرت بيديها تنزلقان عن كاهل بري، فأحكَمَتْ قبضتيْها فيما ارتفعت ساقاها في الهواء.

فورًا، شعرت بأنّ شيئًا ما لم يَجرِ كما يجب. فهي لم تدفع جسدها بالقوّة الكافية لتنتصب ساقاها. وحتّى لو فعلت، المشكلة الحقيقيّة تكمُن في يديها المتعرّقتين. ما إن انزلقتا عن كاهل بري، وتلاشت قبضتاها تحتها، حتّى اجتاحَتْها موجة من التوتّر، ففقدت توازنها

وسقطت. بالكاد تمكّنت من الابتعاد قليلًا نحو اليسار حتّى لا تهوي على بري.

بَـدَتْ لها لحظةُ السقوط كمشهد سينمائيّ مصوَّر بالحركة البطيئة. كادت تقع على رأسها لو لم تمدّ ذراعيها لتتلقّيا الضربة. كانت الأرض خشنة من شمس الصيف. ارتطمت بها هَيا بقوّة مفاجئة، محمّلة عبء السقوط على يديها. استلقت في مكانها للحظة وهي تلهث. تكاد لا تصدّق كم إنّها محظوظة. كانت قبضتاها تؤلمانها من شدّة الخبطة. نَفَضَتْهما بقوّة. لحسن الحظ، لا كسور.

«هل أنت بخير؟»، سأل زين.

«أنا بخير»، قالت وهي تُمسك بيده الممدودة نحوها وتَهُمّ بالنهوض.

«كدْتِ تنجحين»، قال زين محاولًا تشجيعها.

«المشكلة في يديّ»، قالت هَيا، «كفّاي تتعرّقان».

«الفُرسان في إسبانيا يقومون بتلك الحركة على ظهور خيول يتيح لهم عرضها ضبط توازنهم.» كان زين يقرأ أفكارها. هل تكون الخيول العربيّة غير مناسبة بسبب نحافتها؟ هل تطلب هَيا المستحيل على ظهر فرس مثل بري؟

«هل تريدين أن أبقى معك لتجرّبي مرّة بعد؟»، سألها زين.

أمسكت هَيا بري من لجامها وأجابت: «كلّا. سأعيدها إلى الإسطبل».

لا فائدة من إعادة الكرَة. ليس بإمكانها أن تستمرّ في الوقوع على رأسها هكذا. إذا كُسِرَت عظمة من عظامها، لن يعود بإمكانها المشاركة في البطولة. عليها أن تجد طريقة للتدرّب على هذه الحركة بأمان قبل أن تعود ثانيةً إلى ظهر بري.

خلال ما تبقّى من فترة بعد الظهر، تدرّبت هَيا في باحة المنزل. استطاعت أن تقف على يديها فوق الوحل السميك في الباحة، وأن تظلّ واقفة هكذا، ساقاها في الهواء، لعشر ثوانٍ على الأقلّ. أصلًا، بإمكانها، لو أرادت، أن تقوم حتّى ببعض الخطوات وهي هكذا، واقفة على يديها. لكنّ الأرض ليست بري! ففروة الفرس ناعمة جدًّا، وكتفاها ضيّقتان. على هَيا أن تجد طريقة للحفاظ على قبضتها على كاهل بري الأملس، وإلّا لن تتوصّل في حياتها إلى القيام بتلك الحركة.

*

بعد يومين، بينما كانت هَيا تتّجه نحو مدخل الندوة، نظرت نحو الأسدين الحجريّين الواقفيْن كحارسيْن عند أعلى الـدرج. لمَ لا تتدرّب عليهما؟ فارتفاعهما عن الأرض مقبول، لن تتأذّى كثيرًا إذا وقعت عن ظهر أحدهما. ولكن مهلًا... هناك الدرج الحجريّ تحتهما مباشرة، ما يعني أنّ وقوعها قد يتسبّب بشقّ فظيع في رأسها. ثمّ إنّ الأسدين سهلان وغير زلِقين بتاتًا. كلّا... هي تحتاج إلى ما يشبه بري، ولكن على الأرض.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

كانت تجتاز البهو، أمام صوَر الملوك، حين مرّت أمام مكتب والدها. كان الباب مشقوقًا. هل يكون في الداخل، يعمل؟ «بابا؟»، أدخلت رأسها من شقّ الباب. والدها ليس هنا. ولكن، أمامها على الأرض، رأت الحلّ الذي تبحث عنه.

كانت السجّادة المصنوعة من فروة الدبّ مفروشةً على الأرض، ومخالب الدبّ تشير إلى الشمال وإلى الجنوب، إلى الشرق وإلى الغرب، بينما يتّجه الرأس الضخم للمخلوق نحو طاولة المكتب.

أغلقت هَيا الباب خلفها، خلعَتْ حذاءها وداسَتْ عليه. شعرت بخشونة الشعر البنّي الكثيف تحت قدميها.

وقفت هَيا في وسط السجّادة، ورفعت يديها عاليًا فوق رأسها، ثمّ انقلبت عليهما وغرست أصابعها عميقًا في الفروة، ثمّ دفعت ساقيها في الهواء.

إنّها وقفة ممتازة. بل رائعة. ففروة الدبّ أطول وأكثر كثافة من فروة بري، وبإمكان هَيا أن تقبض عليها بأصابعها. كما أنّ الأرض تحت السجّادة منبسطة، وليست زلقة مثل عنق بري المائل.

خرجت هَيا من المكتب، وصعدت تبحث عن علي في غرفته.

«أحتاج إلى مساعدتك»، قالت له. نظر علي نحوها من خلف الكتاب المصوّر الذي كان يطالعه. «خير إن شاء اللّه؟»

«أحتاج إلى إخراج سجّادة الدبّ من مكتب بابا. هي ثقيلة جدًّا عليّ. هلا ساعدتني في نقلها؟»

قطّب حاجبيه وسألها: «هذا يعني أنّنا سنُعاقَب مجدَّدًا. صحّ؟»
«ربّما»، أجابته هَيا.
فكّر علي للحظة ثمّ قال: «أوكي».
في البداية، حاولا أن يحملا الدبّ بعد أن لفّاه كسجّادة، لكنّه كان أكبر من أن يضمّاه بأذرعهما.
«ماذا لو نزلْنا تحته؟»، اقترح عليها علي.
«أوكـي»، قالت هَيا موافقة. نزلت تحت الجزء الأعلى من السجّادة، وضعت رأسها مباشرة تحت فكّ الدبّ المفتوح، وارتدت السجّادة وكأنّها معطفٌ، بينما تدلّت مخالبُ الدبّ على ذراعيها. ثمّ نزل علي تحت الجزء السفليّ، ومَشِيا هكذا في الرواق، وهما يضحكان. تذكّرت هَيا يوم قصدوا المسرح في لندن لحضور عرض إيمائيّ أدّاه رَجلان تغطّيا بجلد حصان.
«لا أرى شيئًا أمامي»، قال علي معترضًا بعد برهة.
«لا تقلق»، قالت له هَيا. «فقط اتبعني.»
حملا الدبّ على الدرج، واجتازا الباب الخلفيّ نحو الحديقة. سارا على المرجة، ثمّ نزلا السلالم الحجريّة المؤدّية إلى الدفيئة خلف الشجيْرات. هذه المنطقة المعزولة فيها كلّ ما تحتاج هَيا إليه. وهنا، لن يراهما أحد.
«هل يمكن أن تشرحي لي لمَ أتيْنا بالدبّ إلى هنا؟»، سأل علي.
«لكي أتمرّن على الوقوف على يديَّ»، قالت هَيا.

نظرت حول الدفيئة. كانت بركة السباحة المطّاطيّة لا تزال حيث رأتها آخر مرّة، في الزاوية.

«علي، هل باستطاعتك نفخ البركة؟ ليس كثيرًا، قليلًا فقط، حوالى نصف كمّيّة الهواء التي تحتاج إليها عادة؟»

جلس علي ينفخ وينفث محاوِلًا ملء البركة بالهواء، بينما راحت هَيا تتفقّد أطراف الحديقة المسيّجَة بسور منخفض. بحثَت عن جزء من السور لا تُعيقه النباتات والأشجار، ووَجَدَتْه. لم يكن بعيدًا جدًّا عن الدفيئة. تناولَتْ من علي البركة النصف منفوخة ووضعتها فوق حجارة السور.

«والآن ماذا تفعلين؟»

«أصنع بري»، أجابت هَيا.

عادا إلى السجّادة. هذه المرّة لم يضطرّا إلى ارتدائها، بل جرّاها عبر المرجة ورَمَيا بها فوق البركة.

«رائع»، قال علي. «مثل الحصان تمامًا.»

«كلّا»، قالت هَيا وهي تهزّ رأسها. «ليس بعد، فالفروة كثيفة جدًّا.»

وانطلقت عائدة نحو القصر.

«إلى أين تذهبين؟»، سألها علي.

«انتظرْني هنا»، قالت له هَيا. «لن أتأخّر.»

ما إن دخلت القصر، اتّجهت فورًا نحو مطبخ إسماعيل لتبحث عن مقصّ، ثمّ أتتْها فجأة فكرة أفضل بكثير، فاستدارت نحو الدرج. صعدت، واتّجهت يمينًا نحو غرفة والدها.

«بابا؟» لم يُجِبْ أحد. والدها ليس هنا. دخلت إلى غرفته. هي غرفة جميلة، واسعة جدًّا بسرير أنيق مكسوّ بغطاء مجعّد أبيض من القطن المصريّ. حيطانها مغطّاة بورق الجدران النافر المذهَّب، أمّا الأرض فتتوسّطها سجّادة فخمة مذهّبة تزيّنها أشكال زخرفيّة لونها أزرق غامق. دخلت هَيا الحمّام الرخاميّ ونظرت حولها. فتحت الخزانة فوق المغسلة، فوجدت ما كانت تبحث عنه: آلة الحلاقة الكهربائيّة التي يستعملها والدها.

*

«عفوًا، سيّد دبّ»، قالت هَيا وهي تنقر مفتاح التشغيل في آلة الحلاقة، «لكنّك بحاجة ماسّة إلى قَصّة شعر جديدة».

«ستحلقين الدبّ؟!»، سأل علي بعينين متّسعتين.

«ليس بالكامل»، قالت هَيا. «فقط حيث سأضع يديّ.»

كانت فروة الدبّ كثيفة، وحلاقتها أصعب ممّا كانت تتخيّل. اختنقَتْ آلة الحلاقة من كثافة الشعر، فاضطرّت هَيا إلى إيقافها وتنظيفها عدّة مرّات. في المواضع التي حلقَتْها، أصبح شعر الدبّ قصيرًا ولمّاعًا وناعمًا. أغلقت هَيا عينيها، ومرّرت يدها على الفروة المحلوقة. هو ملمس بري ذاته تقريبًا.

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

استغرقت مدّة طويلة لحَلْق بقعة كافية تَسَعُ كفّيها. لكنّ الآلة لم تتحمّل، إذ تشابكت مع شعر الدبّ وأصدرت طنينًا مخنوقًا، ثمّ دارت الشفرات مرّة أو اثنتين قبل أن تتوقّف تمامًا. تجمّدت هَيا في مكانها للحظة حين أدركت أنّ بابا لن يتمكّن من استعمال الآلة بعد الآن.

تسلّقت هَيا الجدار، ووقفت على فروة الدبّ الملقاة فوق البركة المطّاطيّة. انزلقت الفروة قليلًا تحت تأثير وزنها.

«عليّ أن أربطها»، قالت لعلي. «نحتاج إلى حبل.»

لحسن الحظّ، وَجَدا في الدفيئة حبلًا مناسبًا. جرت الأمور بسلاسة لم تكن هَيا تتوقّعها. ربطت رأس الدبّ من خلف أذنيه، ثمّ من مخالبه الخلفيّة، حتّى أصبحت السجّادة والبركة مثبّتَتَين بالسور. قفزت مجدّدًا لترى إن كانت ستحملها. لم تتزحزح السجّادة هذه المرّة. أخيرًا، أصبح باستطاعتها البدء بالتمارين.

*

«شوَهْتِه!»، صاحت فرانسيس وهي تستشيط غضبًا. «لقد أفسدَت بتصرّفاتها الطفوليّة فروة دبّ لا تُقَدَّر بثمن!»

لم تفهم هَيا ما سبب كلّ هذه الجلبة. في النهاية، ليس الدبّ سوى سجّادة قديمة. بل قديمة جدًّا، في الحقيقة، كانت لجدّتها. أصلًا لن يلاحظ أحد تلك البقع المحلوقة عندما تُعاد إلى مكانها.

«لم أكن ألعب، كنت أتدرّب على ركوب الفرس!»، قالت هَيا.

لكنّ فرانسيس اعترضتها قائلة: «هذا ما يحصل عندما لا توضَع حدودٌ صارمة للأطفال.»

كان الملك جالسًا خلف طاولة مكتبه المصنوعة من الخشب الماهوغانيّ. رفع وجهه، وضع قلمه على كدسة من الأوراق، ونظر نحو هَيا والمربّية الواقفتيْن أمامه. كان وجهه شاحبًا ومُرهَقًا لأنّه لم يَنَمْ طوال الليلة الفائتة. فهو منشغل جدًّا هذه الفترة. لم يلاحظ حتّى اختفاء السجّادة من مكتبه إلّا بعد ثلاثة أيّام من اختفائها.

«أنا آسفة، بابا»، قالت هَيا. «كلّما حاولْتُ أن أقف علي يديّ فوق ظهر بري كنت أقع. فقلت ربّما أتمرّن على الدبّ إلى أن أتقن تلك الحركة.»

عبس والدها. «ولكن، لِمَ حلقْتِه؟»

«كان الشعر طويلًا جدًّا. وكنتُ بحاجة إلى التمرّن على فروة مثل فروة بري.»

رفع والدها حاجبًا من حاجبيه وقال: «أعترف أنّه تصرّف ذكيّ. بل ذكيّ جدًّا في الحقيقة.»

رَمَقَتْ هَيا فرانسيس بنظرة شماتة... إلى أن هزّ والدها رأسه وأضاف: «ستنالين ما تستحقّين من عقاب».

«مـاذا...؟»، قالت هَيا مرتبكة. «لكنّكَ قلْتَ للتوّ إنّه تصرّف ذكيّ. بل ذكيّ جدًّا في الحقيقة.»

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

«هَيا، كنت تعرفين أنّك تقترفين خطأً حين حَلقْتِ السجّادة، أليس كذلك؟»

«نعم، لكن...»

«فرانسيس محقّة. عليك أن تتلقّني درسًا لما فعلتِه هَيا. عليك أن تفكّري في ما قمت به. أنتِ مُعاقَبة حتّى آخر الشهر، إلى أن تسافري مجدّدًا للالتحاق بالفصل الجديد في مدرستك الداخلية.»

بعد أن أُغلِقَ الباب وأصبحتا خارج مكتب والدها، سارت فرانسيس في طريقها إلى المطبخ.

«لا أفهم لِمَ وَشَيْتِ بي.»

توقّفت فرانسيس واستدارت نحوها: «وماذا كنت تتوقّعين حين أخذت السجّادة من مكتبه؟»

«لم أقصد إفسادها، كنت أحاول فقط أن أتدرّب...»

«لدى والدك ما يكفيه من الهموم.» كانت عينا فرانسيس باردتيْن وقاسيتيْن. «هو مشغول في إدارة شؤون مملكة فيما أنت مجرّد فتاة مسترجلة ومزعجة، ركبتاها غائصتان في الوحل وأظافرها محشوّة بتبن الخيول، تخلق المتاعب بسبب خيولها القذرة. عليك أن تسمعي ما يدور حولك من أحاديْث في القصر، حول سلوكك والطريقة التي تتصرّفين بها. حول تسكّعك الدائم في الإسطبل. هذا مشين!»

فُجعَت هَيا. «لكنّني أتدرّب! والسيّاس هم أصدقائي.»

«هـذا غير لائق بتاتًا. لا أفهم لِمَ تحتاجين إلى كلّ هذه التدريبات»، قالت فرانسيس مكشّرة.

«الأسطوانة ذاتها تبدأ من جديد!»، قالت هَيا بنفاد صبر. «أكيد سنسمع الآن المقطع المتعلّق بضرورة التصرّف كآنسة محترمة...»

«أفضّل الاعتقاد بأنّنا استسلمنا منذ زمن طويل أمام هذا الأمل الميؤوس منه»، قالت فرانسيس. ثمّ أضافت بنبرة باردة: «لو كانت والدتك هنا لشعرت بالخيبة.»

بعد تلك الجملة التي طَعَنَتْ هَيا في الصميم، أدارَتْ فرانسيس ظهرها ومضَت.مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الفصل التاسع عشر

بنت الريح

«فرانسيس امرأة خسيسة وحمقاء.»

كان علي مستلقيًا على سرير هَيا، يتأمّل أخته وهي تذرع الغرفة ذهابًا وإيّابًا وكأنّها نمر يجول في قفصه. لقد أخبرت أخاها بما قالته لها فرانسيس البارحة أمام مكتب بابا، ما قالته حول ماما. هكذا هي فرانسيس. تعرف دائمًا كيف تسدّد الصفعة لتسبّب أقصى ما يمكن من الألم. لا تحفر جرحًا جديدًا بل تنكأ الجرح ذاته، مرّة تلو مرّة تلو مرّة.

كان من المفترض أن تكون في الإسطبلات مع زين، يجهّزان المضمار لتدريبات القفز عن الحواجز. ولكن عوضًا عن ذلك، ها هي محبوسة في غرفتها، تقيس المسافة بين جدرانها الأربعة.

«لِمَ لا تقفزين من النافذة كما في المرّة الأخيرة؟»

هزّت هَيا برأسها. «الأرجح أنّ فرانسيس تتوقّع ذلك. ستضبطني وسيكون عقابي مُضاعَفًا.»

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

«إذًا، أخبري بابا»، قال علي. «إذا علم أنّك قمت بكل ذلك بسبب بطولة الكأس الملكيّة قد يسامحك.»

«أو قد يقرّر أنّه اكتفى من العار الذي تُلحقه به ابنة تتصرّف كالصبيان!» تملّكها شعور مزعج وهي تفشّ خلقها بأخيها. فما دخله بكلّ هذا؟ لكنّها لا تزال غاضبة ومتألّمة من لسعة كلمات فرانسيس. هل هذا رأي بابا الحقيقيّ فيها؟ هل إنّها تُحرجه فعلًا بتصرّفاتها؟

رَمَتْ بنفسها على السرير بجانب علي، وقالت: «كم كنتُ متحمّسة... طوال فترة التدريبات وأنا أتخيّل كيف سأفاجئ بابا. كيف سأدخل إلى الإستاد على ظهر بري، وألوّح له وهو جالس في المقصورة الملكيّة يتفرّج، فيعتريه إحساس عارم بالفخر عند رؤية ابنته تشارك في البطولة لتحقيق شرف الفوز والمجد لإسطبلات الحُمَّر. كلّ ما كنت أريده هو أن أجعله فخورًا بي. الآن لم يعد لديّ أيّ دافع للمشاركة...».

«إذًا لن تشاركي؟» سأل علي. «لكنّ البطولة ستُقام غدًا!»

«الفريق أفضل حالًا من دوني»، قالت هَيا. «من الأرجح أنّهم كانوا يحاولون مُداراتي حين ضمّوني إليهم. أنا ابنة الملك. ماذا تتوقّع؟ أكيد يظنّون أن عليهم الرضوخ لكلّ طلباتي. ولكن، في الحقيقة، آخر ما يحتاجون إليه هو فتاة تعيقهم.»

فجأة، تأهّب علي، فعَبَسَت هَيا. «إلى أين أنت ذاهب؟»

«لست ذاهبًا إلى أيّ مكان»، قال علي بشكل بدا غير مقنع أبدًا.

«علي، لا تقم بأي تصرّف غبيّ!»

«مثل ماذا؟»

«لا تستطيع أن تُخبر بابا، علي. فذلك غير مُجدٍ. سيتضايق، وقد ضايقتُه بما فيه الكفاية حتّى الآن.»

«لم تضايقيه! دعْكِ من فرانسيس. عليك أن تخبريه!»

نظرت هَيا نحو أخيها. «عِدْني أنّك لن تقول شيئًا لبابا.»

تنهّد علي. «أعدك.» ثمّ تناول طابة الفوتبول المرميّة بجانب السرير واتّجه نحو الباب. «باي باي.»

*

لازَمَتْ هَيا غرفتها طوال فترة الصباح، وهي تنقّب في علبة الكنز. أخرجت المحتويات واحدًا واحدًا، وصَفَّتْها على سريرها: النظّارات الشمسيّة، أشرطة الكاسيت، الصدفة، والحصى. ثمّ تناولت الخصلة السوداء التي قصّتها من ذَنَب بري، فانهمرت دموعها. حين سيضع زين وسانتي الخيول في العربة يوم غد قبل انطلاقهما نحو الإستاد، ستظلّ بري وحدها في مربطها. أصلًا، أكيد أنّها تتساءل في هذه اللحظة بالذات لماذا لم يأتِ أحد ويصطحبها للتدريب مثل كلّ صباح. ستُحَمْحِم حتّى الموت وهي تنادي الخيول الأخرى.

«هَيا؟» أطلّ علي برأسه من شقّ الباب. جمعت بسرعة محتويات كنزها وأعادتها إلى العلبة، ثمّ دفعتها إلى مكانها تحت السرير.

«ماذا؟»

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«يريد بابا أن يراك في مكتبه.»

«علي، ماذا أخبرْتَهُ؟»

«لم أخبره شيئًا! ألم أعدْكِ؟»

نزلت هَيا على الدرج وهي تجرّ قدميها ببطء، خطوةً خطوةً. أتكون فرانسيس قد تحدّثت معه مجددًا؟ تُرى ماذا قالت هذه المرّة؟

كان باب المكتب مغلقًا. تناهى إلى مسمعها حديث مكتوم يدور خلفه. والدها في اجتماع. كانت تقف متردّدة، وهي تضع يدها على المقبض. وإذ بالباب يُفتَح ليظهر أمامها سانتي بوجهه الملوَّح بالشمس.

«أهلًا أميرة هَيا»، قال سانتي. «أكيد أنك سمعْتِ بعض الطنين في أذنَيْكِ... تفضّلي بالدخول.»

انفرج الباب أكثر، فلمحَت زين. خطر ببالها أن تكون فرانسيس قد شَكَتْها لوالدها لأنّها تقضي الكثير من الوقت في الإسطبلات. ثمّ انفرج الباب أكثر بعد فتأكّدت شكوكها. جميع السيّاس هنا، مصطفّون بجانب زين. كانت أياديهم مشبوكة أمامهم، والارتباك بادٍ عليهم لوقوفهم، بثياب الإسطبلات المغبَّرة، في مكان بهذه الفخامة. كم يبدو وجودهم هنا غريبًا! وكأنّ لديها حياتيْن متنافرتيْن، عالَميْن تصادما فجأة في تلك الغرفة.

«هَيا»، قال والدها، «لقد تحدّثت مع سانتي وسيّاسه. يبدو أنّكِ أخفيْتِ عنّي سبب قيامك بحلاقة سجّادة فروة الدبّ. أكنت تتدرّبين لتشاركي في بطولة الكأس الملكيّة؟»

نظرت هَيا إلى وجوه أصدقائها السيّاس. هل هم في ورطة بسببها؟

«ليست غلطتهم»، قالت هَيا. «أنا صاحبة فكرة السجّادة. سانتي لم يكن يعلم بالأمر.»

«السجّادة ليست موضوعنا الآن.» بدا والدها في غاية الجدّيّة. «أخبرَني سانتي أنّك لم تحضري التدريبات صباح اليوم في الإسطبلات. لم يكن ليعرف سبب غيابك لو لم يذهب علي إليه ويخبره.»

علي! لقد ذهب إلى هناك إذًا!

«هذا ليس بتصرّفٍ لائق، هَيا»، تابع والدها. «فحين تلتزمين فريقًا، عليك ألّا تخذليه...»

لم تصدّق أذنَيْها. «لكنّني معاقَبة!»

«ستنالين ما تستحقّين من عقاب لما فعلتِه بالسجّادة»، قال والدها. «لكنّ هؤلاء الرجال غير مضطرّين إلى تحمّل عواقب أخطائك. هناك فريق يعتمد عليكِ. يجب أن تحترمي التزاماتك تجاهه.»

«إذًا ستسمح لي بالمشاركة؟»، قالت هَيا عاجزةً عن التصديق.

غَمَزَ والدها السيّاس بتواطؤ. «نعم، وإلّا سأواجه حالة تمرّد على ما يبدو. والآن، اصعدي إلى غرفتك وجهّزي نفسك بسرعة. الفريق لن ينتظرك إلى الأبد.»

ارتـدت هَيا ثيابها وهـي لا تـزال مذهولة تحت وقْع الصدمة. تناولت جزمتها، وكانت في طريقها إلى الطابق السفليّ حين سمعت طَرْقًا على باب غرفتها. لقد تبعها والدها إلى فوق.

«سانتي ورجاله في الخارج، في العربة. سيأخذونك معهم إلى الحُمَّر»، قال.

«عليّ أن أمضيَ بابا»، قالت هَيا وهـي تتناول كنزتها. «لقد أخّرْتُهم بما فيه الكفاية اليوم.»

«أنا متأكّد أنّ باستطاعتهم الانتظار قليلًا»، قال والدها. «أريد أن أتكلّم معك.» أشار لها بأن تجلس بجانبه على السرير.

«كنت أعتقد أنّكِ لا تخفين عنّي شيئًا. لِمَ لمْ تخبريني؟»

«كنت أحتفظ بها مفاجأة»، قالت هَيا، وقد أدركت كم تبدو المسألة سخيفة الآن.

«أخبرني سانتي أنّك أفضل فارسة في الفريق»، قال لها والدها.

«لم يكن من السهل على هؤلاء الرجال أن يأتوا إليّ اليوم. لكنّهم تجرّأوا وقاموا بتلك الخطوة لأنّهم يكنّون لكِ كلّ الاحترام كفارسة، ويعتمدون عليكِ. هَيا، سانتي يعتقد، للمرّة الأولـى، أنّ بإمكان الإسطبلات الملكيّة الفوز على شرطة الخيّالة.»

توقّع الملك أن يُسعدها ذلك، إلّا أنّ هَيا بَدَتْ وكأنّها على وشك الانفجار بالبكاء.

«أنا آسفة»، قالت.

«علامَ؟»

«على كلّ شيء. على أنّني كما أنا. أنا أعرف نفسي جيّدًا، كيف أتصرّف، وكيف أنا، وأعرف أنّ هذا ليس ما كنت تتمنّاه»، قالت هَيا. «أنا أخيّب آمالك باستمرار. لسْتُ آنسة محترمة وأنيقة مثل ماما. ليتني مثلها... لكنّني لست كذلك.»

«هَيا»، قال والدها، هل تعرفين ما الذي جعل والدتَك ملكةً؟ ليس أناقتها ولا سلوكها الرفيع، بل قلبها. كانت تتمتّع بعزم هائل، وبشجاعة لا حدود لها. حين أنظر إليكِ، هَيا، أرى تلك الصفات ذاتها. أنت ابنتها بكلّ معنى الكلمة. كانت لتفخر بك كثيرًا اليوم، لو تسنّى لها أن ترى كيف وقف جميع الرجال في إسطبلاتنا إلى جانبك. أنت تُلهمينهم، ليس بسبب لقبك ولكن لأنّهم يستطيعون أن يروا مَن أنت في الجوهر. تلك كانت موهبة والدتك الأساسيّة، وأنت لديك الموهبة ذاتها، هَيا.» أمسَكَ والدها بكفّها بين يديه. «ستصبحين سيّدة محترمة وكاملة الأنوثة ذات يوم، عندما يحين الوقت. ولكن، حين ستدخلين الحلبة غدًا، لن يكون ذلك الوقت قد حان بعد. بشير عديم الرأفة وقاسٍ، وفريقه لن يرحمك. عليكِ أن تتحمّلي عنفهم إذا كنتِ تريدين الفوز.»

«أنا جاهزة لذلك»، قالت هَيا. «أعدك أنّك ستفتخر بي، بابا.»

ابتسم والدها. «حبيبتي، لقد سبق وفعلتُ.»

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الفصل العشرون

بطولة الكأس الملكيّة

يشبه الإستاد مبنى الكولوسيوم في روما. حلبة دائريّة رمليّة يُسيّجها سور حجريّ مرتفع. تحيط بذلك السور مدرّجات سيتابع منها المتفرّجون المعركة التاريخيّة بين شرطة الخيّالة الملكيّة وإسطبلات الحُمَّر الملكيّة. اعتادت هَيا أن ترافق والدها سنويًا إلى الإستاد لمتابعة البطولة. لطالما جلسَتْ بجانبه في المقصورة الملكيّة، تتأمّل من فوق تلك الرمال الذهبيّة.

هذه المرّة، هي ترى الحلبة من وجهة نظر المُجالِد. طَرَفَتْ عيناها من ضوء الشمس المبهر وهي تنظر إلى الخارج من أروقة الإسطبلات المعتمة تحت المدرّجات. رأت المتفرّجين وهم يأخذون أماكنهم، فيما ملأت غمغمات الإثارة التي يُطلقونها الجوّ. «هل تسمعين ذلك؟»، همست لبري. «عندما نخرج إليهم بعد قليل، سيزداد صخبهم أكثر بعد، فلا تجفلي. سيهتفون لنا، سوف ترين.»

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كانت بري تضرب الأرضيّة الإسمنتيّة بحوافرها، وكأنّ القلق يتملّكها هي أيضًا، وكأنّها تعرف كم يعني هذا الموضوع لهَيا.

صحيح أنّهما يشكّلان فريقًا الآن، وأنّ أعضاء الفريق يجب أن يتصارحوا، لكنّ هَيا أخفت عن بري نصف الحقيقة. قالت لها إنّ الحشود ستحتفل إذا ما فازت اليوم. ولكن، ماذا لو خسرت؟ هذه البطولة تعني الكثير لشعبها، وهي تشعر بوطأة آماله الكبيرة على كتفيْها الصغيرتيْن. وليس ذلك فحسب، فهناك أيضًا فرانسيس وأفراد شلّتها، المتربّصون كالنسور للاحتفاء بخسارتها. «هاكِ!»، ستقول فرانسيس بنبرة المنتصر. «ألَمْ أقل لكِ؟ الآنسة ذات الأصول الملكيّة يجب ألّا تتلهّى بالخيول، بل عليها أن تلازم منزلها، وأن تتحضّر لحياة القصور والزواج والواجبات الملكيّة.»

هَيا تـدرك أنّها تتحدّى فرانسيس وتقاليدها المتزمّتة. حين ستدخل الحلبة على ظهر بري، مرتدية ألوان الحُمّر، لن تكون تنتصر فقط لمجد الحُمَّر، ولتشريف والدها، وإنّما أيضًا لحقّها في تقرير مصيرها والدفاع عن خياراتها.

ارتفع هدير الحشود. ارتعشت بري منتشلةً هَيا من أفكارها. في الحلبة، كانت شرطة الخيّالة التي يقودها بشير على وشك الدخول والاصطفاف أمام الملك. كان الكولونيل بشير يضع عدّته العسكريّة الكاملة وبزّته المزيّنة بالميداليات، مع وشاح أحمر على كتفيه. أمسك اللجام بيد وبالأخرى علم شرطة الخيّالة الأحمر والذهبيّ.

كان حصان بشير كستنائيّ اللون، وسيمًا. بُنْيَته عضليّة رقيقة، وقوائمه يعلوها البياض اللامع. كان الرجلان خلفه يمتطيان أيضًا حصانين كستنائيّين، ووراءهما اثنان آخران على حصانين بلونيْن مماثليْن أيضًا. سارت الخيول مَسيرة متناغمة بخطوات واسعة. لم تزعجها هتافات الجمهور. هي خيول تابعة للشرطة، مدرّبة خصّيصًا للقيام باستعراضات من هذا النوع. حين وصل أعضاء الفريق أمام المقصورة الملكيّة، توقّفوا بانسجام تام.

«قدّم سلاحك!»، صرخ الكولونيل بشير. مدّ الرجال أياديَهم اليمنى إلى أغمادهم وامتشقوا سيوفهم رافعين إيّاها عاليًا تحيّةً للملك.

ردّ الملك التحيّة من المقصورة الملكيّة. لمحت هَيا علي بجانبه، في زيّه الرسميّ أيضًا، بينما جلست فرانسيس خلفهما بعينيْن متيقّظتيْن.

أما باقي مَن في المقصورة، فقد احتلّوا المقاعد الأماميّة فيها. كان هناك أربعة منهم، رجال كبار في السنّ، بوجوه متجعّدة ومتغضّنة من الشمس، يرتدون عباءات بيضاء ويضعون الكوفيّات على رؤوسهم. هم فُرسان ماهرون خدموا الملك سابقًا، ويجلسون اليوم حُكّامًا ليقرّروا نتيجة البطولة. سيكون هناك خمس مسابقات، وانطلاقًا من نتائجها سيعلنون الفائز.

«أدّي التحيّة!» أدّى أفراد شرطة الخيّالة التحيّة لملكهم مجدّدًا، ثمّ استدار بشير بحصانه الذي كان يتراقص على أطراف حوافره،

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

وحثّه على الجري. قاد رجاله وهم يتّخذون مواقعهم ليشكّلوا نصف دائـرة قبل أن يتفرّقوا من جديد ويصطفّوا جنبًا إلى جنب، وقد كبحوا خيولهم معًا في الوقت ذاته. تقدّموا قليلًا، ثمّ توقّفوا مجدّدًا وتراقصت خيولهم على رؤوس حوافرها، وبعد توجيه تحيّة أخيرة إلى الحشود، غادروا الحلبة.

حان الآن دور فُرسان الحُمَّر.

«جاهزة؟»، سألها سانتي، وهو يقف خلفها مباشرة. كان يرتدي بنطالًا وقميصًا من القطن في ذلك اليوم الحارّ الذي يُتوقَّع أن تزداد حرارته بعد.

بدت هَيا متوتّرة وهي تجمع ألْجِمَةَ بري بيدها. كانت ترتدي لونَي الحُمَّر، الأزرق والأبيض، وقد اصطفّ خلفها زملاؤها في الفريق على ظهور خيولهم وهم يرتدون الزيّ نفسه. أصرّ يوسف على أن تكون هي مَن تقود الفريق إلى الحلبة.

«أنـتَ مَن عليه أن يقوم بذلك، يوسف»، أجابته هَيا. «فأنت كبير السيّاس.»

«وأنتِ أميرة»، أجابها يوسف. «ما يعني أنّكِ الأعلى رتبة بيننا. يجب أن تقودينا أنتِ إلى داخل الحلبة.»

«لكنّني في الثانية عشرة من عمري. سنّي الصغيرة لا تسمح بأن أقود فريقًا.»

«كان والدك في السابعة عشرة عندما اعتلى العرش»، أجابها يوسف، فألْهَبَتْ كلماته شجاعتها.

حدّقت هَيا إلى الرمال الذهبيّة الممتدّة أمامها. تذكّرت يوم جلست في المقصورة الملكيّة، بجانب والدها، وماما أيضًا. كانت الملكة تضع فستانًا أخضر مع قبعة بيضاء من القشّ ونظّارات شمسيّة ذات إطار أبيض. هل تذكّرت فعلًا؟ كلّا، هذا المشهد ليس من ذاكرتها رغم أنّه يبدو كذلك. هذه صورة سبق لها أن رأتها. والدتها في المقصورة الملكيّة بجانب الملك، في غاية الجمال، تبتسم وتُلوّح بيدها. والدتها، الشابّة إلى الأبد، التي لم يمسّها الزمن. لَيْتَها كانت هنا اليوم لتراها وهي تشارك في البطولة. ستجعلها فخورة بها. لقد صمّمت على ذلك.

«اليوم، يا بري، سنجعل والدتيْنا تفتخران»، همست هَيا للفرس الكميت التي تتململ تحتها بقلق. «عليكِ أن تفوزي من أجل أمينة.»

سلّمها سانتي راية الحُمَّر الزرقاء والبيضاء بشكل رسميّ. بعد انتهاء كلّ مسابقة، سيُرفَع علم الفريق الفائز على إحدى السواري الخمس. إذا ربحوا، سترتفع الراية الزرقاء والبيضاء، أمّا إذا خسروا، فراية بشير الحمراء والذهبيّة هي التي سترفرف في الهواء.

«جاهزة؟»

هزّت هَيا برأسها.

«انطلقي إذًا، حظًّا موفّقًا وفي رعاية الله!»، قال لها سانتي.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

عندما سمعت نفخ الأبواق، جرت هَيا ببري مباشرةً وتَبِعَها رجال الحُمَّر عبر الرمال. جابت الحلبة على ظهر بري، ثمّ حثّت الفرس على العَدْوِ، فزاد الفُرسان خلفها سرعتَهم. كانت حوافر خيولهم تضرب الأرض كالمكابس. اهتزّت الراية الزرقاء والبيضاء بعنف في يدها. كان الهواء يصفقها بشدّة فكادت قبضة هَيا تفلت عنها. عبروا أمام المدرّجات، يعدون وقوائم خيولهم تلهب الأرض لهبًا.

قوبل ذلك الدخول المسرحيّ بهدير استحسان من الجمهور، وتجاوبت بري مع الهتاف فعَدَت أسرع بعد. نظرت هَيا خلفها لترى زين ثمّ يوسف، وعطا، وراضي، كلٌّ خلف الآخر، يتبعونها خطوة بخطوة.

في وسط الحلبة، انتشر الفرسان الأربعة وشكّلوا صفًّا رائعًا بجانبها، تحت المقصورة الملكيّة. شدّوا ألْجِمَةَ خيولهم فتطايرت الرمال تحت الحوافر التي انزلقت قليلًا قبل أن تجمد في مكانها. نظرت هَيا إلى الأعلى في اتجاه والدها وأخيها، ثمّ في اتجاه الحكّام الأربعة بوجوههم الجليديّة.

«قدّم سلاحك!»

صاحت هَيا بصوتٍ مرتفع ورقيق، فسُمعَت ضحكة مكتومة من الحشد ردًّا على صرير تلك الفأرة الصغيرة التي تقود أسودًا. تجاهلت هَيا الهمهمات الساخرة، وخيّم الصفاء والهدوء على وجهها وهي ترفع عَلَمَها وتُبقيه عاليًا لأداء التحيّة. كانت ذراعها ترتجف

من الجهد الذي تبذله لإبقاء الراية عالية. خلفها، امتشق الفُرسان سيوفهم لتحيّة ملكهم. أتت تحيّاتهم فوضويّة وغير متناسقة مقارنةً مع ضبّاط بشير، فأدركت هَيا أن ذلك سيكلّفهم غاليًا. أحسّت بقطرات العرق تتشكّل على جبينها. الراية ثقيلة جدًّا. ثمّ بادلهم الملك التحيّة، فأصبح بإمكانها أخيرًا أن تخفض ذراعها. تنفّست بارتياح عندما ناولت الراية إلى الساعي المسؤول عن إيصالها إلى المقصورة الملكيّة. عضلاتها مُنهَكَة تمامًا. اضطرّت إلى بذل مجهود كبير للسيطرة على ذراعها المرتجفة وهي تمسك الألْجِمَة مجدّدًا.

«إلى اليسار، دُرْ!» هذه المرّة، خرج صوت هَيا ثخينًا. تبعها الرجال خطوة بخطوة وهي تنطلق ببري خببًا، ممسكةً الألْجِمَة بيد واحدة، فيما تحيّي بيدها الأخرى الحشود والفرس تجري متبخترة. عند خطّ الوسط، استداروا 180 درجة. أصبحوا يواجهون الجهة المقابلة، وأضحى راضي، الذي كان في المؤخّرة، هو مَنْ يقودهم الآن. انتَشروا هنا وهناك، ثم اصطفّوا في خطّين متوازيين لم يلبثا أن تقاطعا معًا بأناقة. كانوا يتبادلون المواقع في ما بينهم بتناسق تامّ ورائع، فأحسّت هَيا للمرّة الأولى بأهمّية دروس الرقص الرباعيّ المملّة التي كانت تجبرها عليها مسز غودار!

على وقع هتافات الجمهور الحماسيّة، لفّوا الحلبة عَدْوًا مرّة أخرى، قبل أن يصطفّوا خطًّا واحدًا ويكبحوا أحصنتهم بدقّة أمام الملك لأداء تحيّتهم الأخيرة له.

وقف والد هَيا منوّهًا بمجهودهم، ولَمَحَت ابتسامة خافتة على شفتيه، فهو يلوّح بيده لابنته في الحلبة. أمّا علي، فقد نظر إليها عابسًا مقطّبًا. تمكّنت من كبت ابتسامتها وهي تدور ببري وتعدو بها مرّة أخرى إلى خارج الحلبة.

اقتحم الفُرسان الإسطبلات بصخب. كانت خيولهم تلهث بشدّة من العَدْو. كان وجه هَيا متورّدًا وبلوزتها القطنيّة غارقة في العرق.

«هل كان الأداء مقبولًا؟»، سألت هَيا زين. «هل لاحظْتَ كم كانت يدي ترتجف وأنا أحمل الراية؟ لم أستطع أن أحملها بشكل مستقيم...»

«كنت رائعة»، قال لها زين مطمئنًا.

«كان ذلك عرضًا جيّدًا»، قال سانتي وهو ينضمّ إليهم، «لكن عرض بشير كان أكثر أناقة. لننتظر رأي اللجنة.»

في أرْوقة الإسطبلات، تجمَّعَ الفرسان وأنظارُهم معلّقة على الساريات الخمس في الحلبة، بانتظار ارتفاع الراية الأولى. هل ستكون تلك الزرقاء والبيضاء الخاصّة بالحُمَّر؟ كانت أنفاسهم محبوسة، لا يقطع صمْتهم سوى نخير الخيول وصوت دعساتها على الأرض. أمّا أنظارهم فتتابع الساعِيَ وهو يتلقّى الأمر من اللجنة ويرفع الراية عاليًا على السارية. تصاعَدَ هتاف الجماهير.

الراية التي رُفعَت كانت تلك الحمراء والذهبيّة.

«تذكّري أنّ رجال بشير يتدرّبون على ذلك يوميًا»، قال سانتي وهو يطمئنها. «أصلًا، لم أتوقّع لحظة أن ننتصر عليهم في هذا التحدّي.»

«ربّما لو لمْ ترتعش يدي وأنا أُمسِك الراية...»، قالت هَيا. لكنّ سانتي هزّ رأسه.

«لا فائدة من النظر إلى الـوراء، والبحث في التفاصيل. علينا التركيز على التحدّي التالي. لا يزال هناك أربع رايات تنتظر أن تُرفَع.»

*

كان قد تمّ اختيار ثلاثة فرسانٍ من كلّ فريق ليتسابقوا في التقاط الأوتاد. بدأ الحشد بالهتاف والتهليل وهم يستدعون المتسابقين الستّة إلى حلبة الرمال الذهبيّة. كانت بري ترتعش من الحماسة وكأنّها أدركت أنّ لحظة السباق اقتربت. كانت جاهزة.

«ليس بعد»، قالت هَيا للفرس التي ترتجف تحتها.

«استعدّوا...»

في اللحظة التي سمعت فيها كلمة «انطلقوا!»، اندفعت بري كالصاروخ. كانوا أوّل المنطلِقين. كان الإستاد يهتزّ تحت وقع ضرب الحوافر. هذا السباق لا يشبه تدريباتهم في شيء، فالفرسان يتدافعون ويتزاحمون وهُمْ يَعْدون على خيولهم من دون أن يلتزم أيّ منهم خطّ سيره. حشر الفارس على يمينها بحصانه الكستنائي بـري، فانحرفت هَيا بها قليلًا لتصطدم براكب آخر على يسارها يمتطي فرسًا رمادية.

«ابتعدْ عن طريقي!»، صاحت به هَيا. لكنّ فارس شرطة الخيّالة تجاهَلَ طلبها وظلّ يزاحمها إلى أن انحرفت عن مسارها.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كادت هَيا أن تفقد توازنها، فتمسّكت بخُصلة من عُرْف بري التي كانت تترنّح بدورها. لقد انحرفتا عن المسار لكنّهما سرعان ما سيطرتا على الوضع بعد أن تسنّى لبري أن تمدّد جسمها من جديد. كانت خطوات بري تلتهم الأرض التهامًا. وقفت هَيا على الرِكاب وقادَتْها كالجوكي، رافعة ثقلها عن ظهر الفرس لتعدُوَ أسرع. كانت أُذنا بري منتصبتين وهي تعدو بكلّ ما أوتِيَتْ من قوّة. سبقَتْهما الفرس الرمادية، كانت أمامهما مباشرة تنطلِقُ بسرعة هائلة أيضًا. كانت هَيا تبعد خطوة واحدة فقط عن الهدف حين رصدَتْه. خفضت كتفها اليمنى نحو الأرض. الرمح في يدها، وذراعها مستعدّة، وكأنّها ستغطّ في الماء لالتقاط سمكة. بحركة واحدة سريعة، وجّهت الرمح نحو الأرض وثَقَبَتِ الورقة في وسطها. ثمّ رفعت العصا عاليًا وغنيمتها ترفرف على طرفها، فدارت ببري وحثّتها نحو خطّ النهاية. خلفها، أخطأ اثنان من شرطة الخيّالة هدفَهما وبدآ بالمحاولة مرّة جديدة، فيما أصاب راكب الفرس الرمادية وزين ويوسف جميعًا أهدافهم. كانوا يَعْدون على مسافة قريبة خلفها.

انحنَتْ هَيا فوق عنق بري، تستحثّها نحو خطّ النهاية. كان باستطاعتها سماع نخيرها الثخين الأجشّ. أكيد أنّ الفرس الرمادية لا تبعد مسافةً كبيرةً عنهما. التفتت هَيا خلفها مجازِفة بإلقاء نظرة سريعة. كانت أقرب ممّا تخيَّلَت! لكنّ خطّ النهاية اقترب وازداد هدير الجمهور. سوف تكون أوّل مَن يصل!

فيما تجاوزت خطّ النهاية، أمام الفرس الرمادية مباشرةً، وقفت على الرِكاب ورفعت رمحها عاليًا، لكنّ أنينَ خيْبَةٍ تعالى من المدرّجات. لم تستوعبْ هَيا مباشرة ما يحصل إلى أن نظرت إلى طرف العصا في يدها. ليس هناك ورقة! أكيد أنّها طارت قبل وصولها إلى خطّ النهاية. خلفها، رفع راكب الفرس الرمادية رمحه عاليًا، وورقته ترفرف في طرفه. ثمّ رفع إشارة النصر على وقْع هتافات مشجِّعيه.

«سوء حظّ». هذا ما قاله زملاؤها في الفريق بعد دخولها إلى الإسطبلات. لِمَ يُلقي الناس اللوم على الحظّ حين نخسر، لكنّهم، في المقابل، لا يأتون على ذكر حسن الحظّ إذا ربحنا؟

لو ثَقَبَتْها بشكل أفضل، لو أمسَكَتِ الرمح على مستوى أكثر انخفاضًا وهي تعدو، ربّما ما كانت الورقة لتطير، ربّما...

«لا تهتمّي»، قال لها سانتي بحزم. «ركّزي على التحدّي التالي إذا كنت تريدين الفوز.»

لكنّ رايتَيْ شرطة الخيّالة، الحمراويْن والذهبيّتيْن، كانتا ترفرفان بوجهها وتلسعانها كصفعةٍ على خدّها. التحدّي التالي سيكون مصيريًّا. بقيت ثلاث سَوارٍ، ولا هامشَ واحِدًا للخسارة.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الحادي والعشرون

الأكورد الفضّية

سقطَتْ نقطَتا دم من يد هَيا وانسالتا على الرمال الذهبيّة. كانتا سميكتين وقاتمتين كالعسل الأسود. حملت هَيا الجناح المقطوع على طول ذراعها، وتفحّصته. إنّه طُعمٌ مناسب. هزّته مجدّدًا للتخلّص من القطرات العالقة، وربطَتْه بحبل طويل لتثبيته، ثمّ تأكّدت من أنّ العقدة مُحكمَة. بعدها، مدّت ذراعها نحو الوتد حيث يربض سَما. ما إن شَعَرَ الطائر بنقرتها على بطنه حتّى قَفَزَ مطيعًا وحطّ على قبضتها المغطّاة بقُفّاز.

«هيّا بنا»، قالت وهي تحمل الصقر عاليًا. «لقد حان دورنا.»

من أصل خمس مسابقات، خسر فريقها اثنتيْن حتّى الآن. فيما وقفت في الحلبة مع سَما، تمنّت في سرّها أن يأتِيَ الفوز الأوّل لفريقها على يَديِ الصقر. شعرَتْ بثقل الطائر على يدها. لقد أصبح سَما أكثر ثقلًا في الأسابيع القليلة الأخيرة، نما له ريش الكبار

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

وتضاعَفَ حجمه تقريبًا. هذا الأسبوع، حرّرته هَيا ثلاث مرّات من الحبل الطويل، وفي كلّ مرّة كان يعود إليها. نجح ذلك في حديقة القصر، لكنّهما الآن ليسا في المنزل.

وضعت هَيا الطُّعْم في الحقيبة التي تحملها على كتفها. ثمّ تقدّمت مع سَما إلى الحلبة، ومشَتْ نحو وسطها، حيث غُرِسَ وتدٌ خشبيّ في الرمال. رَفَعَتْ سَما إلى مستوى الوتد، فقَفَزَ مطيعًا عن قبضتها، وجَثَمَ عليه.

وضعت لسما البُرْقُعَ المميّز الذي أعطاها إياه المدرّب خصّيصًا لهذه المناسبة. كان يرتفع من وسطه ريشٌ ملوّن، فبدا الصقر وكأنّه يعتمر ثمرة أناناس. هَيا تراه في غاية الأناقة لكنّها تشعر أنّه يجد نفسه سخيفًا في هذا الزيّ. ربّما البرقع الجلديّ العاديّ أنسب له.

فكّت هَيا الحمّالات ونزعت البرقع بحركة رشيقة من يدها اليمنى، ووضعتْهُ في جيبها. اتّسعت حَدَقَتا الطائر العنبريّتان حين رأى الإستاد يعجّ بآلاف الوجوه المحدِّقة إليه. «لا تخف، سَما»، قالت له هَيا. خيّم صمت على الأجواء المثقَلة بالتوقّعات فيما تراجعت هَيا قليلًا وأخذت تبتعد عن الصقر، إلى أن أصبحت على مسافة عشرين مترًا من الوتد الخشبيّ.

رفع سَما رأسه، وراقب هَيا وهي تسحب الطعم من حقيبتها. طوّحَتْ بجناح العصفور يمينًا، فيما أمسَكَتْ طرف الحبل بيدها المغطّاة بالقُفّاز، ووجّهت الطّعم باليد الأخرى. بدأت تؤرْجِحُه مثل

كاوبوي يتحضّر لرمْيِ حبل إمساك الخيْل. عندما أصبح الحبل مشدودًا، حرّكت الطعم بشكل دائريّ على مستوى منخفض بجانبها. شكّلت دوائر متتالية ظلّت ترتفع كلّما أرخت الحبل إلى أن أصبح الطعم في الجوّ وبدا كأنّه يطير من تلقاء نفسه. ارتفع عاليًا وانطلق في السماء.

من مربضه، لَمَحَ سَما الطعم، فصفّق بجناحيه مرّتين وطار خلفه. حلّق بسرعة. يجب ألّا تسمح له بالانقضاض باكرًا. فهذا العرض هو بمثابة رقصة بين المدرّب وصقره. لا يمكن لسما أن يهجم على الطعم قبل أن تكون جاهزة لتُعطيَه إيّاه.

عاليًا في الجوّ، حلّق سَما فوق الطعم راسمًا دائـرة. ثمّ انخفض نحوه بمخالب ممدودة، فاستبقَتْه هَيا وحَرَفَتْ مساره. اضطُرَّ سَما إلى التوقُّف قليلًا، ثمّ عاد يتحضّر لهجومه التالي. عندما حاول الانقضاض على الطعم مجدّدًا، شعرت كأنّها ماتادور وسما هو الثور. استبقَتْه هذه المرّة أيضًا وعدّلت مسار طيران الطعم بحيث يظلّ غرضًا جذّابًا صعب المنال.

بدَتْ رقصتهما انسيابيّة وسهلة فيما سَما يعلو ويهبط، لكنّ تلك السهولة كانت خادعة. فقد بدأت هَيا تشعر بنقاط العرق تتشكّل فوق حاجبَيْها. كان الطعم الآن في قمّة ارتفاعه. كلّما أطالَتْ أَمَدَ اللعبة أكثر، ارتفعَت احتمالات ارتكابها خطأ ما، وازداد خطر وقوعه أرضًا. أو الأنكى، قد يملّ الطائر أو يجفل من الحشود ويطير عاليًا إلى غير رجعة.

شدّت الحبل وحثّت سَما على الانخفاض إلى مستوى مناسب. ثمّ رمت الحبل مجدّدًا، وهي تحرّك الطعم بسرعة وكأنه شفرات مروحة تدور. ثمّ أرخَتْهُ وتركت الطعم يطير بعيدًا من يدها. بَلَغَ الطعم أعلى نقطة في مساره، فتدلّى في الجوّ، فوق سَما الذي انطلق كالسهم نحو فريسته، ليقبض عليها بين مخالبه.

حَبَسَتْ هَيا أنفاسها وهي تراقب نزول الطائر من السماء، والجناح بين مخالبه. هذا اختبارهما الأخير. مدّت نحوه يدها المغطّاة بالقُفّاز وصفّرت. الْتَفَتَ سَما نحو الصوت، وبلحظة اتَّجَهَ نحوها، وهو يحكم الإمساك بالفريسة بين مخالبه.

كانت نقاط الدم التي انسالت على الرمال حمراء، لكنّ الراية الثالثة التي رُفِعَتْ كانت بلون السماء. راية الحُمَّر الزرقاء والبيضاء.

*

تذكّرت هَيا ما قاله سانتي لها عن مسابقة قفز الحواجز يوم أخبرَتْهُ أنّها ترغب في المشاركة بالبطولة. لو أنّها استمعَتْ إليه جيّدًا يومها، ربّما ما كانت لتُصدَم عند رؤية الحواجز التي تُرفَع في الحلبة اليوم.

الأوّل كان حاجزًا للإحماء، قضيبٌ مستقيم يبلغ ارتفاعه حوالى مترٍ. والثاني حاجزٌ منبسط، بعلوّ متر وعشرين سنتمترًا تقريبًا، وبعرضٍ مدروسٍ ليمدّد الحصان جسده وهو يقفز. أمّا الحاجز الثالث، في وسط الحلبة، فهو ما أثار همسات الجمهور وهمهماته في الإستاد.

هو حاجز منبسط، يصل ارتفاع أعلى قضبانه إلى مترٍ وأربعين سنتمترًا، تقريبًا بعلوّ الحواجز في البطولات التي خاضَتْها هَيا في إنكلترا. إلّا أنّ العرض بين أعلى قضيبين كان شاسعًا هنا، يصل إلى مترٍ وعشرين سنتمترًا.

«هذه مساحة ضخمة»، علّقت هَيا بينما كانت القضبان الدنيا توضع في أماكنها على الحاملات. «عليهم أن يضعوا بعض الزهور أو رزَمًا من الحنطة أو أيّ شيء في هذا الفراغ. وإلّا ستعتبرها الأحصنة نهاية القفزة وتحطّ بين القضيبين.»

«لا أعتقد أنّهم ينوون استخدام أيّة زهور»، قال زين، ثمّ أشار إلى بوّابات الحلبة قائلًا: «انظري».

كان أحد فرسان بشير يعبر الرمال بسيّارة فضّيّة. إنّها سيّارة «هوندا أكورد» تشقّ الرمال الناعمة كالثعبان، مخلّفة وراءها الآثار. وسّع السائق انعطافته عند الحاجز الأوّل. عبر بالسيّارة بمحاذاة السور المحيط بالحلبة، ثمّ تقدّم بزاوية مستقيمة، مباشرةً في اتّجاه الحاجز الثالث.

كادت هَيا ألّا تصدّق عينيْها وهي ترى السيّارة تتوقّف تمامًا في وسط الحاجز، فتملأ المساحة الفارغة ما بين القضيبين.

«بإمكانك القيام بذلك»، قال سانتي. «لقد قفزتِ حواجز يتجاوز علوّها المتر والأربعين سنتمترًا في شبرلاند كوبس.»

«لم أكنْ على ظهر بري»، قالت هَيا.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

«بإمكان بري أن تقوم بهذه القفزة. فالحواجز التي قفزت عنها خلال التدريب كانت بهذا الارتفاع تقريبًا.»

«لكنّنا لم نقفز فوق سيّارة!»

«لا تفكّري في السيّارة، فكّري فقط في القضبان.»

قالت هَيا: «كيف أستطيع ألّا أفكر في السيّارة وهي هنا، أمامي، في وسط الحاجز تمامًا؟»

شروط هذه المسابقة بسيطة. أهمّ قفزة فيها هي القفزة فوق السيّارة، ولكلّ فارس ثلاث فرص للقيام بها.

شاهدَتْ هَيا مسابقة كهذه من قبل. كانت مسابقة في القفز العالي في منطقة ساسيكس. اصْطَحَبها آل رامسي يومها. تذكر أنّها وقفت جانبًا هي وجميما ولوسيندا يتفرّجن على العمّال وهم يرفعون جدارًا من الطوب الخشبيّ الكبير في وسط الحلبة. كان الجدار عاليًا إلى درجة أنّ المتسابقين لم يكونوا يستطيعون رؤية ما هو خلفه.

كان الفرسان يحثّون أحصنتهم على القيام بخطوات قويّة وواسعة، وهم منكمِشون فوق ظهورها. ثنوا رُكَبَهم تحتهم تمامًا ليتمكّنوا من دفع أجسادهم بالقوّة اللازمة للارتفاع فوق مستوى الجدار واجتيازه. يومها، أدركت هَيا أنّ القفزات الكبيرة يجب ألّا تُخاض بسرعة محمومة وبفوْرة من الأدرينالين، وإنّما بأعصاب باردة.

لكنّ هَيا تُدرك أيضًا أنّ شروط القفز فوق سيّارةٍ مختلفةٌ عن شروط القفز من فوق جدار.

حين ستقترب بري من ذلك الحاجز، سيكون عليها التّحلّي بما يكفي من القوّة في رُكبتيْها لتحقيق العلوّ المناسب، وبما يكفي من السرعة لاجتياز عَرض الحاجز. أيُّ خطأ ستكون نتائجه وخيمة. لا يهمّ ما يقوله سانتي عن تجاهل السيّارة. إذا حطّتا فوقها أو ارْتَطَمَتا بها ستكون العواقب كارثيّة.

كان الجمهور يترقّب بدء المسابقة بحماسة فائقة. وقفت هَيا في رواق الإسطبلات المعتم وهي تُمْسِك بلجام بري، وتنظر بقلق نحو الحلبة.

«هل ترين؟»، همست للفرس الكميت. هزّت بري برأسها فورًا وكأنّها تردّ عليها قائلة: «بالتأكيد، لا».

«أوكي»، قالت هَيا، وهي تمسّد بحنان شعرَ هامة الفرس. «ربّما من الأفضل لك ألّا تنظري. لكن أنا سأتفرّج، اتّفقنا؟»

لحسن الحظّ، كان أفراد شرطة الخيّالة قد اختاروا أن يخوضوا المسابقة قبلهم.

«هل بدأوا؟»، سألها زين وهو يلهث راكضًا من الطرف الآخر للإسطبلات.

«ليس بعد»، قالت هَيا. «الفارس الأوّل على وشك أن يبدأ...»

والفارس الأوّل لم يكن سوى ذاك الرجل الذي يمتطي فرسًا رماديّة والذي تغلّب عليهم في التقاط الأوتاد. انطلق ممتطيًا فرسه بعدوٍ مسْتَعِرٍ.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«سريع جدًّا»، قالت هَيا لزين. «إنّه يعدو أسرع من اللازم بكثير. هذه ليست الطريقة الصحيحة للقيام بقفزة كهذه.»

بعدها بلحظات، اتّضَحَ أنّ هَيا صائبة. فقد انزلقت قوائم الفرس الرماديّة بعد أن توقّفت فجأة وتسمّرت في مكانها، أمام السيّارة مباشرة. عاودت الكرّة مرتين، فاستُبعِدَ المشارك.

فارسٌ بعد آخر، تكرّر الأمر نفسه. بدا أنّ المتبارين من شرطة الخيّالة يعجزون عن القفز فوق سيّارة. بعضهم اقترب بسرعة أكثر ممّا يجب وبعضهم تردّد أكثر ممّا يجب. حين وصل دور بشير، كانت الخيبة قد تملّكت الجمهور الذي يَئِسَ من نجاح أحد في تلك القفزة.

فضّلت هَيا ألّا تتفرّج على الكولونيل بشير وهو يؤدّي قفزته. كانت في حلبة التدريب، تقوم بتمارين الإحماء مع بري عبر القضبان المتشابكة. سمعت هدير الحشود وهو يقترب من الحاجز ثمّ تذمّرها بعد أن أخْفَقَ بدوره. ساد الصمت بينما كان بشير يغادر الحلبة، وهو يهزّ رأسه بخيْبة.

يكفي أن ينجح فارس واحد بتلك القفزة حتّى يفوز فريق الحُمَّر بالمسابقة. كانت هَيا أوّل مَنْ سيتبارى من الفريق. انتظرها سانتي وأورسولا على البوّابة.

«تذكّري»، قال سانتي وهي تربط خوذتها. «تجاهلي السيّارة. يجب ألّا تتّجه عيناك نحوها. أنظري إلى فوق، هَيا، دائمًا فوق

القضبان، نحو المكان الذي تتّجهين إليه. إذا نظرْتِ نحو السيّارة، ذلك يعني أنّك تنظرين إلى تحت. وإذا فعلتِ، ستتوقّف بري.»

كان من السهل على هَيا أن تقف خارج الحلبة وتُقيّم أخطاء الفُرسان الآخرين. ولكن فور دخولها الحلبة، شعرت بكلّ ما تعلّمَتْهُ خلال التدريبات يطير من أذنيْها ويتبخّر. هل ستنجح في السيطرة على أعصابها؟ بدأت بالعَدْو. استرخي. حافظي على هدوئك.

لكنّها سيّارة!

تستطيع القيام بذلك. لقد سَبَقَ لها وقفزت فوق حاجز بهذا العلوّ في باحة آل رامسي.

نعم، لكن ليس على متن بري.

عدَتْ ببري بسرعة نحو الحاجز الأوّل، و حين أصبحت على بُعْدِ خطوات قليلة منه، أحسّت بالفرس تتراجع. كان فكر هَيا منشغلًا بالسيّارة فلم تنطلق ببري بالسرعة الكافية نحو الحاجز الأوّل. سترفض بري القفز! لَكَزَتْ الفرس لكزةً حازمةً بكعبيْها، فتجاوبت بري في آخر لحظة. لقد عَبَرَتا! كانت قفزة خرقاء بعض الشيء لكنّهما نَفَدَتا بريشهما. تمالكت هَيا نفسها، وهي تتحضّر للقفزة التالية. ساد صمتٌ في المدرّجات وهما تقتربان من الحاجز وتركّزان على القفزة. هذه المرّة، قامت بري بوثبة جميلة وقفزت بسهولة. جمعَت هَيا اللجام. الحاجز الثالث أمامهما، الحاجز العريض، وتحت قضبانه، السيّارة الفضّيّة تلمع في الشمس.

تجاهلي السيّارة!

قادت هَيا بري على المسار الصحيح وهي تقترب من الحاجز. كانت تتقدّم بمهارة وهي تراقب خطوات الفرس، إلى أن نظرت إلى السيّارة الفضّيّة وسمعت صراخ الحشود. أمام كلّ هذه العيون المصوّبة نحوها، اعتراها التوتّر. فجأة، تلاشت ثقتها بنفسها وتملّكها الشكّ. شعرت بري بتردّد فارستها فتجاوبَت، بشكل غريزيّ، وتراجعَت. غرقا في دوّامةٍ من القلق، فالقلق تيّار يسري في الاتّجاهين بين الحصان وراكبه. حين أحكَمَتْ هَيا ساقيْها وصاحت: «انطلقي!»، لم تسمع بري سوى نبرة الشكّ والتردّد في صوتها.

في اللحظة الأخيرة، في اللحظة التي كان من المفترض أن تقفز فيها، تراجعت الفرس فجأة، فانزلقت، ضاغطة بكل ثقلها على قوائمها الخلفيّة التي انغرست حتّى العرقوب في الرمال، لكن كلّ ذلك لم ينفع في إبطاء اندفاعها. تصاعدت شهقة جماعيّة لرؤية الفرس تطير نحو السيّارة قبل أن تنهار على أبوابها الحديد، متسبّبة بتداعي القضبان التي تدحرجت هنا وهناك.

ارتفعت هَيا في الجوّ على أثر الصدمة العنيفة التي قذفت بها بقوّة عن السرج. طارت في الهواء وحطّت بقوّة على غطاء محرّك السيارة، قبل أن تنهار القضبان فوقها. حُشِرَت يدها بين أحد تلك القضبان والسيّارة، بينما ارتطم قضيب آخر بخوذتها. ثمّ تدحرجت هَيا مع القضبان من فوق السيارة على الرمال.

في السماء الزرقاء، كان هناك ثلاث رايات مرفوعة: اثنتان بالأحمر والذهبيّ وواحدة بالأزرق والأبيض. كانت تلك الرايات هي آخر ما رأَتْه هَيا وهي تُغمض عينيْها.

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

24 أغسطس 1986، التاسعة مساء

مرحبا ماما،

هذه أنا مجدّدًا. أرسلني بابا إلى غرفتي لأستريح. قلتُ له ألف مرّة أنّني بخير لكنّه يقلق أكثر من اللازم. أشعر فقط ببعض الصداع، هذا كلّ ما في الأمر، وليس بسبب السقطة، بل لأنّني قضيت اليوم بطوله في الشمس.

أعتقد أنّ السقطة بدَتْ مخيفة في لحظتها. خصوصًا أنّهم، حين وصلوا إليّ، كنت مستلقية على الأرض، من دون حراك. كنت فاقدة الوعي. علي يقول إنّها المرّة الوحيدة التي رآني فيها صامتة!

أذكر أنّني ما إن صحوْتُ، سألت نفسي: لِمَ أنا هنا؟ وماذا حلّ بحصاني؟ ولعلّي تأوّهت بصوت مسموع لأنّني سمعت أحدهم يقول: «لقد استفاقت!»

كانت عيني تطرف من وهج الشمس القويّ، ولم أكن أرى أمامي. شعرت بأحدٍ يلفّني بذراعيْه. أكيد أنّني كنت لا أزال تحت

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

تأثير الدوخة فكِدْتُ أُقسِم أنّ ذاك الشخص هو أنت، تضمّينني وتحمينني. نطقْتُ باسمك. ثم رأيت الكثير من الناس متجمّعين فوقي، حجبوا عنّي الشمس، فأدركْتُ أنّ ذاك الشخص ليس أنتِ... بل هي.

ركعت فرانسيس على الرمال، تهدهدني إلى صدرها. بصراحة، أستبعد جدًّا أن تكون إسعافات سانت جون تنصح بذلك. لست متأكّدة من أنّ احتضان شخص بهذه القوّة هو التصرّف المناسب في حالات كهذه. بَدَتْ قلقة جدًّا. لم تكن نظرة القلق المصطَنَعة تلك التي لطالما رأيتها تفتعلها أمام بابا، بل نظرة خوف حقيقي. كانت قلقة عليّ فعليًّا، وبصدق.

«هَيا! لا تتحرّكي. المسعفون سيصلون قريبًا. لا عليك، ستكونين بخير.» ذلك ما ظلّت تردّده مرّة بعد أخرى. كانت تبكي. رأيت احمرار عينيها والدموع المتجمّعة فيهما. حاولْتُ أن أقف، فشعرت بالألم كسكّين ينغرز في ذراعي اليمنى.

لم أخبرْ أحدًا، ولكن بعد موتك، اعتدْتُ أن ألعب تلك اللعبة بيني وبين نفسي. حسنًا، ليست لعبة تمامًا. كانت... أعتقد أنّ بإمكانك تسميتها تفاوضًا. أردْتُ استرجاعك بأيّ ثمن، واعتقدْتُ أنّ بإمكاني عقد اتفاقٍ مع القدر. بدأت بالتفاوض حول أصابعي أوّلًا، وأنا أعدّها وأتحضّر للتخلّي عنها واحدًا بعد الآخر، لكنّني أدركْتُ أنّ ذلك ليس كافيًا. الأصابع ليست تضحية حقيقيّة. هكذا، أغلقت

عينيّ ذات مرّة ومنحت القدر ذراعي. من دونها، لن أتمكّن من ممارسة الفروسيّة مجدّدًا، لكنّني سأستعيدك، وهذا يعوّض ذاك.

لم أعد أذكر لماذا خُيِّلَ لي أنّ بإمكاني عقد اتّفاق كهذا، عرضُ التخلّي عن أجزاءٍ مني وصولًا إلى خداع القدر. لكنّ موتك لا منطق فيه، فلِمَ تتوقّعين منّي أن أكون منطقيّة؟ كنت أتألّم بشدّة. لم أكن أريد شيئًا في الدنيا سوى عودتك.

معظم الأطفال لا يفكّرون في الموت. يعتقدون أنّهم سيعيشون إلى الأبد. لكنّني، أنا، أعرف ما هو الموت وبتّ أعرف أنّ لا سبيل للتفاوض معه.

بعد رحيلك، خفتُ أن أفقدَ بابا أيضًا. رعبَتْني فكرة أن تطاله رصاصة قاتل وأن تجد طريقها إلى قلبه هذه المرّة، بدل أن ترتدّ على الميدالية المعلَّقة على صدره.

ذات يوم، كنت شديدة الحزن. سألني بابا عمّا بي، فأخبرته أنّني خائفة عليه. ضمّني إليه يومها وقال إنّه يتفهّم خوفي، وإنّه هو أيضًا لن يودّ يومًا أن يخسرني، لكن يجب ألّا أسمح للموت بأن يفرد ظلاله القاتمة عليّ.

قال بابا إنّه لم يعد يخاف الموت منذ ذلك اليوم الذي ارتدّت فيه الرصاصة عن صدره. لقد بقيَ حيًّا رغم كلّ شيء، والقدر فقط هو الذي سيقرّر متى ستحين ساعته. وإلى أن تحين تلك الساعة، سيعيش شجاعًا في خدمة مملكته ولن يفكّر كثيرًا في الموضوع.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

القدر هو الذي يختار مصائرنا. لا مفرّ من ذلك، مهما تمنّينا لو كان باستطاعتنا تغيير الأمور. وإذا آمنّا أنّ قدرنا مكتوب ومُقرَّر، لا يعود هناك مكان للخوف.

الخوف هو ما رأيْتُه حين ضمَّتْني فرانسيس بين ذراعيها، فأدركْتُ أنّ تلك هي الطريقة التي تعيش بها حياتها. هي خائفة من كلّ شيء: من تناول الشوكة الخطأ، من التعرّض لإصابةٍ على ظهر حصان، من توسيخ السجّادة بالوحل أو من إقامة صداقات مع الأشخاص غير المناسبين. وهذه ليست طريقة مناسبة للحياة.

لقد علّمْتِني أن أكون شجاعة، ماما. لم تدعي الخوف يردعك حين صعدتِ إلى تلك الهليكوبتر وقصدتِ طفيلة. لذا، إذا كنتُ قد برهنتُ عن شجاعةٍ ما اليوم، فذلك بفضلك أنتِ، وبابا.

كانت ذراعي لا تزال تؤلمني بشدّة، لكنّني حاولْتُ ثَنْيَ أصابعي، وحين نجحْتُ في ذلك أدركْتُ أنّني لا أعاني كسورًا. دفعت بنفسي إلى أعلى وأنا آخذ نَفَسًا عميقًا وأحرّر نفسي من بين ذراعيها.

«هَيا...»، بدا على فرانسيس الضياع، فشعرت بأنّها هي مَن تحتاج إلى المساعدة وليس أنا.

«أنا بخير»، قلت. «لست مصابة.»

في ما بعد، تمنّيت لو أنّني خاطبتها بكلمات ألطف، في تلك المرّة على الأقلّ. لكنّ علاقتنا ليست هكذا، أنا وفرانسيس. ربّما لن تفهمني أبدًا، لكنّني صرتُ أنا، على الأقلّ، أفهمها الآن.

وقفْتُ مترنّحة، فكدْتُ أقع مجدّدًا على الرمال. لكنّني شعرت بيد قويّة تمتدّ إلى ظهري وتحملني. كان ذلك بابا، يقف تمامًا في محاذاتي.

«بابا؟» نظرت نحوه. «أين بري؟ هل هي بخير؟»

ثمّ رأيتُها. كان علي يجرّها من اللجام ويقودها نحوي. أصيبت بجرح صغير في ركبتها عند ارتطامها بالسيّارة.

«هل هي تعرج؟»، سأل علي بقلق.

هززْتُ برأسي. «الجرح ليس عميقًا. لا أعتقد ذلك.»

لكزَتْني بري بخطمها في تلك اللحظة وكأنّها تقول لي: «أنا بخير». مع ذلك، قُدْتُها على الرمال مخبخبةً لأفحص ساقها. كانت سليمة.

«أتساعدني على الركوب؟»، سألت بابا.

«هل ستحاولين مجدّدًا؟» بدا القلق على بابا. تردّد في البداية، لكنّني نظرت في عينيه مباشرة، وقلت له: «أَخْبِرِ القدر أنّه لم ينجح هذه المرّة».

كان إحساسًا غريبًا، ماما، أن أعود إلى ظهر بري من جديد. كنت لا أزال أرتجف قليلًا حين أمسكت اللجام. لحسن الحظ، استغرق إخلاء الحلبة من الناس وإعادة تجهيزها بعض الوقت، ما منحَني الفرصة لاستعادة تركيزي. جاء علي وأعطاني السوط الذي كان قد أفلت منّي حين وقعْتُ، ثمّ نظر نحوي، وقال: «حاولي أن تقفزي من فوقها هذه المرّة وليس عليها».

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«شكرًا على النصيحة»، قلتُ له وأنا أبتسم. كنت على وشك أن أستدير ببري حين أمسك بابا بيدي وشدّ عليها. «هَيا...» كان صوته هادئًا، ونبرته واثقة. «بإمكانها القيام بذلك. تذكّري، حافظي على إيقاعك طوال المسافة حتّى الحاجز، وعندها فقط، ارتفعي وادفعيها في آخر خطوتين.»

ثمّ غادر الجميع. من جديد، عدنا وحدنا في الحلبة، أنا وبري.

بدا وكأنّ بري لم تتأثّر بالسقطة. كانت تشدّ على اللجام بشكلٍ أقوى ممّا فعلت في حياتها ونحن نلفّ لاتخاذ موقعنا. كان عليّ أن أضبطها بحزم كي تفهم أنّني أنا مَن يتحكّم الآن. تجاوبَتْ معي بعد ذلك، فانطلقَتْ جارية نحو الحاجز العريض، ثمّ، ونحن ننعطف عند الزاوية، رأيت السيّارة تلمع تحت أشعّة الشمس. مهما كان رأي سانتي، ليس بإمكانك الإدّعاء أنّها ليست هنا. إنّها ضخمة!

ازدحم رأسي بمليون فكرة، ماما. لكنّني، أثناء توجّهي نحو السيّارة الفضّيّة، استعدْتُ إحساسي في أوّل مرّة امتطيت فيها بري. شعرت بأنّ حصاني سيعتني بي. شعرت بالأمان. وفي تلك اللحظة، عرفت أنّ بإمكاننا النجاح في ذلك معًا. «هيّا بري»، همست. «انطلقي! انطلقي الآن!»

شعرْتُ بخطواتها تُسرع تحتي، وبقوائمها قويّة وجبّارة، تلهب الأرض لهبًا. كانت تستجمع قواها. ثمّ شعرت بتلك القوّة المذهلة وهي تقوم بخطوتها الجسورة الممتازة لتصل إلى الحاجز وتطير فوقه.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

تطير فعليًّا، إذ لا بدّ أنّنا تجاوزنا طرف الحاجز بسنتمترات ونحن لا نزال في الجوّ. كان ذلك أعظم إحساس في الدنيا، ونحن معلّقتان، هكذا، في الجوّ. ثمّ سمعت نخير بري تحتي وهي تدفع بقائمتيْها الخلفيتين قافزةً عن القضيب الأخير لنحطّ في الجهة المقابلة من الحاجز.

وصلتْني أصوات التصفيق الحادّ كالرعد، فأدركت أنّ كلّ مَن في الإستاد كان قد حَبَسَ أنفاسه ترقّبًا في انتظار ما سنفعله. حملَتْنا موجة التصفيق الذي لم يهدأ ونحن نجوب الحلبة. وقفْتُ على الركاب وأنا أقبض بيدٍ على اللجام، وأحيّي الجماهير باليد الأخرى، فيما بري تنخر وتعضّ على الشكيمة، وذَنَبُها مرتفع يطفو خلفها كفرس عربيّة أصيلة.

فيما كنّا نستعرض فوزنا في الحلبة، تمكّنت من رؤية بابا وعلي. كانا يصفّقان بقوّة. وفرانسيس أيضًا كانت تصفّق، فابتسمْتُ ورفعْتُ لهم بيدي. ثمّ علا هتاف الحشود، فنظرتُ إلى فوق رأس بابا لأراهم يرفعون رايتي، الزرقاء والبيضاء، التي رفرفت عاليًا على السارية الرابعة.

كنت في قمّة الانتشاء حين عدنا إلى الإسطبلات وركض الجميع نحونا. زين وصل أوّلًا وضرب كفّه بكفّي، ثمّ أدرك أنّ ذلك كان تصرّفًا غير لائق، فارتبَك وقال: «عافاك، سموّ الأميرة».

لم أشعر بحماسة كهذه في حياتي. لقد قفزنا فوق سيّارة!

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«هي أفضل فرس في العالم!»، قلت لزين. وكنت أعني ذلك حقًّا، ماما، هي فعلًا كذلك.

إلّا أنّ وقت الاحتفال لم يكن قد حان بعد. فلا يزال هناك مسابقة الجمباز على الخيل، وعليَّ أن أجهّز بري. ساعدني زين على نزع السرج، بينما جلبت السطل والإسفنجة وأخذت أمسح جسمها لتنتعش قليلًا. استخدمت كاشطة العرق للتخلّص من الماء الفائض فأصبح جلدها لمّاعًا، ولونها الكستنائي الغنيّ الداكن يبرق. شعرت بنعومتها وتذكّرت سجّادة فروة الدبّ. لقد أتاحت لي تلك السجّادة أن أتدرّب على الوقوف على ذراعيّ لكنّني لم أحظَ، مذ حينها، بفرصة تجريب ذلك فوق ظهر بري. حسنًا، قريبًا جدًّا سأحظى بتلك الفرصة.

بدأ فريق بشير قبلنا في مسابقة الجمباز. لقي أداؤهم الكثير من هتافات الاستحسان والتشجيع، لكنّه لم يقدّم جديدًا.

أليس ذلك غريبًا، ماما؟ في البدء، لم يكونوا يريدونني أن أشارك لأنّني فتاة. ولكن سرعان ما اتّضح، في المسابقة الأخيرة، أنّني أحظى بميزة إضافية لأنّني فتاة. فبشير ورجاله ضخامٌ وثقيلو الوزن، حركاتهم خرقاء ومرتبكة فوق خيولهم. أمّا أنا وزين، فكنّا صغيرَي الحجم، حركاتنا رشيقة وخفيفة. حين دخلنا الحلبة، كنتُ أنا خلف يوسف على ظهر حصانه الرماديّ فيما زين خلف راضي على ظهر حصانه الكستنائيّ. ثمّ أكملنا طريقنا، وزميلانا في الفريق يتقاذفاننا

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وكأنّنا دمى محشوّة يحرّكانها بالحبال. وَثَبْنا عن الأحصنة ثمّ عدنا لامتطائها مجدّدًا وكأنّ الأرض من تحتنا ليست سوى ترامبولين! في لحظةٍ ما، وجدتُني أقف على رَدْفَيْ حصان يوسف الرماديّ الكبير فيما هو يجري وأقفز في الهواء، لأحطّ بأناقة خلف عطا على فرسه الكستنائيّة. في تلك الأثناء، كان زين، الذي يمتطي حصان عطا الكستنائيّ، يثب بعكسي ليحطّ على حصان يوسف الرماديّ، في المكان الذي قفزت عنه للتوّ.

ركبنا بالمقلوب، ولوّحنا للجمهور فيما كنّا نواجه أرداف الأحصنة. ثمّ تشقْلَبْنا في الهواء لنحطّ خلف الحوافر التي تلهب الأرض. إذا كان الجمهور قد هتف لبشير قبل دقائق، فقد أصبح تصفيقه الآن مدوِّيًا كالرعد في الإستاد. كان المتفرّجون يخبطون بأرجلهم على إيقاع الموسيقى. حين نظرْتُ إلى بابا في المقصورة الملكيّة، رأيت وجهه يشعّ بابتسامة واسعة كتلك التي ترتسم على وجهَيِ الأسدين في قصر الندوة.

عندما حان موعد العرض النهائيّ، كان الهتاف عاليًا في الحلبة إلى درجة أنّني بالكاد استطعت سماع سانتي، الذي اصطحب بري مهرولة نحوي، وهو يقول: «في رعاية الله». ساعدني سانتي على الركوب، فيما قاد يوسف الفريق إلى وسط الحلبة للقيام بجولة أخيرة وتوديع الجمهور. تقدّمتُ، وإذا بنا وحدنا فجأة، أنا وبري، أمام الجميع.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

إنّها فرس مذهلة، ماما. ليتَكِ قابلْتِها. ليتَ بإمكانك أن تعرفي كم أحبّها.

«هيّا بنا، لنُرِهِمْ ما لدينا»، همستُ لبري. شعرتُ بها تستعدّ فاستَحْثَثْتها لتنطلق من الجري إلى العَدْو. نظرت تحتي، فرأيت الرمال الذهبيّة تتطاير تحت حوافرها. كنت أعرف أنّ القدر قد ينتصر هذه المرّة إذا ما وقعْتُ. لكنّني لم أكن أشعر بالخوف.

جلّسْتُ ظهري وأنا فوقها وأفلتُّ اللجام من يدي. فردْتُ ذراعَيّ من الجهتين كالطائرة، وأخـذْتُ نَفَسًا عميقًا. كنت أشعر بإيقاع عدْوِها، وبوقع حوافرها، فتزداد نبضات قلبي قوّة. 1-2-3.

شعرت أنّني جاهزة للقيام بحركتي. ثبّتّ يـديّ على فروتها الحريرية وربضت على الأربعة وكأنّني نمر. ظلَلْتُ هكذا للحظات، قابضة بيديّ على كاهلها، وقد بسطت أصابعي واسعة، ووزني كلّه يتكئ على يديّ وذراعيّ، وساقاي جاهزتان. دفعت بهما إلى أعلى.

لوهلة، شعرت بأنّني بالغت في الدفع وبأنّني سأنقلب إلى الأمام، على عنقها. لكنّني حافظت على تصلّب ساقيَّ وثبات يديّ فلم تنزلق أصابعي هذه المرة، بل ظلّت مغروسة بقوّة على كاهل بري. قوّست ظهري، ومدَدْتُ أصابع قدميَّ نحو السماء، وأنا أحافظ بكل ما أوتيت من قوّة على وضعيّتي.

كنت أعرف أنّني، مهما حصل، لن أقَع.

تتمّة

كانت الأميرة هَيا بنت الحسين في الثانية عشرة من عمرها حين قادت فريق الإسطبلات الملكيّة الأردنيّة إلى الفوز على شرطة الخيّالة الملكيّة في بطولة الكأس الملكيّة للفروسيّة. وكانت تلك هي المرّة الأولى منذ عقد التي يربح فيها فريق الحُمَّر الجائزة المشتهاة.

في عمر الثالثة عشرة، كانت الأميرة هَيا أوّل أنثى تمثّل الأردن على المستوى العالمي في رياضة الفروسيّة، وتحصد ميداليّة برونزيّة فرديّة عن قفز الحواجز في دورة الألعاب العربيّة لعام 1992. وهي لا تزال حتّى الآن المنافِسة الأنثى الوحيدة التي نالت ميداليّة في رياضة الفروسيّة، طوال تاريخ الألعاب العربيّة.

تسبّب قرار الأميرة هَيا احترافَ قفز الحواجز ببعض الجدل، لكنّ والدها ساندها دومًا، وبشكل غير مشروط. كانت المرأة الوحيدة في الأردن التي تحمل رخصة لقيادة الشاحنات حتّى تتمكّن من اصطحاب أحصنتها لخوض سباقات على الأراضي الأوروبيّة، فلقّبها

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الملك بـ«سائقة الشاحنات». كان يعشق الاستماع إلى تجاربها وقصصها عن السفر بالبرّ، والتي هي، بالتأكيد، أبعد ما تكون عن كلّ ما تمليه قواعد الحياة الملكيّة.

عام 2000، اختيرَت الأميرة هَيا لتكون عضوًا في فريق قفز الحواجز الأولمبيّ الذي سيخوض البطولة في سيدني، وحملت العلم الأردنيّ في حفل الافتتاح، متّخذة موقعها المستحَقّ بين أفضل رياضيّي العالم. للأسف، توفّي الملك حسين قبل بدء البطولة بفترة وجيزة.

بعدها بسنتين، خلال مشاركتها في الألعاب العالميّة للفروسيّة في جيريز دو لا فرونتيرا في إسبانيا، قابلت الأميرة هَيا الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، حاكم دبي، الذي سيصبح زوجها في ما بعد. فقد تزوّجا عام 2004 وكُلِّلَ زواجهما بولدين، سموّ الشيخة الجليلة وسموّ الشيخ زايد.

اليوم، تحتلّ الأميرة هَيا أحد أرفع المناصب التشريفيّة في عالم الفروسيّة، رئيسةً منتخَبَةً للاتحاد الدوليّ للفروسيّة. وقد أحدثت فترة ولايتها ثورة في دور الرئاسة فأعيد انتخابها لولاية ثانية، عام 2010، وهذا أمر غير مسبوق في تاريخ انتخابات الاتحاد.

أمّا الأمير علي، شقيق الأميرة الذي زجّته ذات مرّة في مصعد الخدمة، فقد أصبح نائب رئيس الاتحاد العالميّ لكرة القدم، وممثِّلًا عن آسيا.

تكريمًا لذكرى والدتها، الملكة الراحلة عليا، أسّست الأميرة هَيا «تكيّة أمّ علي» عام 2003، وهي أوّل منظّمة غير حكوميّة في العالم العربي تُعنى بالمساعدات الغذائيّة، وأصبحت رئيسة مجلس إدارتها. كانت أيضًا أوّل شخص من أصل عربيّ وأوّل امرأة تُعيّن سفيرة للنوايا الحسنة في برنامج الغذاء العالميّ، كما عيّنتها منظمة الأمم المتحدة سفيرةً للسلام.

شاركت بنت الريح، المهرة اليتيمة التي ربّتها الأميرة، في الكثير من بطولات القفز، قبل أن تنسحب إلى إسطبلات الحُمَّر، حيث قضت ما تبقّى من أيّامها في تقاعدٍاستحقّته عن جدارة.

مكتبة الرمحي أحمد
tele @ktabpdf

ستايسي غريغ – في طفولتها، شُغفَت ستايسي غريغ بالخيول، حتّى إنّها حاولت تدريب كلبها على قفز الحواجز في حديقة المنزل، إلى حين سمح لها والداها باقتناء مهرة. غريغ لم تصبح فارسة، لكنّها برعت في الكتابة عن الفروسيّة، إذ بيع أكثر من نصف مليون نسخة من السلسلتين اللتين أصدرتهما عن الخيول Pony Club Secrets وPony Club Rivals والموجّهتين إلى الفتيات الصغيرات.

لتأليف «الأميرة وبنت الريح»، نزلت الكاتبة النيوزيلندية ضيفة على الأميرة هَيا بنت الحسين في الأردن. زارت قصور العائلة المالكة، وجالت في الإسطبلات الملكية، وأدارت حوارات مطوّلة مع الأميرة ومحيطها، متتبّعة ومتقصّية، لنسج خيوط هذه القصّة المؤثّرة عن الأميرة ومهرتها.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

العائلة هي أغلى ما تملك الأميرة هَيا. في حضنها، تعيش طفولة سعيدة، إلى أن تهبّ تلك العاصفة المشؤومة وتقع المأساة، فينهار عالمها الهانئ. هربًا من الحزن، تتقوقع الأميرة الصغيرة على نفسها وتنزوي أكثر فأكثر. في عيد ميلادها السادس، يأتيها الملك بهديّة ستغيّر حياتها إلى الأبد: مهرة يتيمة لا يتجاوز عمرها أيّامًا قليلة.

تنشأ بين الأميرة والمهرة علاقة عميقة ومؤثّرة. تكبران معًا، ومعًا تختبران الحبّ والفراق والتحدّي، وفي النهاية... البطولة.

مع «بنت الريح»، تحقّق هيا حلمًا لم تجرؤ أيّ فتاة صغيرة على أن تحلم به من قبل.

١٤٤

«الأميرة وبنت الريح» قصّة واقعية مستوحاة من حياة الأميرة الأردنية هيا بنت الحسين، التي بدأت تشارك في بطولات الفروسية منذ كانت في الثانية عشرة من عمرها.

ISBN 978-9953-26-961-0
9 789953 269610

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان